

الفكر النازحي عند الأمازيغ

تأليف

أرنولد توماس

مراجعة

دكتور محمد صقر خفاجة

ترجمة

لمعنى الطيبي



المنشأة للنشرية العامة بـ



الفكر النازي عند الأغبوق

هذه ترجمة كتاب :

Greek Historical Thought

تأليف :

Arnold Toynbee

● الطبعة الثانية

● بمناسبة الذكرى المئوية لارنولد توينبى .

الفكر النازحي عند الأغر يق

تأليف
أرنولد تويسبي

مراجعة
دكتور محمد صقر خفاجة

ترجمة
لمعنى المطييعي



المكتبة العربية للدراسات والبحوث

١٩٩٠

تعريف

ولد المؤرخ الماصر « أرنولد توينبي » في لندن — ١٤ أبريل عام ١٨٨٩ .
ودرس الأديين اليوناني واللاتيني في جامعة أكسفورد . وفي عام ١٩١٩ عين
أستاذاً للأدب البيزنطي بجامعة لندن . وبدأ يشرف على المعهد الملكي للشئون
الدولية منذ عام ١٩٢٥ ، كما عين أستاذاً للتاريخ العام في جامعة لندن . وفي عام
١٩٢٢ بدأ يضع الخطوط الأولى لمؤلفه الضخم (دراسة التاريخ) وصدرت منه
المجلدات الثلاثة الأولى عام ١٩٣٤ .

وإذا كان المؤرخ « أرنولد توينبي » قد شهر بين المهتمين بالدراسات التاريخية
بفضل هذه المجلدات ، فإن الكتاب الذي تقدمه لقراء العربية لأول مرة ، يعتبر
المدخل الحقيقي لدراسة التاريخ .

ويمكن تلخيص نظرة توينبي إلى الحضارة والتاريخ في عبارة صدر الناشر بها
هذا الكتاب وهي : عالم واحد — ماض وحاضر ومستقبل .

وكتابنا هذا ليس مجرد سرد تاريخي لثراث الإغريق ، وإنما هو يعبر عن
تحليل لفلسفة التاريخ وفن كتابته عند المؤرخين الإغريق ، ويكشف في الوقت
ذاته عن مدى إيمان « توينبي » بأثر الحضارة الإغريقية في الحضارة الحديثة .

الترجم

مقدمة الطبعة العربية الثانية

آرنولد توينى والفكر التاريخي

١٨٨٩ — ١٩٧٥ م

لمى المطبعي

في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات ، عندما كان زمانى في شبابه ، وضعت ضمن مشروعات حياتى الثقافية أن أجعل المؤرخ العالمى « آرنولد توينى » ينطق باللغة العربية ، أى أن أترجم أكبر قدر من أعماله إلى اللغة العربية . ولكن ظروف الحياة صرفتنى عن هذه الأمنية ، وكل ما تبقى لى من هذا الرائد العظيم ترجمة عربية لكتاب (الفكر التاريخى عند الاغريق) نشرته ضمن المشروع الأول للألف كتاب وراجعته « الدكتور محمد صقر خفاجه » ، وترجمة لكتاب (مستقبل الغرب) الذى صدر بعنوان (مستقبل الحضارة) عام ١٩٦١ م للمفكر الهولندى « ج . دى بويس » وهو كتاب يجمع آراء عدد من المؤرخين — ومنهم توينى — حول مستقبل الحضارة الغربية ، وكتاب آخر يحتوى على (نماذج مختارة) وعرض ودراسة ، ثم كتاب صغير بعنوان كبير هو (آرنولد توينى — المؤرخ الفيلسوف) صدر فى ديسمبر من عام ١٩٦١ . هذا إلى جانب عدد من المقالات عن هذا المؤرخ العظيم .

توينى فى مصر

وفى ديسمبر من عام ١٩٦١ ، كان المؤرخ الكبير فى القاهرة . . واحتشد أساتذة الجامعات والمفكرون والكتاب والمثقفون فى الجمعية الجغرافية يستمعون اليه وهو يتحدث عن وحدة العرب ولماذا تأخرت . . والدوافع السياسية

والاقتصادية للاتحاد الاقليمي .. وتاريخ الضغوط الأجنبية على العرب ،
ويتحدث عن العرب والغرب .. واحتفت الأوساط العلمية والجامعية
والرسمية بأرنولد توينبي . وبالنسبة لى شخصياً كانت لحظة من لحظات العمر
المضيئة حين قدمنى اليه مرافقه الصديق « الدكتور محمد انيس » وقدمت
للمؤرخ الكبير كتاباً لى عنه وعن أفكاره فى التاريخ . وحرصت (الدار القومية
للطباعة والنشر) على أن يصدر الكتاب يوم وصول المؤرخ الكبير إلى القاهرة فى
أوائل ديسمبر ١٩٦١ . وبإتسامة التواضع الجليل تقبل المؤرخ الكبير هذا
العمل البسيط وعرض غلاف الكتاب على السيدة زوجته ليذكرها بصورة له
اختارها مصمم الغلاف .. وكانت الصورة للمؤرخ وهو فى بيته بانجلترا .

الاعلام الاسرائيلى

وقد اهتم الاعلام المصرى بزيارة « توينبي » لمصر ، واهتمت الدوائر
الرسمية المصرية وقت ذاك بتلك الزيارة ، وذلك لأن المؤرخ العالمى تعرض
لحملة شرسة من الاعلام الاسرائيلى ومن الدوائر الصهيونية وخاصة فى كندا
والولايات المتحدة على اثر مناظرة تمت فى ٣١ يناير عام ١٩٦١ م بين
« توينبي » وبين « ياكوف هيرزوح » سفير اسرائيل فى كندا . وقد امتلأت قاعة
جامعة (ماكجيل) بالأساتذة والطلاب اليهود وممثلو قنصلية اسرائيل فى
(مونتريال) ، وحضر المناظرة أحد سكرتيرى السفارة المصرية .

كان المؤرخ شجاعاً وقال فى مواجهة اليهود : — ان الجزء الأكبر من الأرض
فى اسرائيل اليوم هو شرعاً ملك لأولئك العرب الذين طردوا من ديارهم . وأن
الجزء الذى يخص اليهود شرعاً هو الجزء الذى اشتروه ودفعوا ثمنه .

ومضى توينبي يقول : انكم تطالبون بحق اليهود فى العودة إلى فلسطين على
الرغم من أنه لم يكن فى فلسطين عام ١٩٣٥ م سكان من اليهود لهم كيان .
ومنذ عام ٦٤ قبل الميلاد لم تكن هناك دولة يهودية فى فلسطين ، لقد طالبتم
بقيام دولة لليهود ، وفى الوقت ذاته أنكرتم على العرب الذين طردوا من
فلسطين نفس الطلب .) .

وكان « توينبى » قد صرح فى أسبوع سابق على هذه المناظرة لمستمعيه من الطلبة اليهود فى جامعة ماكجيل بقوله : إن معاملة اليهود للعرب فى فلسطين عام ١٩٤٧ مشابهة من الناحية الأخلاقية لمعاملة النازى لليهود أثناء الحرب العالمية الثانية . إن القتل هو القتل سواء كانت الضحايا عربياً واحداً أم ستة ملايين من اليهود . وموقف « توينبى » هذا هو امتداد لرؤية تاريخية له فى المسألة .

اليهود والغرب الحديث

فى المجلد الثامن من عمله الشهير (دراسة التاريخ) وتحت عنوان (اليهود والغرب الحديث) تعرض « توينبى » للمظالم التى أوقعها الصهيونيون بالعرب وقراراتها أشد وأفظع من تلك التى أوقعها النازيون باليهود . وعلى اثر نشر المجلد المذكور فى النصف الثانى من عام ١٩٥٤ ثار اليهود فى انحاء كثيرة من الدنيا وخاصة فى الولايات الأمريكية ، وحملوا على المؤرخ المحايد حملات قاسية حاولوا فيها تبرئه أنفسهم . وفى مجلة لهم تصدر فى أمريكا هى (جويش فرونيتر) نشرت صحيفة يهودية حملة ضد « آرنولد توينبى » وقام استاذ جامعى بتثييه « المؤرخ توينبى » إلى هذه الحملة . فيكتب « توينبى » رداً على مقال للصحفية اليهودية وهذه هى ترجمته :—

إلى محرر مجلة جويش فرونيتر

سيلي . .

لقد بعث إلى « البروفيسور إرنست صمويل » من جامعة « نورث وسترن » بنسخة من المقال الذى كتبته « مس سيركن » بعنوان « البروفيسور توينبى واليهود » . ولا أجد نفسى مقتنعاً بنقلها للفصل المعنون (اليهود والغرب الحديث) المنشور فى المجلد الثامن من عملى (دراسة التاريخ) وبحلولى أن أوضح باختصار لماذا أفكر على هذا النحو . . . إن « مس سيركن » مخطئة فى ظنها أن نشاط « مستر توينبى » فى وزارة الخارجية البريطانية كان مشوباً بالميل

إلى العرب . وخلال الحربين العالميتين الأولى والثانية ، خدمت كموظف في وزارة الخارجية ولم أكن قط في موقف موال للعرب . ولم تشر « مس سيركن » إلى الفصل المعنون (مسئولية بريطانيا) الذي أكدت فيه على أن بريطانيا تتحمل أكبر قدر من المسؤولية في النزاع بين العرب واليهود . . . لقد كانت بريطانيا الدولة المحتلة أولاً ، والدولة المنتدبة بعد ذلك . وقد أدت شئون فلسطين من عام ١٩١٧ — ١٩٤٨ ، وخلال هذه السنين الحرجة كان موقف الحكومة البريطانية جدير بالادانة . إن الحكومة البريطانية سمحت للأقلية اليهودية بأن تصبح كبيرة — في عددها . وبذلك لم يبق هناك أمل بأن يرضى اليهود بالمشاركة في حكومة ثنائية قومية ، أو أمل في قيام مثل هذه الحكومة . وباعتباري بريطانياً ، ولست عريباً ولا يهودياً ، فليس لي أية مصلحة شخصية في أن أحابي أو أحمل على أى من الفريقين .

وفيا يتعلق بالمشكلة القائمة بين الفلسطينيين العرب والصهيونيين ، فإنني اعتقد ان الفلسطينيين العرب على صواب ، وأن الصهيونيين على خطأ . ورأى في هذه المسألة كراى مس سيركن عرضة للأعتراض عليه ، إلا أن رأى تحيىء قيمته من أنه يقوم على وقائع أراها بنفسى . . . إنه لمحزن حقاً أن تكون مجرمات بالتعصب أو أن تكون ضحية للتعصب . وقد كان اليهود على التعاقب مجرمين بالتعصب وضحايا له منذ القرن الثانى قبل الميلاد . ومما يدعو إلى السخرية أن اليهود كانوا أول ضحايا النيران التى بدأوا باشغالها .

وكتب « البروفيسور توينبى » — توينبى هو الذى يتحدث — في المجلد الذى سبقت الإشارة اليه بمناسبة مولد اسرائيل كدولة : — ان اسرائيل الصهيونية الجديدة في فلسطين طبعه ثانية من الدول الغربية العنصرية الحديثة . . وأشعر بأن مأساة جرائم اسرائيل والصهونية أعظم شأننا من مأساة جرائم ألمانيا النازية . ان مقياس المأساة ليس احصائياً ، بل روحياً . إن مستقبل اسرائيل السياسى مرتبط بمستقبل اللاجئين العرب الفلسطينيين .

دراسة التاريخ

ومجلدات (دراسة التاريخ) التي أشرنا إليها في الفقرات السابقة هي أشهر أعمال «آرنولد توينبي» وقد بدأ يضع الخطوط الأولى لها عام ١٩٢٢ ، وصدرت المجلدات الثلاثة الأولى منها عام ١٩٣٤ م . وهناك أعمال أخرى له مثل : (العالم والغرب ، الحضارة في الميزان ، الحضارة الهلينية .. تاريخ حضارة ، الفكر التاريخي عند الاغريق ، وهناك) مختصر التاريخ وهو مختصر لأعماله الشهيرة (دراسة التاريخ) .

وتوينبي يضمن هذه (الدراسة) جميع الحضارات المعروفة . وهو يميز من بينها ثلاثين حضارة ، ومن هذه الحضارات الثلاثين احدى وعشرون حضارة أتمت نموها ، وخمس حضارات يطلق عليها اسم (حضارات متجمدة) ، أى حضارات وصل نموها إلى نقطة ما وتوقف قبل أن تبلغ مرحلة النضوج ، أما الأربع حضارات الباقية فقد ولدت ميتة ويطلق عليها (حضارات مبهضة) .

وتوجد من بين الحضارات الواحدة والعشرين التي اكتمل نموها ، ست حضارات لم تزال قائمة كمجتمعات حية وهى : الحضارة الهندية ، والحضارة الاسلامية ، وحضارة الشرق الأقصى ، والحضارة البيزنطية ، والفرع الروسي من هذه الحضارة ، والحضارة الغريبة .

ويرى «توينبي» أن مولد الحضارة لا يرجع بالضرورة إلى تفوق جنس بشرى معين ، أو إلى ظروف ملائمة بشكل غير عادى .. وإنما يعزى مولد الحضارة إلى (ظروف قاسية بشكل غير عادى) . هذه الظروف القاسية الشاذة ، تشكل ما يسميه توينبي (التحدى) . والمجتمع الذى يواجه التحدى ، يجمع قواه ليرد على هذا التحدى ؛ فإذا ما نجح فى مواجهة التحدى وتغلب عليه تحسن قواه الداخلية ، وقدراته الخلاقة الى درجة تؤدى الى مولد (الحضارة) .

ويؤيد «تويني» دعواه بأن الحضارة الصينية مثلاً لم تنشأ في وادي (يانجتسي) الحصبب وإنما نشأت في وادي النهر الأصفر الملىء بالمستقعات والفيضانات ؛ أى أن الحضارة تولدت طاقاتها في مقاومة المجتمع للتحدي . وهذه العملية يعبر عنها ب (حركة التحدى والرد على التحدى) وهناك عملية أخرى هي (الانسحاب والعودة) وهو يقول بأن الفرد أو المجتمع قد ينسحب في ظروف معينة ويختفى ليعود أكثر قوة بعد أن يمر بعملية تنقية أو تطور داخلي .

وقد يحدث أن يستنزف المجتمع طاقاته في عملية الرد على التحدى ، وهنا (تتجمد) الحضارة بعد مولدها . وربما تتم (حركة الانسحاب والعودة) فإذا ما استطاع المجتمع أن يأخذ فترة نقاهة أو تنقية يعود من جديد .

فأثينا مثلاً ، لم تلعب دوراً فيما بين القرن الثامن والقرن السادس قبل الميلاد ، وعادت بعد ذلك وقامت بدور الزعامة في مجموعة الدولة الهلينية . وإيطاليا . . برزت من المجتمع الاقطاعي فيما بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر حيث أتمت الانتقال من المجتمع الزراعي الى المجتمع المدني التجاري والصناعي . وانجلترا إبان فترة عزلتها عن أوروبا ، أى فيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر قد أرسيت قواعد الديمقراطية البرلمانية والمجتمع الصناعي الحديث .

وعملية تدهور المجتمع ليست عملية حتمية عند توينى ، وجوهر التدهور عنده هو فشل القوى الداخلية في الرد على التحدى الداخلى أو الخارجى وتكون هذه القوى الداخلية قد فقدت قدراتها الخلاقة . ويقول أن القيادة اذا ما فقدت القدرة على ايجاد قوة خلاقة تكفى لمواجهة التحدى فانها تفقد جاذبيتها وسحرها على تحريك الجماهير . ومن ثم فانها تضطر الى استخدام القوة ، وتتحول الى أقلية قاهرة وتكف الجماهير عن الخضوع لها . فتحدث ثغرة في الوضع السياسى وفي الوحدة الاجتماعية وتدخل (الحضارة) في مرحلة التحلل . وليس من المحتم أيضاً أن تدخل الحضارة مرحلة التحلل النهائي

عندما تصل الى مرحلة التدهور ، فقد يستطيع المجتمع أن يضم صفوفه ويتوقف التطلل وهنا إما أن تتجمد الحضارة أو تمضي من جديد .

دانييلفسكى الرائد الروحي لتوينى

والدراسة الموضوعية لمؤرخ مفكر مثل « آرنولد توينى » لا تكون كاملة إلا اذا عرفنا ابرز المفكرين الذين تأثر بهم أو الذين اختلف معهم .. وفى هذا المقام يبرز مفكران على المسرح .. الأول إلتقى معه « توينى » فى فكرته الرئيسية حول الحضارة واختلف معه فى كثير من التفاصيل وهو « نيقولاى دانييلفسكى » . والثانى اختلف معه فى الفكره الجوهرية عن الحضارة ، والتقى معه فى فى كثير من الجزئيات وهو « ازوالد شبنجلر »

ونيقولاى دانييلفسكى كان موظفاً نائباً فى الحكومة الروسية ، وأعد عام ١٨٦٩ م دراسات حول موضوعات متشعبة . ونشر فى مجلة (زاريا) سلسلة من المقالات بعنوان (روسيا وأوربا) ونشرت لها ترجمة بالفرنسيه عام ١٨٩٠ م وترجمة بالألمانيه عام ١٩٢٠ م . ويمكن أن تعتبر « دانييلفسكى » رائداً روحياً لارنولد توينى . والمبدأ الهام لمقالات دانييلفسكى هو المبدأ الذى يقول (الحضارة هى الوحده الحقيقيه للدراسة التاريخيه) وبعد ٧٥ عاماً أخذ « توينى » هذا المبدأ عن موظف الحكومه الروسيه « نيقولاى دانييلفسكى » وقال توينى : (إن الأمة ليست هى الوحده البسيطه للدراسة التاريخيه) . وإن يكن « توينى » قد اتفق مع « دانييلفسكى » فى منهج دراسة التاريخ الا أنها اختلفا منذ البدايات الأولى .. إذ أن « دانييلفسكى » كان يهدف منذ ابحائه الأولى الى فصل (الحضاره الروسيه) من نطلق (الحضارة الأوروبية) ووضع الحضارة الروسيه فى تعارض مع الحضارة الأوروبية وقال بصراحة : (ليست الحضارة الأوروبية هى الحضارة العالمية بلهى وجه من الوجوه .. وقد

نشأت حضارات كثيرة خارج أوروبا ، وهذا ما فعله الروس لأن روسيا لا تتبع أوروبا فهي ليست جزءاً ولا فرعاً من الحضارة الأوروبية) .

وقال « دانيلفسكى » بأن تدهور الحضارة الأوربية بدأ مع بداية القرن التاسع عشر ، وأن الصدام بين الحضارة السلافية والحضارة الأوربية واقع لا محالة ، وسوف تخرج الحضارة السلافية منتصرة على الحضارة الأوربية . أما « توينبى » فإنه يتحدث عن روسيا كجزء من الغرب ، وأن حضارتها جزء من الحضارة الغربية . والطريف أن الشيوعيين الروس بعد أن استولوا على السلطة عام ١٩١٧ هاجموا « دانيلفسكى » وأهملوا أعماله ، ولكن بعد أن هدأت الأمور وقرأوا أفكاره وخاصة تلك التى تقول بانتصار الحضارة السلافية على الحضارة الأوربية نشروا أعماله على نطاق واسع .

توينبى

فى مواجهة شبنجلر

كان أوزوالد شبنجلر شخصية فذة ، ففى رأسه غريب التكوين الشبيه بالبيضة أو كرة البلياردو ، تكونت نظرية عن حياة الحضارات وموتها كان لها تأثير كبير جداً على الفكر الحديث . ولقد أحدث عمل شبنجلر « انهيار الغرب » الذى نبئت فكرته فى رأسه قبل الحرب العالمية الأولى وكتبه ونشره بعد الحرب ، أحدث تأثيراً عميقاً على أوروبا التى كانت تنتفض من الانهالك .

لقد كان « شبنجلر » يمثل (الحانوق) الذى جاء يتلو مراسم تأيين الحضارة الأوربية وهى فى الطريق إلى القبر . أما توينبى « فهو بمثابة الطبيب الذى ييذل قصارى جهده لعلاج المريض الذى يرقد على فراش الموت ..

رأى « توينبى » أن الحضارة الأوربية تحتضر ، ورأى « شبنجلر » أنها ماتت وشيعت موتاً . والحضارة عند شبنجلر كائن حى .. يولد وينمو ويموت .. وإذا ماتت فلا بعث لها من الموت . وقد عرفنا من قبل أن « توينبى » يرى أن الحضارة

إذا تغلبت على التحدى يمكن أن نغضى في الطريق من جديد ، ويمكن أن تنسحب وتعود مرة ثانية ، أو يمكن أن تتجمد إلى أن يشاء الله لها بالحياة أو السكون أو الموت .. ولكن الموت ليس حتمياً .. ليس حمية عضوية فالإنسان له دور كبير .

كان « شبنجلر » بمثابة الابن الروحي للفيلسوف الألماني « جوته » وبمثابة الأب الروحي للزعيم النازى « هتلر » . أما « توينى » ابن انجلترا لا يحب جوته ويكره هتلر . توينى هو ابن الديمقراطية الانجليزية أما شبنجلر فقد عرف بأفكاره غير الديمقراطية عن المجتمع ، وعرف بعلم الايمان بحرية الصحافة ، وتقديره للعمل على الفكر . وبالف في استخدام التماثل بين الحضارات ، وبالف في استخدام اصطلاح (الحياة العضوية) . أما « توينى » فقد قال بقدرة (الانسان) في الرد على (التحدى) ومن ثم رأى امكانية قيام الحضارة وعودتها بعد انسحابها أى أن (الحضارات لا تولد تماماً ولا تموت تماماً) .

لقد استطاعت تحليلات « توينى » المتفائلة أن تخلق جيلاً من المفكرين والقادة يؤمن بأن القارة المعجوز (أوربا) تملك القوة الخلاقة التى تكفى لأنهاض الحضارة .. ويرى هؤلاء أن القوى الخلاقة متوفرة فى السياسة الأوربية ، وفى الاقتصاد الأوربى ، وفى الفنون كالمرح والسينما والموسيقى ، والتقدم الأمريكى وفى التوجهات الديمقراطية والتطلع إلى السلام .

بطاقة تعارف

ومهما يكن من أمر فإن هذا المؤرخ العالمى العظيم ، كان مؤرخاً شجاعاً يتصف بوضوح الراى ونزاهة القصد واحترام الوقائع الموضوعية .

— ولد آرنولد توينى فى مدينة لندن ، فى ١٤ أبريل عام ١٨٨٩ م . وكان للبيئة البريطانية أثر كبير على أفكاره .

— نشأ بين والدين على درجة من التعليم والثقافة والاهتمام بالشئون الاجتماعية .

— اهتم توينبى بالدراسات الاقتصادية إلى جانب الدارسات التاريخية .

— درس في اكسفورد الأدب الكلاسيكى اليونانى واللاتينى .

— اهتم بالحضارة الهلينية وسافر مرات عديدة إلى اليونان يتفقد معالمها وآثارها .

— عمل بوزارة الخارجية أثناء الحرب العالمية الأولى والثانية .

— كان عضواً فى الوفد البريطانى فى مؤتمرات السلام عقب الحربين العالميتين .

— بدأ عام ١٩٢٢ يضع الخطوط الأولى لعمله الأشهر (دراسة التاريخ) وصدرت المجلدات الأولى منها عام ١٩٣٤ وهى اثنا عشر جزءاً .

— منذ عام ١٩٢٥ أشرف على المعهد الملكى للشئون الدولية .

— صدرت له أعمال كثيرة منها : دراسة التاريخ — الحضارة فى الميزان — الفكر التاريخى عند الاغريق — مختصر التاريخ — العالم والغرب — الاسلام والغرب .

— يعد توينبى حجة فى الأديين البيزنطى واليونانى .

— فى ٢٢ أكتوبر عام ١٩٧٥ م انتهت أيامه على الأرض .

مقدمة الطبعة الإنجليزية الأولى

بدأ الفكر التاريخي القديم عند الإغريق أو الهيلينيين وقت أن تشكلت الأصول الأولى لشعر « هومر » في عقولهم . وانتهى حينها سلم « هومر » بأولوية الإنجيل باعتباره الكتاب المقدس لدى الثمقين الفاطقين باليونانية والكاتين بها . وقد ظهرت النزعة الأخيرة في تسلسل مؤلفي التاريخ المتعاقبين ، فيما بين التواريخ التي أخرج فيها كل من . ثيوفيلاكثوس سيموكاتا Theophylactus Simocatta و « جورج اليسيدى » George of Pisidia مؤلفاتهما المتعاقبة ؛ ولما كان كلاهما يكتب إبان حكم « هرقل » Heraclius ، فقد وضع اسم ذلك الإمبراطور على غلاف هذا الكتاب بقصد توضيح أبعاده^(١) . وأيا كان الأمر ، فإن العملية التاريخية قلما تحدث طفرة ، وإن الانتقال من الحصار الهليني إلى الحصار البيزنطية (والتي كانت هذه الثورة الأدبية إحدى ملامحها الجديدة) قد استغرق فترة ثلاثة قرون كاملة من بدايتها إلى نهايتها ، ويتضح هذا بمجرد أن ندخل في نطاق نظرتنا بمض الأوجه الأخرى للحياة . فإن « باولوس » Paulus مثلاً ، الذي كان في خدمة البيت الإمبراطوري ، وواحداً من مدرسة « أجاثياس » Agathias المؤرخ المعاصر له في فن فرض الشعر البسيط ، كان لا يزال ، في القرن السادس بعد المسيح ، قادراً على أن ينظم دون مشقة بلغة « ميمنرموس » Mimnermus وأوزانه ،

(١) حكم هرقل من عام ٦١٠ — ٦٤٠ م وهو البطل في قصيدة جورج التاريخية . بينما كان بطريرك سرجيوس Sergius ساعده الأيمن نصير ثيوفيلاكثوس . وأرى هري . ملم باليونانية ما عليه إلا أن يلقى نظرة على الابتهالات في قصيدة جورج (نقرأها عام ١٨٣٦ « ينشر » J. Beacher في بون — Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae) ليعرك لماذا استبعد المؤلف من هذا الكتاب باعتبارها غريبة على التراث الهليني . ومن جهة أخرى ، أوردت مقسمة ماركوس القيس Meracus the Peacock لحياة « بورفيروس القزى » Porphyrius of Gaza باعتبارها من أول الأمثلة الهامة للفكر الجديد الذي كان عزو (الهلينية) فضلاً .

وإن كان موضوع أطول قصائده وأكثرها شهرة هو (كنيسة آيا صوفيا) Hagia Sofia ، تلك التحفة المعمارية التي تتباين كل التباين، أو تكاد، مع مظهر أي أثر هلينى فى (كولوفون) Colophon أو (إفسوس) Ephesus أو (أثينا) Athena . وفى نفس الوقت يظهر هذا التباين فى مجال الدين . فالاعتقاد الذى قوامه الكبرياء والقدر المحتوم والتقمة عند الأرباب ؛ هذا الاعتقاد البدائى العميق ، إنما يعبر عن خصائص الهلينية فى نظرتها إلى الحياة . ويبدو هذا الاعتقاد جلياً فى أقدم أشعار هوميروس ، ونحن نورده مصحوباً بالاعتقاد التهكمى القديم فى آخر جلة من المقطوعة الأخيرة مترجمة فى كتابنا هذا . وتتضح روح هذا الدين الهلبنى الفصح ، فى كل جوانب الأدب الذى تشيع فيه ، إلا أن لخص المقطوعة التى تحمل عنوان (اللاأدرية) والتى ترجمت عن « أجاثياس » السلف المباشر لـ « بروكوبيوس » Procopius ، إنما يفصح عن حقيقة مؤداها أنه فى منتصف القرن السادس بعد المسيح انقرضت الديانة الهلينية — حتى فى قلوب الرجال الذين تلقوا التراث الأدبى الهلبنى والذين ما فتئوا يسبحون بأرباب الهلنيين . وفى حذلقه تذكرنا بأسلوب هيرودوت ، يتمتع « بروكوبيوس » عن مناقشة (أسرار) الجدل المسيحى المعاصر على أساس أن الموضوعات محل النزاع القائم ، إنما هى بطبيعتها مما لا يدرك العقل الإنسانى ، ويعرض ، دون أن يعمد إلى ذلك ، ما يمتد أنه الحقائق البدئية المجردة التى تتصل بذات الله . إلا أن أى شخص يمكنه أن يقف من خلال هذه الصفحات ، بالأحرى ، من مؤلف « ف . م . كورنفورد » Cornford — على النظرة الهلينية الحقيقية إلى الدين ، سوف يدرك على الفور أن بديهيات « بروكوبيوس » لا بد وأن تكون قد بدت « لهيرودوت » Herodotus أو « ثوكوديديس » Thucydides أو « بولوبيوس » على أنها من أسباب الخير والشر الرئيسية . مسكين بروكوبيوس ! ألا ما أعمق غمته لو أنه استطاع أن يتحقق من أن عجزه العقلية ، ما كانت لتجديه قتيلاً ، بأية صورة من الصور ، إزاء تقدير تناحجه الأدبية الكلاسيكية ، بل من شأنها أن تضمنه

بلا وازع من ضمير في مصاف «هيپاتيوس» Hypatius و«ديمترىوس» Demetrius
المبجلين ، بل كذلك مع صاحب الجلالة المقدس الملك جستنيان Gustinian
ذاته ، بصفته طرازاً مؤقتاً يصور عصره لبن المريكة .

لقد كانت نقمة الأرباب أمراً خطيراً بالنسبة للهيلينيين ، إذ أنهم آثروا أن
يدخروا كنوزهم حيث تأكلها العثة ، ويفسدها الصدا ، ويتسلل اللصوص
فيسرقونها . لقد كانت مملكتهم ، يقيناً ؛ مملكة من هذه الدنيا . وقد نصح
« بركليس » Pericles مواطنيه أن يدعوا عظمة أثينا تستقر في أفهامهم ، لا أن
يمروا عليها بشكل عابر ؛ (فالخلاص) الذي كان موضوع النقاش في (ميلوس)
Melos كان يعني أن ينجو البدن وحده من القتل أو العبودية ولم يكن يعني
أن تلت النفس من قيود الإثم أو الضياع^(١) ؛ (فالخلاص) بالمعنى الصحيح في
عرف اليوناني ، هو « بطليموس » Ptolemy بن « لاجوس » Lagus ،
الذي انتزع لنفسه بنجاح هذا اللقب من « زيوس » Zeus إلى أن نزل عنه
لصعولك من سلالة رعاياه الشرقيين . أما الخطيئة التي أبى « بولوبويوس » إلا أن
يسدل الستار عليها ، فقد كانت حافة سياسية تمكن بها « ديايوس » Diaeus
ورفاقه من تدمير الوحدة الآخية Achaean . وبعبارة أخرى ، كان العالم الهليني
(وهنا تكن أهميته الفائقة بالنسبة إلينا) أقرب ما يكون إلى العالم الذي نعيش
فيه الآن ، وذلك في مقابل السماح المسيحي الذي يتوسط بيننا من الناحية الزمنية ،
أو في مقابل تلك الديانة التي لم توجد بعد ، والتي من شأنها ، دون شك ، أن تدخر
صكراً جديداً في سماء جديدة حينما تأخذ دنيانا في الزوال ، لتستقر في النهاية هي
الأخرى كسابقاتها في (خضم لا قرار له حيث لا تناسب بين جميع الأشياء .)

ولا يتسع المقام في حدود هذه المقدمة إلى أن نعرض أي حاشية للتراجم ، مها

كانت مختصرة ، تناول مؤلفي التاريخ من ورد ذكر أعمالهم في متن الكتاب^(١) ، وإن كانت ملاحظة عامة أو ملاحظتان قد تساعدان على إيضاح الأمر . وبإحدى فئ بدء ، لم يكن المؤرخون الهلينيون (خاصة أعظم هؤلاء المؤرخين) من أصل هلينى خالص . فقد جاء « هيرودوت » من مجتمع (هاليكارناسى) الذى يتحدث باللغتين الهلينية والكارية Carian ، و « نو كوديدس » رغم أنه أثينى المولد وظل مواطناً أثينياً (حتى وقت تقيمه) ، فقد جرت في عروقه^(٢) دماء تراقية Thracian ؛ وكان « يوسف » Josephus يهودياً و « بروكوبيوس » فلسطينياً . وقد جرت العادة منذ عصر الإسكندر وما تلاه على عدم الإشارة إلى أن المؤرخين الهلنيين قد وفدوا من سائر الشعوب التى ذاعت بينها . بشاره الهلينية تدريجياً . وبهذه الصورة ، فإن المدرسة التاريخية الهلينية لم تقصر نفسها على اللغة اليونانية ، وكان يمكن توضيح ذلك في هذا الكتاب لو اتسع المجال ، يتضمنه ترجمات من اللغة اللاتينية^(٣) . ولقد مكنت رومة السياسية التسعة المؤرخين الرومانيين بشكل لا مثيل له ، من أن يجمعوا شئون العالم ويربطوا مصيرها بمصير دولهم ،

(١) بالنسبة لهذا أحيل القارئ للمؤلف « بيورى » Bury (المؤرخون الإغريق القدامى The Ancient Greek Historians ولدى المراجع الرائدة الموجزة الشاملة الخاصة بالأسانيد في نسخة جيبون Gibbon .

(٢) حسب ما يعرفنا هو أنه قد حصل على امتيازات ملكية في مناطق التعدين التراقية في (بانغيم) Pangaeum ، ومن المحتمل أن يكون قد عكف هناك على كتابة تاريخه بعد الكارثة الحربية التى أدت إلى تقيمه من أثينا .

(٣) لأن المؤرخين الرومانيين الأول (مثل سلفهم الأول كاثوس الهلنى Xanthus The Lydean في القرن الخامس ق . م) قد وجدوا من الطيبى جداً أن يمارسوا ما كان يعرف بالقرن الأدبى الهلنى باللغة اليونانية — رغم أن بنور الهلينية قد سقطت في بعض الأحيان على أرض صخرية : لكنهم أظهروا أصالة أعظم من الأناضوليين والسوريين المصطنعين بالصنعة الهلينية ، كما أنهم نصروا ترجمة للأدب الهلنى في لغتهم الوطنية . وفي نفس الوقت فإن حق الأدب علينا أكثر أهمية من الأصالة القوية ، ويحترق التراث الرومانى مقولاً عن الهلينية كما كانت الإمبراطورية الرومانية بمثابة الطور الأخير في المجال السياسى للجمع الهلنى . وعلى العكس ، هناك أعمال تاريخية في اللغة اليونانية القديمة (كتبها الأدباء اليسوعيون الأول أو البيزنطيون الأوسط) وهى تاج حضارات ليست هيلينية .

ولهذا ، فإنهم قد زعوا ، كما بين « ديونوسيوس » Dionysius الهاليكارناسي ، إلى خلق نوع جديد من الأدب التاريخي الهليني يمثل في التاريخ المحلي . ومن هذه الزاوية ، قدم لنا المؤرخون الرومانيون على نحو ما فعل زملاؤهم الأدباء الذين عاجلوا الكوميديا الأخلاقية الأثينية ، قدموا لنا المادة الوحيدة تقريباً لإعادة بناء فرع قدناه من الأدب الهليني ، وذلك حتى أعاد لنا الاكتشاف الحديث لكتاب « أرسطو » (دستور أثينا) ، التاريخ المحلي للأمم عوامم (هيلاس) Hellas نفسها في صورة موجزة .

وهكذا ظل تأثير الهلينية في مجال التاريخ وفي غيره من المجالات ، يشع في نطاق أوسع من اللغة اليونانية ومن الجنس اليوناني ؛ وهذه إحدى البينات الكبرى على عظمتها . وفي نفس الوقت ، فإنه من الصحيح أيضاً أن بعض صور إبداع الفكر التاريخي الهليني العميقة الرائعة ، إنما كانت بتأثير الاتصال بجمتمات غير هيلينية وقد قمتحت بصورة « هيرودوت » بفضل دراسته للحضارة الإيرانية السورية التي انطوت عليها دولة الآخمينيين العالمية ، والتي حاولت في عصره أن تشمل العالم الهليني ، ولكنها أخفقت في ذلك . وكذلك تنبه « بولوبيوس » بفضل إلهام إيطاليا الرومانية (التي جعلت رقعتها تتسع إلى الغرب) في وقت أحرزت فيه روما ، عسكرياً ، ما أخفقت في إحرازه فارس ، وكان الظافرو في كل قطاع آخر من الحياة يقع أسير الهلينية^(١) وكان « بولوبيوس » الذي أتى من (ميغالوبوليس) Megalopolis في أعماق (أركاديا) Arcadia ، هو الوحيد من بين العبقريات التاريخية الثلاث للهلينية ، الذي كان هليينياً حقاً ، مقارنة بالمعنى الحيواني للكلمة والذي لا أهمية له ؛ إلا أن الحضارة في أي وقت معين من وجودها ، لا تكون بأية حال نتاج تحول فيزيائي أو نتاج بيئة محلية ، إنها خليط من القديسين (ومن

(١) خضع الرومان ، في كل شيء ما عدا الفتح العسكري ، لهلينية بشكل كامل أكثر من أي شعب شرقي طوروس Taurus ، وقلوا طواعية عن الهلنيين حتى التكنيك الحربي ، كما يوضح مما اقتبسنا ؛ من بولوبيوس بعنوان (بثور على أرض طيبة) والذي ترجمناه في كتاب (الحضارة والسجية) ص ٩٢ — ٩٣ .

الأشراق كذلك) يحوهم ذلك الحشد العظيم من الشهود يزدادون باطراد، والذي ضم غالبية الجنس البشرى ، وعلى هذا فإن المضوية في الحضارة أمر روحى أكثر منه مجرد انماء مادى . والذي يمكن تصوره ، لأول وهلة هو أن « لاؤنيكوس خالكوكونديلس » Laoniceus Chalcocondyles المؤرخ الأثينى ، الذى سجل فى القرن الخامس عشر نشوء الإمبراطورية العثمانية ، بلغة يونانية كلاسيكية رائمة وبأسلوب ترسم فيه بعناية أسلوب « هيرودوت » و « ثوكوديدس » ، أمكنه أن يعود بنسبه إلى « ارغثيوس » Erechtheus أو « ديوكاليون » Deucalion من ناحية الأبوين بشكل قد يبدو أكثر صواباً مما فعله « ثوكوديدس » نفسه ، وهو ما كان يمكن أن يظهر ، لو أن خبيراً من خبراء الأثنوبولوجيا فحص حاله ، إذن لكشف عن سمة (هلينية كبيرة) ، توضح منبته وملاعه . ورغم هذا كله ، فإن « ثوكوديدس » سيبقى فى القمة كأعظم المؤرخين الهلينيين دون منازع ، بينما سيبقى « خالكوكونديلس » ذرة الحضارة البيزنطية — لا الحضارة الهلينية^(١) . ولعله يكون لنوأ من جانب (خالكوكونديلس » ومعاصره البيزنطيين فى عصر الإحياء ، أن يتمردوا على أبوة « ديوكاليون » ، بينما لأننى سنة خلت ، كانت ربة الإلهام قد أقامت لديوكاليون أطفالاً من بين أحجار (تراقيا) Thrace و (كاريا) Caria . وثمة سمة ثانية للفكر التاريخى الهلينى ، ألا وهى أنه لم يكن بحال من خلق مؤرخين معترفين . فالشعر الذى نظم فى مختلف المصور ، شأنه فى ذلك شأن فلسفة أفلاطون والأدب الطبى للمدرسة الأبوقراطية Hippocrates يدخل ضمن مادة هذا الكتاب ، لأنها تمس بصورة أكثر وضوحاً من أى عمل تاريخى بالمعنى الفنى للعبارة عن أفكار تاريخية هلينية رئيسية.

(١) يمكن أن نضيف ، أننا إذا ما استمدنا أى عمل تاريخى من نتاج الحضارة النووية Minoan ونجسنا فى نصيره ، فقد نجد أن هذه الأعمال (إذا ما جاءت من المستعمرات البرية فى كريت) قد كتبت فى شكل ما باليونانية . وأما كان الأمر ، فإن ذلك لن يجعل منها أعمالاً هلينية . وفى الحقيقة ، سوف لا يكون باعتباراً على الدهشة ، إذا ما أظهرت هذه الأعمال قريباً للروح البيزنطية أكثر من الروح الهلينية .

وعلى العكس من ذلك، فقد أسهم المؤرخون في الأدب الروائي وعلم الوراثة والأثروبولوجيا والعلوم الطبيعية التي استبعدت من هذا الكتاب باعتبارها بعيدة عن موضوعه. وهناك أمر أكثر أهمية، قصد إليه قصداً، وهو أن الكتاب جاء غفلاً من الفقرات التي تناول تاريخ الحرب. وقد يكون أكثر من أربعة أشخاص (من باب الحدس!) الكتابات التاريخية الهلينية التي وصلت إلينا، مليئة بوقائع تفصيلية عن العمليات الحربية - وإنها لتحقيق غريبة، إذا ما وضعنا في اعتبارنا ما كان عليه الجمهور الذي كتبت له معظم مؤلفات التاريخ الهليني من عقل وبصيرة. إن حيز هذا المجلد ونصوص الأسانيد التي توافرت له، جعل من الضروري أن تنبذ أية محاولة تصور (من ناحية الكم) قدراً كبيراً من التاريخ الهليني خلاف ما يلقى ضوءاً على جوانب أخرى من الفكر التاريخي الهليني. فتاريخ فن الحرب في ذاته، إنما يمكن تناوله بشكل سديد في مجلد مستقل في سلسلة المؤلفات التاريخية.

ولعل السبب الذي ذكرناها لا تمت بشكل واضح إلى الكتابة التاريخية الهلينية. وثمة خواص أكثر ارتباطاً، فإذا ما نحن ضيقنا نظرنا إلى المؤرخين أنفسهم، وجدنا أن الغالبية المظلمة منهم كانوا من الرجال العلمانيين. فتوكوديديس وكسينوفون Xenophon وبوليبيوس ويوسف (وم أربعة من أعظم الأعلام الخمسة)، كانوا رجال أعمال لامعين تحطم مستقبلهم، فحولوا طاقاتهم إلى مجرى الأدب، حينما حرمتهم نقمة الأرباب فرصة شغل مناصب الدولة، وإدارة الأعمال العامة عن طريق الجمعيات السياسية، أو تولى قيادة الأساطيل والجيش في الميدان. أما العلم العظيم الخامس، وهو هيرودوت، فحياته الخاصة تكاد تكون غير معروفة لنا. إن عقله ذا الاتجاه القولتيري يوحى بأنه دقيق الملاحظة، ناقد بطورته أكثر منه رجل يشارك بطبعه في الأعمال؛ ومع ذلك فإن عمله انتهى كان دائماً نشاطاً إنسانياً حياً، لأنه درس التاريخ المعاصر له كما درس علم الاجتماع، من الطبيعة، في سلسلة من رحلات طويلة مخوفة بالمخاطر. وبمباراة أخرى، كان يرقب بعيني «أوديسيوس» لا بدمسات «راندك» وهذه سمة تتميز بها المدرسة التاريخية الهلينية. وقد أخذ

« بولوبيوس » أيضاً ، يتوغل إلى الشمال الغربي في قلب العالم الهليني . وتحتذاك كما توغل هيرودوت إلى الجنوب الغربي . أما « ديودورس » Diodorus الذى يتم عمله أحياناً عن الأداء المكتبي ، فلم يكن قائماً (كما يحدثنا هو نفسه) بأن يقع بين جدران المكتبات في (أجريوم) Agyrium أو حتى مكتبات روما . وفيما يتعلق بالمؤرخين الذين كان لهم حظ معاصرة عهود النمو أو فترات الاضطراب ^(١) ، فإن أمر اتصالهم عن كتب بحياة مجتمهم الإيجابية لا يدعو في واقع الأمر إلى الدهشة ، إلا إذا قورن ذلك بمظاهر الحضارات الأخرى . وأما كان الأمر فجدير بالاعتبار ، أن هذه السمة لم تخف في أثناء الطور الثالث والأخير ، الذى كان فيه العالم الهليني يرغل في أغلال السلام الرومانى Pax Romana بشكل سلمي ما . ففي ذلك العصر ، كان من المتوقع على الأقل أن يسود أسلوب المؤرخ الأكاديمي ، إلا أنه لا يوجد من عصر الإمبراطورية الرومانية غير « ديونوسيوس » و « يونايوس » Eunapius ؛ وهما الثالان الوحيدان غير المشكوك فيهما ، من الطراز الذى وجد طريقه إلى المجلد الحالى . وقد كان « أريان » Arrian و « ديو » Dio من السكرين وأرباب السياسة وذوى التجارب في الحياة العامة والمسئوليات العملية مثلاً كان « كسينوفون » أو « بولوبيوس » . وأغلب الظن أن « هيروديان » Herodian كان في سلك الخدمة المدنية . وكان « آبيان » Appian إما موظفاً مدنياً وإما عضواً بمجلس الأعيان المحلي بالإسكندرية ، والذى كان لا يزال يباشر في عهده الإدارة المحلية . وكان « ماركوس الثماس » Marcus Diaconus من ذوى النظرة العملية (وفي بعض الأحيان كان يبدو شديداً التأثير للناية) . أما « بريسكوس » ^(٢) Priscus فقد كان محامياً ، وبالمثل كان « بروكوبيوس » و « أجاثياس » و « مينا ندر » الأعلام الثلاثة المرموقون الذين أنجبهم القرن السادس بعد المسيح . وكانت المحاماة آخر مهنة

(١) يمكن تحديد هاتين الفترتين الأولين من التاريخ الهليني تحديداً تقريباً هكذا :

من ١١٢٥ إلى ٤٣١ ق . م ومن ٤٣١ إلى ٣١ ق . م . على التوالي .

(٢) ومنه انكسنا فترة في كتابنا (الحضارة والمحقق) من ١٣٠ — ١٣٦ .

حرة وقت في وجه تسكك المجتمع الهليني . ومع أن « أجاثياس » كان يشكو من أن هذا العمل لم يترك له فراغاً كثيراً لدراساته التاريخية ، فإننا لا نأسف عليه كثيراً ونحن تأمل كيف أفاد خليفته « سيموكاتا » من وقت فراغه المبدد .

بعد هذا المرض الموجز للمؤرخين الهلنيين ، والعالم الذي عاشوا فيه ، يجدر بنا أن نختم الحديث بكلمة عن مناهج الترجمة . ففي رأى الترجمة الحالي^(٢) ، أن الخطأ الجسيم الذي لا يمكن علاجه ، ويجدر بالعقل النربي الحديث بأن يتجنبه ، هو أن يسمح لنفسه ، عند تناول أى فرع من فروع الأدب الهليني ، بأن تسيطر عليه فكرة بأن هذا كله إنما قد تم حدوثه وتدوينه والإحساس به إبان ألفين أو ثلاثة آلاف سنة خلت ، وكأنما قد دخل في ذمة القدم التاريخي ، ومن ثم يكون ، والأمركذا ، ساذجاً ضل التجربة . والحقيقة التي تقوم بيننا وبين أسلافنا الغربيين لثلاثة أو ستة أو إثني عشر قرناً خلت في صورة واعية ، إنما تكاد لا تحتمل قياساً بملاقاتنا مع عناصر الحضارات الأخرى ، حتى ولو كان تاريخ حياة تلك الحضارات سابقاً على حضارتنا من الناحية الزمنية . وعلى الرغم من مثل هذه الأسبقية الزمنية ، قد ينطوى الماضي البعيد في الحضارات الأجنبية على ملامح قد تكون من الناحية الذاتية أقرب إلى حياة عصرنا من تلك التي يشتمل عليها الماضي القريب الذي انتبخت منه حياتنا . وبمباراة أخرى فإن الأسبقية الزمنية والتبعية الزمنية لها دلالة ذاتية ضئيلة أو ليست لها دلالة في غير محيط حضارة واحدة معينة ، بينما ، عند مضاهاة حضارات متباعدة ، فإن العلاقة الزمنية المباشرة بينها عامل لا علاقة له بالموضوع في معظم الأحيان ، ومن ثم فعادة ما يكون عاملاً مضللاً . أما في المعنى الفلسفي ، فإن الحضارات كانت ومازالت وسوف تظل متصارعة الواحدة مع الأخرى . فهي جميعاً بنت الأسرة ذاتها ، وفي الجبل ذاته ، والفروق في الأعمار بينها فروق تنهاى في الصغر إذا ما قورنت بالمهد الطويل الذي عاشت خلاله الأسرة الإنسانية التي وجدت قبل مولد أية حضارة . وعلى هذا ،

ففي محاولة الوصول إلى معادلة بين حضارتين مستقلتين (وهذا ما يعنيه في النهاية النقل من اليونانية النابرة إلى الإنجليزية الحديثة) قد يكون من الران الفيد للخيال أن نحدد بطريقة تقريبية ومتعارف عليها إلى حد ما ، نقطة بداية كل منها ، ونقيس الفترة الزمنية فيما بينها ، ثم نطرح مقدار هذه الفترة حتى يتسنى معرفة القرن في الحصار المبكرة زمنياً ، والقرن المعين الذي يقابله في الحصار المتأخرة حسب وجهة النظر هذه . فمثلاً ، إذا أخذنا عام ١١٢٥ ق . م على أنه العام المتعارف عليه للهيلينية ، والذي أخذت فيه الحصار الهلينية تنبثق من بين حطام العالم المينوي وأخذنا عام ٦٧٥م باعتباره العام المتفق عليه لنوع مماثل بالنسبة للغرب ، والذي أخذت فيه الحصار الغربية تنبثق من بين بقايا الهلينية (في امتدادها الروماني) فسوف تقدر الفترة الزمنية بين التاريخ الهليني والتاريخ الغربي بحوالى ١٨٠٠ عام ، وهي فترة يلزم دائماً طرحها جانباً ، حتى يتيسر الوقوف على المقابلة في أية مرحلة بعينها ، على نحو ما يتم القياس من نقطة البدء لكل واحدة منها . ولعل من نافلة القول أن نقرر أن هذا التهج لا يقصد به أن يكون مبدأ تاريخياً جامداً ، وإعنا هو مجرد فرض للوصول إلى أسلوب دراسة مقارنة . وبالأستعانة بأداة القياس الافتراضية هذه ، يمكن لنا التحقق من أية أجيال هيلينية وأية أجيال غربية ، كأن الواحد منها يقابل الآخر ، بمعنى أنهما كانا منفصلين من نقطة بدء كل منهما بفترة زمنية متساوية ، ومن ثم يكون كل منهما قد طوى بين جنبيه قدرًا متساوياً من التجربة التقليدية أو التراث الاجتماعي في شتى ميادين الاقتصاد والسياسة والأدب والفن والدين وما إليها (رغم أنه ليس من الضروري أن يكون القدر متساوياً في الكيف) وبهذه المعنا السحرية في أيدينا ، يمكن لنا أن نلهي أنفسنا بنقل « بلوتارخ » نفسه (مثلاً) ، لا مجرد كتاباته وحدها ، من العالم الهليني إلى عالمنا ، فإذا ما فعلنا ذلك ، بدأ وكأن « بلوتارخ » قد ولد في عام ١٨٤٦ وقد له أن يموت في عام ١٩٢٥ وذلك على اعتبار أنه آخر وأعظم من بقى من العصر الفيكتوري ! وإذا كان ثمة دلالة لهذا كله ، فإننا لا نأمل أن تقدر « بلوتارخ » طيلة مشايرتنا على قراءته في ترجمة (لانجهورن) Langhorne أو أن نعيد ترجمته على نحو بطيب

لنا ، مادامنا نخرج ترجمتنا الحديثة بالمحسنات الإنشائية ، حتى نكون قد بلغنا إلى تركيب سنّف من الترجمة يتاير في مقوماته كل قطعة من الأدب الحى في عهدنا أو في غيره من العهود. ونحن لا يتسنى لنا ، من باب أولى ، أن ندافع عن مثل هذا النظام الزائف في حالة مؤلفين ، إذا تصورنا أن ننقلهم بأشخاصهم إلى عالمنا نحن ، فلما أن يكونوا لم يولدوا بعد وقت ذلك ، وإما أنهم مازالوا في المراحل الأولى من طفولتهم . فثلاً ، قد يكون « ماركوس أوريليوس » Marcus Aurelius لا يزال في الرابعة من العمر ويتطلع إلى البقاء حتى عام ١٩٨٠ . سلم الله أطفالنا الذين ولدوا في العالم الغربى هذا عام ١٩٢١ من تقمة الآلهة حتى لا ينظروا إلى الحياة تلك النظرة القاعة التى نظر بها « من يقابلهم » من الهلبيين العظام ! .

ترى ما معنى هذه الموازنة المقترحة بالنسبة لترجمة الأدب ؟ قد يبدو لأول وهلة ، وكأنما يبنى لنا أن نترجم « ماركوس » و « بلوتارخ » إلى الأدب الإنجليزى (أو الفرنسى أو الألمانى أو الإيطالى أو أى أدب غربى خالص) الذى يكتب في جيلنا ، ثم من سبقهم طوراً بعد طور ، بالأسلوب الذى يقابلهم ما صنينا الأدبى - معاضطين على الحقيقة ذاتها التى تمتد إلى ثمانية عشر قرناً تقريباً خلال هذه العملية . وأيا ما كان الأمر ، فما إن نحاول وضع هذا البرنامج موضع التنفيذ ، حتى تتضح العقبات . ففي المحل الأول ، نجد أن (موجلت) التاريخ الغربى والهلبنى غير متطابقة . ففي التاريخ الهلبنى نجد أن الأدب قد وصل القمة (ولم يصل إلى مثلها بعد ذلك أبداً) خلال القرنين فيما بين أعوام ٥٢٥ و ٣٢٥ ق . م ، والتى تعاصر (حسب مشروع قياسنا الافتراضى) القرنين فيما بين ١٢٧٥ و ١٤٧٥ فى الغرب . وأيا ما كان الأمر ، فبن تلك الفترة ، فى حالة كالتنا ، وإن بلغت قمة أقل فى حياة إيطاليا الشمالية الوسطى ، فإنها كانت بعيدة عن القدوة من تاريخ حياة سائر المجتمع .

وقد نهض الغرب برمته ، إلى درجات أعلى من التعبير الناقى (أو على نحو ما عبر بركايس — أقام صروحاً لا تقنى تشهد على وجوده خيراً كلن ذلك أو شراً)

فيما بين حوالي ١٧٧٥ م إلى الحرب الأوروبية ^(١) بينما في الجانب المقابل ، نجد أن الفترة الممتدة من التاريخ الهليني وهي (٢٥ ق . م - ١١٤ م) تقع برمتها في ظل الطور الأخير من الحياة الملمنية ، التي كان يحاول فيها العالم الذي يروض تحت عبء أربعة قرون من الاضطرابات ^(٢) ، يحاول أن يلم شعثه للمرة الأخيرة قبل الانحلال الذي لا مناص منه . ونحن الذين كنا لم نزل في ريمان شبابتنا عام ١٩٢٤ لانزعج أننا نعرف بمدى ، ما إذا كان الغرب قد بدأ (فقط مجرد البدء) في الانحدار إلى الدرك الأسفل *ad tartara loti* ، في حين أن « بلوتارخ » في شيخوخته قد تأكد حتماً ، في قرارة نفسه (وإن لم يكن قد سلم به عقلاً) ، أن (هيلاس) *Hellas* قد حققت شوطاً بئساً نحو الانحدار . ومن ثم فإننا ومن ورائنا عدد أكبر من مراحل التقدم ، وعدد آخر أقل من أطوار التأخر ، وهذا أكثر مما توافر نوعي « بلوتارخ » ، يتحتم علينا أن ننظر إلى الوراء ، إلى أسلافنا بأعين مناصرة . فالعالم الهليني الوسيط ، في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد لم يكن في واقع الأمر على درجة من النضج والقلبة تفوق ما كان عليه العالم الغربي الوسيط في القرنين الرابع عشر والخامس عشر من عصرنا فحسب ، بل إنه لم يكن هناك مفر من أن يبالغ في أشكاله التسيبية عند جيل بلوتارخ قياساً إلى ما كان عليه أهله من تراخ ووجل . وإذا ما نظرنا بعقليتنا الحديثة ، ألقينا تقيض ذلك . فالقرنان الرابع عشر والخامس عشر (حتى إن نظرنا إليهما على أساس ما تجسم في ممثلتهما الإيطاليين) يحملان طابع ما تزدره نحن الآن ، على اعتبار أنه طابع (فج) بدائي على أحسن الفروض . وفيه عناصر ، بل عناصر كريهة ، من كل ما يحس به ونأسف لعدم وجوده لدينا ، بل لا نستطيع أن تأخذها برمتها مأخذ الجد أو أن نعامل أطفالهم ، وهم أسلافنا ، على أنهم رجال لهم مثل ما لنا من مستوى عقلي . ولا يمكننا حتى اصطناع مثل هذا بغير أن نعي ما لدينا من عدم سلامة الطوية . ويقابل هذا موقف « بلوتارخ » ^(٣) و« ديونوسوس »

(١) الحرب العالمية الأولى

(٢) ١٣١ - ٣١ ق . م .

(٣) هنا ، على أية حال . سواء كان بلوتارخ أو لم يكن ، هو مؤلف (المبحث في مؤلفات

ميوردوت)

إزاء « هيرودوت » و « ثوكوديدس » على التوالي . فهما ، من ناحية ، قد نظرا إلى أسلافهما الوسيطيين بشيء من التبجيل ، على اعتبار أنهم شراح لمثل منائمة لم يعد من سبيل إلى بلوغها ، وثانياً ، فإن ما اتسم به كل مارد من هؤلاء الهالقة في مشهده الأولي من سحاب الجدد ، قد أعمى بصيرتهما وأغلق الأفق أمامها . « وعندما زل موسى من الجبل ، لم يكن يعرف أن بشرة وجهه تشرق وهو يحدث إليهم . ولا رأى هارون وكل بني إسرائيل أن بشرة وجه موسى تشرق ، خشوا أن يقتربوا منه » ترى هل خاف قوم موسى وأشاحوا عن النور الذي كان يدافع عنهم ؟ إن « ديونوسيوس » و « بلوتارخ » كانا في الموقف ذاته ، غير قادرين كل القدرة على أن يخفيا الكراهية والقنوط إزاء (الشعلة الثالثة) في هيرودوت أو ثوكوديدس ، أما وقد كرسا جهودهما ، شأنهما في ذلك شأن معاصريهما ، بنية رعاية شيخوخة هيلاس ، وإزالة التعاضيد من فوق جبينها ، وتهدئة روعها وإبعاد الهذيان عنها وتوجيه أفكارها (عندما كانت الأفكار الحيوية لا تزال تداعب عقلها) بعيداً عن المستقبل الخيف ، نحو ماضٍ ذهبي أو شبه ذهبي ، فإنهما لم يودا يقويان على مواجهة الأقواء الساحقين الذين أجبروا هيلاس ومرحوا معها ورأوها كما هي وعرفوا خيرا وشرها ، وهي إنسانية في كل الحالين ، في السنوات التي لا سبيل إلى إعادتها حينما كانت هيلاس وأبناءؤها في ريمان الشباب . كلا . . . إن الهيلينيين أبناء الإمبراطورية لم يستطيعوا مواجهة أبناء السنوات الخمسين^(١) من قومهم ، بما لهم من تطلع ذهني لا يخشى منه وموهبة غريزية لا تتطلب جهداً في تفرس الحقيقة على الوجوه ، ووعينهم بالقوة الخارقة التي منحهم قلباً يسخر ويمزج في الوقت المناسب ، وهذا ما يثير الشجن على كل ما سار إلى القدم . إن الارتباك يلو الوجوه عندما نجسر على النظر إلى أعمائها التابعة على الوجه .

وهذا يعني أن قل كل طور من أطوار الفكر الهليني وأسلوبه إلى

(١) فيها بين الحرب القارية الكبرى ونشوب الحرب البلغونية (٤٨٠) —

ما يماثله من طور غربي متكافئ^٢ إنما يشكل استحالة تاريخية، حتى بالنسبة للدارس الذى حبه الطبيعة درجة أعلى من القوق القنوى دونه ذوق المترجم الحالى . كذلك فإن هذا لا معنى ، حتى إذا ما استطعنا أن نبلغ المستحيل ، أن نعيد من النتيجة تلقائياً ، لأنه بقدر ما نكون قد نجحنا فى قتل ماضى الأدب الهليني إلى ماضى أدبنا ، بقدر ما نبتعد به بشكل مبتذل عن نطاق رؤيتنا الحديثة . إن تراثنا الأدبى الغربى ، فى حقيقة الأمر ، هو مجال الأدب الوحيد الذى لا سبيل إلى ترجمته بالأسلوب الغربى هذه الأيام . فى الوقت الذى نحاول فيه أن نستحدث عملاً أدبياً فنياً إنجليزياً من أعمال القرن السادس عشر أو السابع عشر ، فى نفس هذا الوقت يتلاشى سحر الإحساس والترابط وأكثر عناصر الجمال بفعل ساحر^(١) بيننا ، فى الناحية الأخرى ، أى حينما نحاول أن نترك خيالنا للأصل غير المدنس ، فإننا غالباً ما ندرك اختفائنا إلى بعض عناصر الجوهر الأخرى . وإن أخص خصائص العصر (الإليزابيثى) - كالأنون على الزجاج الرومانى - لتنشر علينا غيمة غموض بين عقولنا والمقول التى أوجدت الحق الأسيل والجمال ، والتى قد وجدت هى بدورها من أجلها أيضاً . لقد وجدت هذه فى حاضر حى وأوجدتها أناس أحياء ولم تتطرق إليها وقت خلقها مسحة من قدم ؛ ومن هنا أصبح من المستحيل تماماً أن يتم تجاوز روحى بيننا وبينهم . ومن هنا أيضاً بدا واضحاً أنه من الخطأ كل الخطأ من وجهة النظر العملية ، أن ننقل ، حتى ولو كان ذلك متيسراً ، أثر حضارات أخرى فى صورة تستمعى على مداركنا ، بيننا هى أيضاً خطأ محض من الناحية النظرية . ويمد ذلك كله ، هل يعتبر أى نتاج للأدب الهليني نجاً أو بدائياً أو ساذجاً أو عتيقاً إذا ما نظر إليه كما هو دون ما تعديل أو تحريف ، وكما خرج إلى حيز الوجود منذ عدة مئات من السنين ؟ إن الفكرة البهمة بين القراء

(٢) هذا واضح بالطبع فى حالة ترجمتنا الغربية المحلية للإنجيل ، التى هى بمثابة أسس الأدب الحديث بين الطوائف البروتستانتية . وبينما كنت أترجم ثلاث مقطوعات من العهد الجديد ، كفاتمة لهذا الكتاب والكتاب المصاحب له عن الأصل اليونانى ، وقفت الترجمة الإنجليزية المعتمدة حائلاً بينى وبين النصوص التى أمامى وكان أن انصرفت قاطعاً من مهمتى .

الغريبن الحديثين ، عن « هيرودوت » من أنه (أبو التاريخ) الساذج ، كن من شأنها أن تملأ « ديونوسوس » أو « بلورتارخ » دهشة . إذ أن لقب الشرف التقليدي هذا ، من شأنه أن يكون في حد ذاته تمحذيراً كافياً في وجه كل من يعتقد بهذا الفهم ، وهو اللقب الذي اقترن عادة بهيرودوت فيما بيننا ، لأن الإبداع والخلق إنما هما من صنع عقول طرفة دقيقة لا من فعل عقول بسيطة ، وإن معرفة هيرودوت ودقته قد تجللتا عاريتين ، ولابد أنهما أذهلتا كثيرين من قراء الغرب المصريين ، كما أذهلتا جمهور الهيلينيين في عصر الإمبراطورية . كذلك لم تكن السذاجة من خصائص نتاج « هوميروس » ^(١) . وشر « هسيود » Hesiod في الواقع ؛ هو الجزء الوحيد من سائر الأدب الهليني المترجم في هذا الجلد ، الذي يمكن أن يوصف بحق وبشكل تام ، بأنه بدائي ، والفقرة التي اختيرت من ملحمة (الأعمال والأيام) تبين أنه حتى هذا التعميم لا يخلو من استثناء ، إذا كن ولابد أن يكون هناك رصيد محترم من التجربة الاجتماعية ، في عقل يمكن أن يحس بشكل مرهف مدى فظاعة الانحلال ^(٢) .

(١) إن روح هومر المفضلة (والتي تجلت في تناوله للأرباب بشكل لاذع) ليست الآن محودة السيرة ، إلا أنها بالطبع ليست ظاهرة هيلينية على إطلاقها . وإن الدراسات القارنة لنوع أدب اللامح ، في سبيل اكتشاف ذلك مؤخراً ، أبعد من أن تكون (بدائية) ، إذ أن اللامح في كل العصور والأماكن هي النتاج الرموزي لمجتمع متقف ويختلف سداها تدريجياً في العالم السفلي الحقيقي لفولكلور (انظر Chadwick's Heroic Age, Murray's Risc of the Greek Epic

(٢) إن الأدب الهليني الوسيط في ثقافته وأبعاده العقل والتأمل يبدى نقاباً أكثر وضوحاً للأدب الإسكندنافي الوثني في الغرب الوسيط أكثر من الأدب المسيحي الغربي المعاصر له . فهل ثمة سبب لهذا ؟ يرى البروفسور و. ب. كير W. P. Ker في كتابه (Epic and Romance) أن الإسكندنافيين أعادوا من عدم انسابهم وبلبلتهم من جانب تراث الماضي السرياني والهليني ، الذي سيطر على مسجحة القرون الوسطى . وأوضح كيف أن الإسكندنافيين المباشرة أصبحوا مشلولين منذ أن أصابهم عدوى الرومانية المسيحية النرية واللاموت المسيحية النرية . وإذا ما افترضنا أن هذه السوى لم تحدث ، فليس ثمة معرفة لما هي الدرجة التي لم يستطع الأدب الإسكندنافي أن يلبثها في تطور مستقل ، وقد استمتع الهلينيون بمثل هذا التطور غير المقيد على وجه التحديد لأن الهلينيين (على عكس التيونون) لم يتركوا أي بقايا من الحضارة التيونونية السابقة لتقطع طريقهم الحاس نحو النور ولديها .

لهذه الأسباب المتعددة ، فإن أسلوب الترجمة الذي اشتهرنا هنا ، من شأنه أن يكسو كل مقتطف من كل مؤلف من كل عصر ومن كل طابع بعض لباس من الإنجليزية التي نكتب بها في هذا النصف الأول من القرن العشرين بعد المسيح . وقد تركز جهد المترجم الرئيسي في ألا يجعل القارئ يحس لأول وهلة أنه أمام شيء مترجم ، أي أمام شيء غير أصيل قد طرقت الأيدي من قبل . وهذا كما أعلم تماماً ، مثال سلبي ، وأن وصايا النهي لها مضارها المروفة . ويتمثل الخطر في هذه الحالة بأن تكون النتيجة حديثاً دلوجاً ركيكاً مما قد يضحي منه بالجمال والخلود في غضون الجهد المبذول لاستعادة واقعية الحياة . ترى هل من سبيل إلى التوفيق بين الجمال والخلود ! أو هل العلاقة بينهما موضع مساومة دأعة ؟ ولكن هذا السؤال يناهى بنا بعيداً عن مجالنا . . .

إنه ينبغي لنا فقط أن نغس بعض نقاط في التفصيل . وبإحدى ذبده ، نجد اللغة اليونانية القديمة من ناحية ومجموعة لغاتنا الغربية المحلية الحديثة من ناحية أخرى ، إنما هي لغات ذات طبيعة مختلفة بشكل واضح . فالأسلوب في اللغة اليونانية بسيط والنحو معقد . بينما الأسلوب في لغاتنا معقد نسبياً والنحو بسيط . وما عليك إلا أن تتقل أي قطعة من اليونانية إلى أي لغة حديثة في أسلوبها الجرد الأسيل ، حتى تجد أنك تقلت شيئاً لا هو بالإنجليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية . ففي أدبنا الغربي ، كما هو الحال في غيره من صور التعبير اللغوي عندنا ، يوجد دائماً على وجه التقريب شيء ملتو ومعقد — لسة من مزاب من شأنها أن تغير الاشتراكي في نفس المهلبني بشكل خطير ، غير أنه لا سبيل إلى حذفها من أي كتابة غربية دون أن نصيب الطليعة^(١) بهزة عنيفة . ومن هنا غالباً ما تكون الترجمة معقدة جداً حيث هي بسيطة في مواضعها الأصلية . وعكس ذلك (وهذا عمل دراسة كلاسيكية) ، وبالطبع فن الاستحيل تماماً ، أن نعيد إنتاجاً أدبياً في أي من

(١) هذا النص يمكن أن ندرسه بالمثل في الكوميديا الإلياذية . وهاملت وناوست والرؤساء بمقارنتها بأعظم أعمال الفن الهليني .

لغاتنا ، ولاسيا في الإنجليزية ، بالبناء النحوي المقدس التي تتميز به اللغة الإغريقية^(١) بدرجة عالية من التركيب والتأليف . إذ أن انكسار سياق الجملة دون انكسار سلسلة التفكير التي تنطوي عليه إنما هو أمر مألوف وإن كان مشكلة خلافة على الدوام، وفي المحاولة المستمرة لحلها فإن المترجم قد أقاد من السهولة التكتيكية التي تتوفر في كتاب مطبوع بين دفتيه صفحات يقدمها على اعتبار أنها مخطوط مكتوب في مجلد . ومن المهم ، في الملف المخطوط أو « المجلد » بالمعنى الحرفي والأسيل للكلمة) أن تتجنب أى انقطاع في التسلسل . ففي هذه الحالة ، ليست هنا صفحة تقدم عليها مساحة كافية للملاحظات ، وليست هناك صفحات أخيرة تضمنها الحواشي . وإذا ما رفعت الملاحظات والحواشي من التز ووضعتها آخر المجلد ، ضاع وقت القارئ وقد صبره في تقليب مضمّن ، وسوف تلمس الكتابة ذاتها على الملف، وفضلاً عن ذلك فإن من يقوم بالنسخ مرة ثانية قد تسقط منه هذه الحواشي سهواً ، وهكذا ، سوف يضيع في النهاية جهد كل إنسان . وعلى هذا فمن المستحب ، في أى عمل يتعلق بالأدب الهليلي ، أن تضم الملاحظات والحواشي إلى النص نفسه عن طريق الأقواس ، ومن حسن حظ المؤلفين الهليليين ، أن التعقيد النحوي في اللغة اليونانية القديمة قد أعطاهم هذه الفرصة التي ليس في وسعنا تهيتها . وأياً كان الأمر ، فإن الجهد ، حتى في اللغة اليونانية ، غالباً ما كان عملاً من أعمال البطولة، وشيئاً فشيئاً ، فإن المترجم لا يجد أنه قد أراح مهارته الثقة فحسب ، بل سيجد أن فكرة الأسيل المتخفم كذلك ، قد استراح بشكل لا مثيل له بفضل استخدام مشروعنا الحديث^(٢) .

وكان على المترجم أن يواجه مشكلة أخرى في تحديد موقعه إزاء بعض الكلمات والأسماء الدقيقة المينة ، فثلا هل له أن يبق على الكلمات الإغريقية (هيلاس)

(١) حاول ذوو الطبيعة التريبة هنا في الماضي، تحت التأثير المباشر لصهر الأحياء ، ولكن لم يقدر لأسلوب Lyle ولا لأسلوب بلتن أن يكون المؤثر التكتيكي في الشر الإنجليزي .

(٢) تميز ملاحظات المؤلف والمترجم الواحدة عن الأخرى بشكل دقيق .

و (الهليين) أم ينيرها إلى (اليونان) و (اليونانيين) ؟ وبعد كثير من التبصر
رفض اختيار بديل لأكثر الأسماء شيوعاً ، لأن البديل في الإنجليزية الحديثة له
معان مزدوجة . ومبدئياً ، فإن الناس يفترضون أن (هيلاس) دولة قاعة ، وأنها
أمة قاعة أكثر من أنها عالم قد اندثر ، والأخذ بالاقتراض الأقوى قد يكون له
أثر يشوه ذلك العالم المندثر . إذ أن (هيلاس) القديمة لم تكن دولة وإنما كانت
عالمًا يشتمل على مئات من (الدول) لم تكف عن الحرب فيما بينها حتى الطور
الأخير من تاريخها ، ولم يكن آل (هليين) (هليين) القداى أمة وإنما كانوا مجتمعاً من
أمم يتكلم بعضها بلغات وطنية — غير إغريقية . ومن ثم فقد تركنا كلمات
(هيلاس) و (هليي) كما هي ، وينبغي أن نطقها ومعها كل (وأكثر من كل)
ما تحمل من ارتباطات عاطفية وتصورية ترادف عندنا لفظي (أوروبا)
و (الأوروبيين) ^(١) . ومن جهة أخرى فإن اسم اللغة قد ترجمناه إلى (اليونانية)
ما دامت كلمة (هلينية) من شأنها أن تبعث على الحيرة في هذا الصدد ، بينما ينبغي
أن يتقذنا من الخلط وضع غربي مشابه . فكما يتكلم (الأوروبيون) ويكتبون
بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية ... هكذا ، ولم يحمل هذا بينهم وبين أن
يكونوا أعضاء كثيرهم في الانتماء لحضارة واحدة ، قد تكلمت غالبية الهليين
وكتبت دائماً باليونانية ، بينما جاء هليينون آخرون عبر الزمن ، يحملون الاسم من

(١) إنها لسألة غريبة أن يكون الاسم الذي أخذ قدسية الأموات غير دقيق من الناحية
العلمية على أي وجه من الوجوه . ففي شرق القارة الأوروبية وجنوبها الشرق ، هناك أناس
كثيرون مازالوا يسمون أو اعتدوا مؤخراً فقط إلى الحضارة (الأوروبية) . بينما على النقيض
في الحديث عن الحضارة (الأوروبية) فإننا لا نذهب إلى أن نخرج من حوزتها الشعوب في
أمريكا والتي يرجع أصلها إلى غرب أوروبا . ومع أن اصلاحات (النرب) و (الترين)
أكثر دقة ، إلا أنها ليست شائعة . ولعل . هناك شعوب ناضجة باليونانية في الأجزاء الشمالية
الغربية من الأراضي اليونانية التي أشار إليها توكوديديس على (أنها غير هلينية) . بينما كانت
في وقته شعوب لاتكلم باليونانية ، كشعوب ليكيا Lycia وكاريا Caria وإتروريا Etruria
وحى لاتيوم Latium وقرطاجنة Carthage كانت تطلب بأن ينظر إليها على أنها
أعضاء في المجتمع الهليي أكثر من اليورتانيين Eurytanes والتسبروتيين Thesproti
أو الحايونيين Chaones .

الناحية الروحية إلا أنهم عبروا عن رأيهم الهليني باللغات الإروسكانية واللاتينية والليدية والفريجية والوقيانة أو الآرامية .

وثمة مشكلة ختامية حول الكلمة اليونانية (البرابرة) . . . هل ينبغي أن نتركها كما هي أم نجد مرادفاً لها ؟ وهنا اختار الترجمة المرادف الثاني ، لأنه (كما يبدو) لا نكاد الكلمة الأصلية تشتمل على المعنى الفرعي في اليونانية ، كما هو موجود في الكلمة المستعارة في الإنجليزية . ومعناها في اليونانية واسع ومتباين جداً . وحينما تكون الفكرة الجدرية سلبية ، فإن الترجمة الصحيحة هي بالتأكيد (غير الهلينيين) أو (اللاهلينيين) . وأياً كان الأمر ، فالكلمة غالباً ما تشير إلى عناصر من حضارات منافسة أو سامية ، بينما قد يؤدي استخدام الكلمة (برابرة) في الإنجليزية إلى خطأ كامل إذا ما استبدلت بكلمة (الشرقيين) . وأخيراً ، فثمة حالات قليلة ، يبدو فيها أن كلمة (أناس قبليين) هي البديل الطبيعي ، ولكنها حالات نادرة . (١) .

ولفظة أخرى وهي (بوليس) Polis ، نادراً ما ترجمت إلى (مدينة) لأن تلك الكلمة إنما توحى إلى عقولنا بضخامة مجتمع مدني على نطاق غير معروف للعالم الهليني فيما عدا بعض بقاع قليلة خلال فترة قصيرة نسبياً من تاريخه (٢) ، بينما لا توحى بالتأكيد بمعنى الدولة ذات السيادة . فإذا عدنا إلى المقارنة ، نجد أنه بينما تكون (بوليس) الهلينية دون البلدة الإنجليزية في مستواها المادي ، فإنها تتمتع بحياة سياسية وشخصية متميزة على مستوى يختلف تماماً عن المجلس العظيم وهو

(١) ثمة أهمية تاريخية للحقيقة القائلة بأن الهلينيين استخدموا كلمة بقاتها لتعبر عن هذا النوع في الماني ، لأنها تكشف عن تصرفهم الذاتي وميلهم إلى إنكار ما أنجزته المجتمعات الأخرى . وقد كان هذا ضيقاً خطيراً يعزى بشكل كبير إلى انتصار سوريا الهلاني ، في النزاع الطويل المؤلم الذي شقته الحضارتان في المجالات المختلفة ؛ في الحرب والسياسة والاقتصاد والدين .

(٢) قد يتمر المراقبون الهلينيون أمام التجمعات الحضارية التي لها نمط فطري ؟ إلا أن هذا النمو والذي عندنا أكبر من حدود الهلينيين (ق زمتها للتصحر) في مأوى الحضارتين المصرية والعراقية .

أعلى تنظيم سياسي لمدينة غربية ضخمة . وكانت (بوليس) من الناحية القانونية (دولة) ومن الناحية الفعلية (بلداً) بينما كان شعبها يشكل (أمة) سواء خرج في ألفدجل قوى أو في عدد أكبر أو أقل لتلتحم سيوفهم بسيوف جيوش بلد أصغر في التركيب وأقل درجة في الوعي الذاتي ، سواء أكانت في نظرم أقل أم ضخمة سياسياً مثل الإمبراطورية الفارسية . وقد استخدمت بالتالى كافة هذه الكلمات الإنجليزية حسباً تتفق والمناسبات ، بينما في الحالات الأقل تكراراً ، والتي يعنى فيها النص اليونانى بأن يستخدم كلمة (بوليس) بالمعنى الطبوغرافى والمادى ، فهى تترجم دائماً بـ (البلدة) .

وفي الوقت الذى تتردد فيه كلمات (يكتب) و (كاتب) و (يقرأ) و (قارى) فعلى القارى* الإنجليزي ألا ينسى أن ما يقوم مقامها عادة في اليونانية كانت كلمات (سرد) و (مؤلف) و (يسمع) و (سامع) . لأن النقل الشفهى كان هو الوسيلة الطبيعية لإيصال محتويات العمل الأدبى في مجتمع كانت فيه عملية إعادة نسخ المؤلفات أكثر بطئاً وأكثر تكلفة مما هى عليه الآن نسبياً في الغرب منذ بداية الطباعة الحديثة . ومنذ أيام هيرودوت حتى سيموكتا ، كانت التلاوة العلنية أمام مستمعين يختارهم المؤلف ذاته هى الأسلوب المألوف للنشر . ثم يأتى بعد ذلك لفظ (اللوجوس) Logos - (الكلمة) في أحد معانيها الكثيرة التى تشتمل عليها الكلمة المنطوقة . ويمكن ترجمتها بـ (رواية)^(١) أو (عمل) أو (كتابة) ، بحيث إن الحديث الذى تلقينه بعثة دبلوماسية يمكن أن يوصف بأنه (مذكرة شفوية) وأن « علم البيان » هو من له مكان قليل في حياتنا - يمكن أن يقال عنه في بعض المناسبات (الفن الصغرى) . وأخيراً سوف يلاحظ القارى أن الأسماء اليونانية ، سواء في ذلك أسماء الأشخاص أو الأماكن ، قد نقلناها في النص الإنجليزي بشكها اللاتيني المروف^(٢) . وقد قننا بهذا الهدف السلي البعث لإعفاء القارى من سلسلة

(١) وهى كلمة تتضمن في ذاتها معنى النقل الشفهى في الأصل اللاتينى .

(٢) إننى لم أتماد في إخفاء الأرباب الهلين تحت أسماء الآلهة اللاتينية القديمة والتي كانت تطلق عليها ؟ وفي حالة بعض السير الشائعة أو المشهورة فيما بيننا ، استخدمت الاسم الذى نطلقه نحن الآن ، (على سبيل المثال) الدردنيل - بدلا من (هيلسبونت Hellespont) .

متصلة من الصدمات البصرية الخفيفة التي من شأنها أن تصرف ذهنه بلا مبرر عن
 السكر واللذة. وذلك يجعل القارى متيقظاً تماماً للهجاء فقط . وإن نظر توأحدة إلى قواعد
 الهجاء التي استخدمها « براوننج » Balaustion's Adventures Browning أو ترجمته ل (ثلاثية أيسخولوس) Trilgy of Aeschylus ، من شأنها
 أن توضح الأثر البصرى الذى سعى المترجم الحالى إلى تجنبه . إن قواعد
 الهجاء اللاتينية مألوفة لأبصارنا لأننا نستخدمها فى نقل الكلمات المركبة المستعارة
 أو المأخوذة حديثاً عن اليونانية فى كلماتنا العلمية النامية باستمرار . وعلى هذا فإن
 كلمات بهذه الحروف لا تستقيم مع الصفحة وتموق سياق الفقرة وتحرف أبصارنا
 وهى تنقل بين السطور . وربما كان هذا تضحية بالدقة فى سبيل الابتعاد عن مادة
 ليست جوهرية ، ولكن علينا أن نكتشف أكثر مما هو معروف بخصوص نطق
 اليونانية القديمة قبل أن نتمكن من ميانة قواعد الهجاء اليونانية بشكل جاد ، وهى
 معاونة لها قيمتها إزاء إعادة بناء الكلمة المنطوقة ، كما خرجت فى بداية الأمر من
 فم المؤلف لتقع على آذان معاصريه .

وأيأ كان الأمر ، فهذه أمور ليست بذات بال ، ولا يتوقف عليها نجاح هذا
 الكتاب أو فشله . وسوف ينجح الكتاب أو يفشل بسبب وجهة النظر التاريخية
 التى يقوم عليها ، وليس بسبب بعض الإيضاحات التى قدمت حالياً فى هذه المقدمة .
 والاقتراض الرئيسى هو أنه فى المسار المتتالى أو الذى يحدث فى وقت واحد من
 جانب الحضارات المختلفة المعروفة — الحضارات المصرية والراقية والينيوية
 والمهندية والشرق الأقصى ، والهلينية والسورية — الإيرانية ، والبيزنطية والغربية
 والشرق الأوسط — تكشف لنا الرؤية التاريخية عن تكرار مستمر عميق وعن دلالة
 عميقة للخبرة الإنسانية على نطاق بطولى . وعندما نصوغ هذه المسألة فى كلمات ، فإن
 هذا الاقتراض قد يمر عن ظهور مبدأ مريب بعض الشيء ، إلا أنه بلا ريب كان دائماً
 مبدأ كل عالم كلاسيكى . ولو لم نكن مقتنعين بأن الوعى الهليني ، حتى فى صور
 التعبيرات المتأثرة التى وصلتنا ، ولو فى دخيلة قفوسنا ، ملئ بالحيوية وزاخر

بالتجربة ، أو بعبارة أخرى على درجة من (المصرية) ، مثلنا تماماً، لو لم نكن مقتنعين بهذا، لما كان ينبغي أن نتجذب نحوه غير قادرين على المقاومة كما انجذبنا إليه ، وما كان لنا أن ندعه يصيب من عملنا العقل هذا القدر الذى أوليناه ، والذى كان حتى ذلك الحين مستحيلاً ، وهو مشاركة معاصرنا الهلبيين فى الأفكار والشاعر. وأيا كان الأمر، فإن قراء هذا الكتاب ، هم على الأرجح ، أناس يتكلمون الإنجليزية ، وتلقنوا دراسات أخرى غير كلاسيكية ، وعلى هذا فليس ليسهم هذه الخبرة الشخصية النشطة ، التى يجعلهم يحدون ، منذ الطفولة ، ماذا تعنى الدراسات الكلاسيكية فى أصلها للعقل الغربى الحديث . إن الانطباع الذى يحدث عند مثل هؤلاء القراء سوف يكون تجربة أسدق من فشل الكتاب أو نجاحه ، ويعرف كل مؤرخ أن النجاح فى مسماء الإنسانى السامى إنما تمنحه له معجزة فقط .

«وكانت على يد الرب فأخرجنى روح الرب وأزلىنى فى وسط البقعة وهى ملائكة عظاماً . وأمرتنى عليها من حولها وإذا هى كثيرة جداً على وجه البقعة وإذا هى يابسة جداً. فقال لى يا ابن آدم أحميا هذه النظام. (فقلت بإس يد الرب أنت تمل.) فقال لى: (تنبأ على هذه النظام وقل لها . أيتها النظام اليابسة اسمى كلمة الرب. هكذا قال السيد الرب لهذه النظام . هاأنذا أدخل فيكم روحاً فتحيون وأضع عليكم عصياً وألبسكم لحماً وأبسط عليكم جلوداً وأجعل فيكم روحاً فتحيون وتعلمون أنى أنا الرب . »

فتنبأت كما أمرت وبينما أنا أتنبأ كان صوت وإذا دعش فتقاربت النظام كل عظمة إلى عظمة ونظرت وإذا بالمصب واللحم كساها وبسط الجلد عليها من فوق وليس فيها روح. فقال لى: (تنبأ للروح تنبأ يا ابن آدم وقل للروح هكذا قال السيد الرب هلم ياروح من الرياح الأربع وهب على هؤلاء القتلى ليحيوا .) فتنبأت كما أمرنى فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أقدامهم جيش عظيم جداً جداً . »

أرنولد تويني - لندن

مقدمة الطبعة الإنجليزية الثانية

يعتبر التفكير بالنسبة للإنسان نشاطاً شاقاً وبمبدأً عن النهج الطبيعي . وهو في هذا كالسير على قدمين بالنسبة للقروء ، ونادراً ما نسرف فيه أكثر مما نحن في حاجة إليه ؛ ويتماظم عدم ميلنا إلى التفكير بصفة عامة في الأوقات التي نحس فيها بأكبر قدر من الراحة . وإذا كان هذا الإعراض للإنسان عن العمل الفكري لا يظهر في الحياة العامة أقل من ظهوره في الشؤون الخاصة ، فإن المجلس البشري لا يؤدي الكثير من تفكيره التاريخي في أزمته يسيرة يسودها الرخاء . وفي مثل هذه الأوقات فإننا نقنع عادة بأن نميش خلال التاريخ دون أن نتحقق من أننا نخفي في تياره ، بل وعلى الرغم من أن فترات الرخاء في شئون البشر غالباً ما كانت قصيرة في الماضي ، فإن هذه الفترات كانت طويلة بما يكفي أن تدخل في روع الناس أن التاريخ أمر لا يصادف هوى في النفس ولا سبيل له إلى اللحاق بجيولهم ، على حين أنهم يعلمون تمام العلم أن أناساً آخرين في أزمته وأمكنة أخرى ، قد واجهوا في بعض الأحيان نكبات تاريخية .

وعندما يحين الوقت ليأتى علينا التاريخ بدورنا ، وهو أمر لا بد من حدوثه إن أجلاً أو عاجلاً ، فإن تجاربنا غير المرغوب فيها ، نحدو بنا إلى التفكير ثانية في تاريخ الإنسان ومصيره ، وقد أخذت عقولنا في مجتمعا القرنى الحديث تعود إلى الوراء في هذا الاتجاه منذ عام ١٩١٤ ، غير أن الإنسان القرنى ، ابن القرن العشرين ، يملك أكثر ناحية مريحة في العصر الألفى السعيد من خلفه ، ليس معداً جيداً لثل هذا العمل الفعلي الضروري وإن كان شاقاً . ونحن في تجربتنا الذاتية ، ليس وراءنا أكثر من ستة وثلاثين سنة من الخطيئة الصارخة والمعاانة تنير السبيل أمام مداركنا . ونحن وإن استطعنا أن نشغل هذه الحقبة الضئيلة من الزمن بهذا الحشد الضخم من التجارب المشار إليها ، إلا أن الفترة مازالت قصيرة

إلى حد لا يسمح لنا معه بأن نستعرض التاريخ الإنسانى فى ضوء ما كنا نفعل نحن أنفسنا ونماتى .

وهذا هو المجال الذى يمكن للفكر التاريخى عند الإغريق أن يساعدنا . لأن فترة الحقبة فى التاريخ الإغريق والرومان ، التى تامل فترة محنتنا ، لم تدم ستة وثلاثين عاماً فقط ، وإنما دامت لأكثر من أحد عشر قرناً ، هذا إذا ما كان علينا أن نؤرخ لانتهيار الحضارة الهلينية منذ أن شبت الحرب البلوونيزية - الأثينية فى عام ٤٣١ ق . م ، وأن نرى تحللها النهائى فى الطور الأخير من تفتت الإمبراطورية الرومانية فى القرن السابع من العصر المسيحى . ومن بداية هذه الحقبة حتى نهايتها فيما لا يقل عن أحد عشر قرناً ، كان مفكرو الإغريق يتأملون غموض الحياة الإنسانية فى ضوء خبرات الأنواع التى غدت مألوفة لدينا أخيراً . وقد ترجعنا فى هذا المجلد ، مقطوعات خالدة من الأدب الإغريق تشمل هذا النقاش انطويل ، إيماناً منا بأن لها ، فى هذه الآونة ، أهمية للقراء الغربيين المعاصرين .

وبالخلاصة ، أن التجارب التاريخية التى اعتصرت هذه الأفكار من الروح الإغريقية ، إنما تماثل التجارب التى نجتازها نحن الآن . فهذه الأفكار الإغريقية المنقولة هنا إلى الإنجليزية ، إنما هى تنعكس فى العقول الإنسانية عن الحرب المالية والحروب الطبقة ، والمنازعات الثقافية داخل أما كن مغلقة بين أناس من تراث اجتماعى متباين ، وفى نطاق النزاع على البطولة ، وكافة النماذج النامضة الأخرى ، نسجت كلها على نول من الخير والشر ، وذلك ينبه العقول البشرية إلى تصارع التناقضات فى الطبيعة البشرية .

فلدينا فى عام ١٩٥٠ ، بشكل كبير ، ما تعلمه من النكر التاريخى عند الإغريق أكثر مما تعلمنا فى عام ١٩٢٤ .

ت . ا

الجزء الأول مقدمات

هيرودوت الهالكارناسي

(٤٩٥ - ٤٢٥ ق.م)

Herodotus of Halicarnassus

تاريخ الشرق والغرب

(نص أكسفورد ، تحقيق ك. هيرود C. Hude : الكتاب الأول .
الفصول ١ - ٥) .

فيما يلي ، يقدم هيرودوت الهالكارناسي نتائج أبحاثه ، وله هدفان : أحدهما
إتقاذ تاريخ الجنس البشري من النسيان ثم إثبات أن الأعمال الرائعة التي اضطلع
بها الهينيون والشرقيون سوف تتمتع بما هي أهل له من شهرة - خاصة تلك التي
أدت إلى سدام فيما بينهم .

ويلقي المؤرخون الفارسيون مسؤولية هذا النزاع على عاتق الفينيقيين . واستناداً
إلى هذا الرأي ، فإن الفينيقيين ، الذين عاشوا على سواحل البحر الأحمر قبل أن
يهاجروا إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط ، لم يكذبوا مستقر بهم المقام في موطنهم
الحالي ، حتى قاموا برحلات بعيدة ، حملوا فيها سفنهم بالسلع المصرية والآشورية ،
وكان من بين الأسواق التي زاروها (أرجوس) Argos - التي كانت في ذلك
الحين أعظم ولايات الإقليم الذي نطلق عليه الآن (هيلاس) . وعليه ، يزور
الفيينيقيون (أرجوس) (وهكذا تضي الرواية) حتى يأتوا على بضائعهم ، وفي
غضون خمسة أيام أو ستة من وصولهم ، كانوا قد باعوا كل ممتلكاتهم تقريباً ، إذ جاء
بعض النسوة إلى الشاطئ ومعهن ابنة الملك^(١) . فوقفن عند مؤخرة السفينة

(١) يرد اسمها في كل من الروايتين الفارسية والهيلينية على أنها (ليوبت ألتاخوس) .
المؤلف .

وأنهمكن في الشراء ، خاصة شراء الطرف التي ألهمت خياليهن ، فهاج الفينيقيون واتقصوا عليهن . وكان أن أفلتت غالبية النساء وسييت « إيو آ » وأخريات ، قتلن الفينيقيون إلى ظهر السفينة قسراً ، وأبحروا بهن إلى مصر . هذه هي الرواية الفارسية عن كيمية بحىء « إيو » إلى مصر (وهي تتعارض مع الرواية الهلينية) . وينظر الفرس إلى هذا الحادث على أنه بداية الأعمال الاستفزازية بين الفريقين . فقد أعقب هذا الاستفزاز ، في الرواية الفارسية ، غارة الهلنيين^(١) على (صور) Tyre في فينيقيا ، حيث سبوا « يورويا » Europa ابنة الملك . وقد نتج عن هذا وجود أحزاب يناصر كل حزب منها فريقاً بعينه . ثم ما لبث أن حدث استفزاز جديد من جانب الهلنيين وذلك بأن بثوا بسفينة حربية إلى (أيا) Aia في (كولخس) Colchis على نهر (فاسس) Phasis ، دون أن يكتفوا بالعمل الذي ذهبوا من أجله ، بل سبوا « ميديا » Medea ابنة ملك البلاد . وبث ملك الكولخيين رسول إلى (هيلاس) يترضى الهلنيين كي يردوا إليه ابنته . غير أن هؤلاء أجابوا بأنهم ليسوا على استعداد لأن يتقدموا بأية ترضية في حالة كهذه ، لأن الشرقيين لم يقدموا أية ترضية عن حادث خطف الأميرة الأرجينية (اليونانية) . وأما كان الأمر ، فقد حدث بعد ذلك بجيلين أن آثارت هذه الحادثة نحوه الإسكندر ابن « بريام » Priam فزعم على أن يختطف زوجة له من (هيلاس) ، مطمئناً إلى أنه سوف لا يتقدم بأية ترضية ، مادام الجانب الآخر قد رفض تقديم مثل هذه الترضية من قبل . وعلى هذا فقد خطف « هيلينا » Helen ، وقرر الهلينيون ، إذ ذاك أن يبادروا بإرسال مذكرة يطالبون فيها برد « هيلينا » وترضية عن الاعتداء . غير أن الفريق الآخر رد عليهم بأن آثار في وجوههم مسألة خطف « ميديا » وأوضح أن الهلنيين ، الذين يطالبون بترضية من الآخرين ، هم بأنفسهم الذين رفضوا تقديم ترضية لمثل هذه الحالة ، ورفضوا أن يبيدوا « ميديا » حينما طلب إليهم ذلك . وإلى هنا توقفت اعتداءات الخطف بين الفريقين . إلا أن الهلنيين

(١) ليس لديهم سجل باسمهم ، ولهم كانوا من كريت — المؤلف ٢

قد جلبوا على أنفسهم بذلك مسئولية جسيمة حيناً بدأوا بغزو آسيا . ولم يكن الشرقيون قد قاموا بغزو أوروبا بعد . ويعلق المؤرخون الفارسيون على هذا بقولهم ، إنه بينما يعتبر سبي النساء جريمة ، إلا أنه من الحافة الإصرار على الانتقام من أجله ، وأن السلك الحكيم يقضى بأن يفض النظر عن هذا العمل . إذ أنه من الواضح أن خطف النساء لم يكن ليتم ، لو لم تكن لدى النساء رغبة في ذلك . ويستطردون قائلين ، إننا ، معشر الآسيويين ، لم نتأثر باختطاف النساء ، في حين أن الهلنيين ، من أجل امرأة إسبرطية ، أعدوا أسطولا حربياً كبيراً ، وقاموا بغزو آسيا ، ودمروا دولة « بريام » . ويضيف المؤرخون الفرس . . . ومنذ ذلك الحين ونحن ننظر إلى العالم الهليني على أنه عالم معاد لنا^(١) .

وأخذاً بهذه الرواية عن تلك الوقائع فإن الفرس يردون خصومتهم الطويلة مع الهلنيين إلى سقوط (طروادة) Troy . والرواية الفارسية ، فيما يتعلق بحادث « إيو » تمارضها الرواية الفينيقية ، التي تؤكد أن « إيو » لم تسب حينما ذهبت معهم إلى مصر ، وإنما كانت قد أحبت قائد السفينة ، في أرجوس ، وعندما اكتشفت أنها حامل ، لم يكن في مقدورها أن تواجه والدها ، فأبحرت مع الفينيقيين بحض اختيارها حتى تهرب من اقتضاح أمرها . وبكفي هذا القدر من روايات الفرس والفينيقيين . أما من جهتي فسوف لأزج بنفسى في هذا الخلاف بالتأييد أو بالرفض ، وحسبى أن أبدأ بتناول الشخصية التاريخية الأولى ، التي كانت حسب معلوماتى ، مسئولة عن العدوان ضد الهلنيين . وخلال روايتى سوف أولى البلدان الصغيرة اهتماماً شأنها في ذلك شأن البلدان الكبيرة ، لأن البلدان التي كانت كبيرة فيما مضى ، غالباً ما أصبحت صغيرة ، بينما تلك التي ازدهرت في عصرى كانت صغيرة من قبل . ولما كنت أدرك أن حظ الإنسان لا يدوم على حال ، فسوف لا أفرق بين هذين النوعين من البلدان .

(١) ينظر الفرس للفتاة آسيا والأمم التي تغلبها من أملاكهم ، ولكمهم يشتركون العالم الهليني غريباً عنهم — المؤلف .

(١) إنه كرويس Croesus ملك ليديا (٥٦٠ - ٥٤٦ ق . م) .

ثوكوديديس الاثيني

Thucydides of Athens

(٤٦٠ - - ٣٩٥ ق.م.)

تاريخ الحرب البيلوبونيسية

(نص أ كسفورد ، تحقيق هـ . ستوارت - جونز H. Stuart-Jones
الكتاب الأول . الفصول ١ - ٢٣) .

كتب «ثوكوديديس» الاثيني تاريخ الحرب التي نشبت بين سكان البيلوبونيز والأتينيين . واستهل عمله هذا فور نشوب الحرب ، التي اعتقد أنها ستحجب في الأهمية كل حرب سبقها . وحل على هذا الاعتقاد أن كلا من الطرفين التجاريين ، عندما بدأ بالمديان ، كان قد أعد للحرب ما استطاع من قوة في كل سلاح ، وأن الشعوب الهلينية قد اشتركت جميعها في هذه الحرب ، فأنحازت إلى هذا الطرف أو ذاك ، وسارع بعضها إلى هذا الانحياز ، وعقد البعض الآخر العزم على أن يحذو حذوهم . وكانت هذه الحرب ، بالفعل ، أكبر انفجار أثر في (هيلاس) وامتد أثره إلى العالم غير الهليني (ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إنها أثرت على مجموعة كبيرة من الجنس البشري) . حقيقة إن مضي الزمن قد جعل البحث الدقيق في الحاضر مستحيلاً كما هو الحال في بحث الماضي البعيد ، إلا أنه في ضوء أقدم دليل اعتبره جديراً بالثقة ، فإنني لا أتصور أنه قد وجدت في الماضي حروب أو أحداث أخرى يمثل هذه الدرجة من الأهمية .

ويسد أن سكان المكان الذي نطلق عليه الآن (هيلاس) لم يستقروا حتى زمن قريب نسبياً . وأن (هيلاس) تعرضت في الأزمنة الأولى لهجرات ، ترك فيها السكان مساكنهم بسهولة تحت ضغط بعض الدخلاء الذين يفوقونهم في العدد . ولم تكن التجارة أو الاختلاط مضمونين ببحراً وبراً . ففأش كل مجتمع

في حدود إنتاجه المحلي الخاص ، دون أن يتجمع لديه رأسمال ، ودون أن يعمل على استثمار رأس المال هذا في الأرض ، لأنه لم يكن في وسع أحد أن يعرف تماماً متى يحرمه الفزاة من بلاده، تلك التي لم يتعلموا كيفية تحسينها بعد . وكان من المسلم به عندهم ، أنه من اليسير أن يحصلوا على قوت يومهم أينما حلوا . لهذه الأسباب كانوا على أهبة الترحال ، فلم يعملوا على تكوين قوة بشرية كبيرة أو عتاد حربي كبير . وقد تعرضت ، بوجه خاص ، أغنى المناطق ، كذلك التي يطلق عليها الآن (تساليا) Thessaly و (بويوتيا) Boeotia ، ومعظم مناطق البيلوبونيز فيما عدا (أركاديا) Arcadia ، وأفضل الأجزاء الأخرى ، إلى تغيرات في السكان . ونتج عن خصوبة التربة تزايد في القوة ، التي أدت إلى اضطرابات أهلية مدمرة ، وجعلت من هذه البلدان ، في الوقت نفسه ، هدفاً لأطماع الأجانب البالغة . أما (أتيسكا) Attica ، فإنها على عكس ذلك ، لقد دخلت من الاضطرابات الأهلية لفترة طويلة متصلة ، بسبب فقر تربتها . ولم يحدث أن اختقدت سكانها الأصليين أبداً . ومما يؤيد رأيي في أن الهجرات قد عاقت التطور المائل للبلدان الأخرى . هو أن أهم ضحايا الحرب والاضطرابات الأهلية في بقية العالم الهليني قد وجدوا في أثينا كلاجئين ملاذاً لهم ، وأخذوا سماتهم الطبيعية منذ أقدم العصور وما لبثوا أن زادوا من عدد السكان الذين تدفقوا فيما بعد من (أتيسكا) ، وأقاموا لهم مستعمرات في (أيونيا) Ionia .

وثمة دليل آخر يبدو لي إلى جانب ضالة الآثار القديمة ؛ ألا وهو أنه قبل حرب طروادة ، لا يبدو أن هيلاس ، قد قامت بمجهود موحد . واعتقد أن هذا الاسم في حد ذاته لم يكن قد انتشر بعد ليشمل العالم الهليني . وأن التسمية ، في حقيقة الأمر ، لم تكن معروفة على الأرجح قبل عصر « هيلين » Hellen بن « ديوكاليون » Deucalion ، وأن أسماء القوميات المختلفة انتشرت علياً ، وكان أكثرها انتشاراً « البلاسجيين » Pelasgians ولم تكن هناك دولة في (فثيوتس) Phthiotis حتى زمن « هيلين » وأبنائه الذين طلبت منهم الدول الأخرى أن

يتدخلوا لصالحها ، فأنجحوا خلال هذا التدخل إلى إطلاق اسم « الهليينين » على دولة إثر دولة . ومهما يكن الأمر ، فقد انقضت على ما يبدو فترة طويلة ، قبل أن تتداول هذه التسمية . ويمكن الاستدلال على هذا بوجه خاص ، من « هومر » الذى وجد بعد مضي فترة طويلة جداً من الزمن على حرب طروادة ، فنجده أنه لم يطلق اسم « الهليينين » على المنصر بأمره ، أو على أى عنصر آخر ، عدا أتباع « أخيلئوس » Achilles من (ثيوئس) ، وكانوا هم بالفعل الهليينين الأول . ولم يتحدث « هومر » أيضاً ، عن غير الهليينين ، للسبب الذى من أجله أعتقد أن « الهليينين » لم يكونوا قد اتخذوا اسماً معيناً يمكن أن يتباين معه أى تسمية أخرى . وعلى أية حال ، فإن العناصر الأصلية للجنس الهليئى (كما ساد هذا الاسم بشيوعه من دولة إلى دولة حتى غدا اسماً عالمياً) قد عاقتا فلة التداخل ووضعه فى المشاركة فى أى مشروع ، لدرجة أن حملة طروادة لم تكتمل لها عناصر الحملة المشتركة إلا فى عرض البحر .

ويستبر « مينوس » Minos أول رجل معروف فى الروايات القديمة قام ببناء أسطول سيطر به على الجزء الأكبر مما نطلق عليه الآن البحر الهليئى ، وحكم (الأرخبيل) Archipelago ، وكان أول من استمر معظم الجزر — وطارد « الكارين » الأسليين ، ونصب أبناءه حكماً . ومن المحتمل أنه طهر البحار من القراصنة على قدر استطاعته ، كى يوجه الدخلى إلى خزائنه الخاصة . وقد مارس الهليئيون فى الأزمنة القديمة ، القرصنة ، شأنهم فى ذلك شأن سكان الجزر والسواحل من غير الهليئيين . بعد أن اضطرد ازدياد مواصلاتهم البحرية . وتولى القيادة أمئس ذو مكانة من أجل مصالحهم الشخصية من ناحية ومساندة أتباعهم من ناحية أخرى . واعتادوا أن يقتضوا على المدن المكشوفة والقرى فيهبونها ، فكان ذلك مصدراً رئيسياً لأرزاقهم . ولم يكن ثمة عار لحق بعد بهذه الهبة ، بل كانت تتمازج مما عداها من الهب الأخرى ، والدليل على ذلك تلك الهالة التى تحموا حتى يومنا هذا بموهبة القرصنة بين بعض شعوب البر^(١) ، وكذلك الحوار الذى يترخ به

(١) مثل شرب البقان فى قلب شبه الجزيرة الهليئية (المحقق) .

الشعر^(١) في الأزمنة الباكورة . ومازالت شعوب البر يغير بعضها على البعض الآخر . وتوجد إلى الآن ، أجزاء كبيرة من (هيلاس) ، لاتزال الأساليب القديمة باقية بها — كما هو الحال بين « اللوكرين » Locrians الجنوبيين ، و « الأيتوليين » Aetolians وسكان أكارنيا Acharnians ، وسائر تلك المنطقة من القارة . ولا تزال عادة حمل الأسلحة منذ أيام القرصنة باقية بين شعوب اليابسة ، لأن العالم الهليني بأسره خلال فترة ما ، كان يحمل الأسلحة . فقد عاش في العراء ولم يكن الاختلاط مأمون الجانب ، فلم يتخل قط عن الأسلحة ، بصورة أكبر مما تقبل الشعوب غير الهلينية اليوم . ومثل هذه الراوسب ، في هذه الأجزاء من هيلاس تدل على أن تلك المادات الماثلة قد انتشرت ذات يوم على نطاق واسع .

وكان الأيتينيون من الأوائل الذين تخلوا عن السلاح ، وتحولوا إلى أسلوب حياة أكثر دعة وتهدياً . وأخيراً ، تحلى السنون من الطبقة المهذبة عن الكاليات ، كارتداء قصان من الكتان وعقص شعورهم في جهة تزيناها مشابك ذهبية على هيئة الخنبد . وقد استمرت هذه الحياة سائدة لفترة طويلة لدى الجيل القديم من بني جلدة الأيونيين . فالرداء البسيط الذي ترتديه اليوم ، أوجده الإسرطيون في بادئ الأمر ، وقد تبسطوا في المظهر بأسره حتى يكون في متناول الفقير والغني . وكانوا أول من تدرّبوا عراة ، وتجردوا من ثيابهم علناً ، ودهنوا لهذا الغرض أجسادهم بالزيت . ومع أن المتبارين قد اعتادوا في الأصل أن يستروا عورتهم بأردية حتى في مباريات الألعاب الأولمبية ، إلا أنه لم تمض سنوات كثيرة حتى أقلموا عن هذه العادة . ونحن نجد في أيامنا هذه بين بعض الشعوب غير الهلينية ، خاصة في آسيا ، شعوباً ما زالت ترتدي الرهاط (متر) عندما يقيمون مباريات الملاكمة والمصارعة . ومن اليسير أن نجد أوجه شبه كثيرة بين الحياة الهلينية القديمة والحياة غير الهلينية الحديثة .

(١) يوجه إلى البحارة القاعمين للشاطئ سؤال دون تمييز عما إذا كانوا قراصنة ، ولا راودم فكرة الخجل من هذه التجارة أو أن يكون في هذا السؤال نوع من الإهانة (المؤلف) .

وكان لدى البلدان التي تأسست أخيراً جداً، عقب قهر البحار ، فائض من رأس المال ، وأقيمت من أجل ذلك على الساحل أو عبر البرازخ وحصنت تحصيناً صناعياً في أكثر المواقع الاستراتيجية والتجارية الملائمة . وتحاشت المستعمرات الأولى جيرة البحر ، بسبب أعمال القرصنة الدائمة ، التي لم تحدث في الجزر خصب بل وعلى البر أيضاً (لأن القرصنة كانوا يغيرون على سكان السواحل غير المشتغلين بالملاحة كما كان يغير بعضهم على بعض) ، وأيقوا حتى يومنا هذا على مواقعهم الأصلية داخل اليابسة . أما سكان الجزر الذين كانوا قرصنة نشطين على غرار الباقيين ، فقد كانوا من « الكاريين » و « الفينيقيين » وقد قام هؤلاء باستعمار غالبية الجزر ، كما أثبت ذلك (ديلوس) Delos . . . وعندما أعاد الآثينيون تقديس جزيرة (ديلوس) إبان الحرب الأخيرة ، أزالوا كل ما وجد فيها من هياكل ثبت أن الكاريين قد أقاموا أكثر من نصفها . وبما يؤكد هذا نوع الأسلحة التي أدخلوها معهم وشكل المدافن الكارية الذي ما زال سائداً . وقد أصبحت وسائل النقل البحري أكثر أمناً ^(١) بعد بناء أسطول « مينوس » . فبدأ أهالي السواحل في تجميع رؤوس أموالهم وإقامة حياة أكثر استقراراً ، واستخدموا ما زاد عن حاجتهم من المال في بناء التحصينات لوقاية أنفسهم . ورأى الضعفاء أن من الأسلم لهم أن يقبلوا سيادة الأقوياء سياسياً ؛ فاستخدم الأقوياء بدورهم الفائض لإخضاع الدول التي تقل عنهم شأنًا . وقد وصلوا مرحلة التطور هذه تقريباً قبل أن يقوموا بحملتهم ضد طروادة .

واعتقد أن « أجاممنون » Agamemnon استطاع أن يحشد أسطوله لأنه كان القوة المسيطرة بين معاصريه وليس لأن خطاب « هيلينا » كانوا مضطرين للسير وراءه بناء على قسمهم « لتنداريوس » Tyndareus . وفي الحقيقة تؤكد أسدق رواية عند البيلوپونيز بأن « ييلويس » Pelop⁸ قد استولى في بداية الأمر على السلطة بفضل رؤوس الأموال التي جلبها معه إلى هذا القطر الفقير من آسيا ، ونجح في فرض اسمه رغم كونه نازحاً . وكان ينتظر أحفاده نجاح أعظم

(١) قام مينوس بتطهير الجزر من المجرمين ، وكانت هذه فرصة ليستمر فيها معظم الجزر

(المؤلف) .

فمنذما قتل « بنوهرقل » « يورثيوس » Eurystheus في (أتيكا) ، فإن « أريوس »
 Atreus خال « يورثيوس » الذي طرد من بيت أبيه بسبب مقتل « خريسيوس »
 Chrysippus ، وجد نفسه مسئولاً عن أهالي (موكناي) وأملاكهم ، التي عهد
 بها إليه « يورثيوس » لصلة القرابة التي كانت بينهما . ولما لم يمد « يورثيوس » اعطى
 « أريوس » العرش بمحض إرادة أهل موكناي ، الذين كانوا يحشون المهرقلين ^(١)
 وهكذا تفوق أتباع « ييلوبس » على البرسين Perseidae ، وأعتقد أن ذلك
 الميراث مصحوباً بالتفوق البحري ، هو الذي مكن « أجاممنون » من أن يحشد
 قواته ، التي كانت مسخرة أكثر منها متطوعة . ويبدو أنه أعد بنفسه أسنخم حامية
 من السفن ، التي كان لديه الكثير منها واستطاع أن يوفر بعضها للأركاديين
 Arcadians ، وإذا اعتمدنا على رواية « هومر » وأخذناها كدليل تاريخي ، نجد
 يقول في (تسلم الصولجان) إن « أجاممنون » (كان رب جزر كثيرة وبلاد اليونان
 بأسرها) . إلا أنه لولا هذا الأسطول ما كان في مقدوره ، حتى ولو كانت لديه
 سلطة مطلقة على البر ، أن يسيطر على أي جزيرة فيما عدا تلك الجزر التي مجاور
 سواحلها ، والتي لم تكن كثيرة العدد . وما نعرفه عن حملة طروادة يصاح أن يقوم
 دليلاً على طبيعة تلك الحملات التي سبقتها .

إن صغر حجم موكناي وعدم الأهمية الراهنة لهذه البلدة أو تلك ، ليست دليلاً
 كافياً على تكذيب أقوال الشعراء والأقوال المتوارثة الخاصة بحجم الأسطول الحربي .
 ولنفرض ، على سبيل المثال ، أن مدينة (إسبرطة) Sparta أصبحت مهجورة
 ليس فيها شيء سوى الباني العامة وأساس المنازل ، فإني أعتقد أن الفترة الطويلة
 التي تعقب ذلك من شأنها أن توحى بالشك لدرجة كبيرة في مدى تطابق السلطة
 الراهنة للإسبرطيين وما كان لهم من شهرة تاريخية . لقد سيطر الإسبرطيون
 بالفعل على خمس جزر ييلوبونيزيا وكانت لهم الولاية على الجزر الباقية ، كما كان لهم
 مثل هذا النفوذ على حلفاء كثيرين خلف حدود إسبرطة ، ومع ذلك فإن المدينة

(١) كان أريوس مهيأً فلا ، وقد استمال لك جانبه الجماهير في موكناي والدول الأخرى
 التي تدخل في حيلة يورثيوس ، (المؤلف) .

تبث انطباعاً بالذونية، لأنها لم تسكن مدينة مركزية^(١)، ولم تكن تزينها مبان عامة نفحة، دينية كانت أم دنيوية، اللهم إلا مجموعة من مجتمعات القرى ذات النظام الهليني البدائي. ومن جهة أخرى، فإن أثينا لو تعرضت للمصير ذاته، فإن بقايا المدينة المادية من شأنها أن توحى بأن قوة الأثينيين كانت ضعف ما هي عليه في الحقيقة. وعلى هذا فن الخطأ أن نشك، أو أن نحكم على الدول من مظهرها الخارجى أكثر من الحكم عليها من قوتها الباطنة، ومن الأسلم أن نفترض أن الحملة الطروادية قد فافت ماسبقها من حملات وإن لم تبلغ حدود الحملات الحديثة— هذا على افتراض أن دليل هومر يمكن أن يؤخذ موضع ثقة. لأن هومر من المفروض، أن يبالغ باعتباره شاعراً، ومع هذه المبالغة فإن انطباع الذونية مازال باقياً، حتى في حدود الأرقام التي يقدمها، وهي أنه كانت هناك ١٢٠٠ سفينة، لها ١٢٠ بحاراً في حامية (بويوتيا) و٥٠ بحاراً في حامية « فيلوكتيس » Philoctetes؛ وأميل إلى اعتبار هذه الأرقام الحد الأعلى والحد الأدنى لعدد السفن — وعلى أية حال فإنه لا يذكّر عدد السفن وهو يستعرض الأسطول في مواضع أخرى. وبين بعد ذلك في ممرض وصفه لسفن « فيلوكتيس » أنه لم يكن ثمة فرق بين البعارة والمحارين، إذ أنه اعتبر من يقوم بالتجديف رامياً للسهام. وليس من المحتمل أن يكونوا قد نقلوا ركاباً كثيرين فيها عدا الملك والضباط العظام — ولا سيما عندما كان عليهم أن يبحروا هم أنفسهم ومعهم عتاد الحرب عبر البحر المكشوف، وكان هذا يتم على سفن دون سطح مكشوف ومبنيّة على أسلوب القراصنة البدائي. وإذا ما أخذنا المتوسط بين أكبر رقم للسفن وأصغر رقم، فإن الرقم الناتج لجملة القوات سوف لا يبدو كبيراً، مع العلم بأنه يمثل الحملة المشتركة من مجموع أجزاء هيلاس.

ولم يكن سبب هذا هو الضعف في القوى البشرية بقدر ما كان الضعف في القوى المالية. وقد أدت صعوبات أجهزة التمويل إلى جعل عددهم بالقدر الذي يكفي

(١) وذلك عن طريق توحيد عددهم من القرى المبحرة في مركز حضارى واحد، وهذه الصلية كانت بمثابة النشأة التاريخية لعاصمة الدولة الهلينية. (المحقق).

لغزو البلد ، وحتى عندما فرضوا سيادتهم في الميادين بعد أن رسوا على البر ، وذلك ما كان يجب أن يفعلوه ، وإلا فإنه لم يكن في مقدورهم تحصين معسكرهم) يبدو أنهم لم يستخدموا قواتهم بأسرها في العمليات ، إلا أن هذه الصعوبات التكنولوجية قد اضطرتهم إلى أن يمودوا لممارسة الزراعة (في شبه الجزيرة ^(١)) وأن يمودوا إلى القرصنة . وقد ساعد هذا التشيت في قوتهم الطرواديين ، الذين كانوا ندأ لقوة الهلينيون الحربية في أية لحظة ، على أن يصمدوا أمامهم طيلة عشرين سنوات بينما لوجلب الهلينيون الإمدادات معهم وأبقوا على قواتهم في حالة عمل مستمر ، دون أن يشتتوها في القرصنة والزراعة ، يضاف إلى ذلك تفوقهم في الميدان ، لكان من اليسير عليهم أن يستولوا على طروادة . غير أن الذي حدث ، هو أنهم أبقوا على قواتهم مع وضع قسم منها في الجبهة طالما كان هذا كافياً . وعلى ضوء الظروف الحديثة ، كان يتعين عليهم أن يقيموا حصاراً منقطعاً ويستولوا على طروادة في فترة ومتاعب أقل . وأبما كان الأمر ، فإن نقص القوى المالية لم يكن نقطة ضعف الفترات السابقة فحسب بل نقطة ضعف الحرب الطروادية ذاتها ، والتي ثبت أنها أقل في الحقيقة من شهرتها التي حظيت بها أكثر من أي حرب سابقة ، وقياساً إلى الشهرة التي حظيت بها في الشعر . وبقى العالم الهليني ، حتى بعد الحرب الطروادية معرضاً للهجرة وتكرار الاستيطان اللذين حالاً دون التطور المستقر . وقد أدى تأخير عودة قوات الحملة إلى عدم استقرار كبير ، واجتاحت الثورات معظم الولايات ، وأقام اللاجئون ولايات جديدة . وبعد سقوط طروادة بستين عاماً طرد « التساليون » « البيوتيين » الحاليين من (آرث) Arne واحتلوا ما يعرف الآن ببيوتيا ، وإن كان من المألوف أن يطلق عليهم « القدميس » ^(٢) Kadmeis . وبمدها بئانين عاماً ، هنم الدورون بقيادة خلفاء هرقل البيلوبونيزيين . وأخذت (هيلاس) تهدأ ولكن في ألم وبطء شديدين إلى أن أصبحت مستقرة استقراراً تاماً وشرعت في إقامة المستعمرات . وقد استعمر الأثينيون (أيونيا) ومعظم الجزر ،

(١) شبه جزيرة جاليبولي Gallipoli (المحقق) .

(٢) استقر فرع منهم بالفعل هناك وأرسل حامية بيوتيا إلى طروادة (المؤلف) .

واستمر البيلوبونيزيون (إيطاليا) وصقلية وأما كن قالية خارجها . ويدو أن جميع عمليات الاستثمار هذه كانت متأخرة عن الحرب الطروادية .

وما إن أصبح العالم الهليني أكثر قوة وراء عما كان عليه ، حتى قامت^(١) حكومات أرستقراطية مستبدة ، وتزايدت الدخول العامة ، وبنيت هيلاس أساطيلها وانجهدت نحو البحر بعزم أكبر . ويقال إن (الكورنثيين) Corinthians هم أول من استخدم وسائل البحرية الحديثة ، وإن السفن الحربية^(٢) قد تم بناؤها في (كورينثا) Corinth قبل أن يتم بناؤها في هيلاس . ويدو أن الساميين Samians كانوا لديهم أربع سفن بناها لحسابهم صانع السفن الكورينثي « أمينوكليس Ameinocles ، الذي ذهب إلى (ساموس) Samos قبل انتهاء الحرب الأخيرة بحوالي ثلاثة قرون . ووقت أقدم معركة بحرية معروفة بين الكورينثيين والكوركيريين Cörcyraeans حوالي عام ٢٦٠ قبل التاريخ المذكور . وكان موقع كورينثا على البرازخ أكبر الأثر في جمل التجارة بأيدى سكانها منذ أقدم العصور ، لأن اتصالات الهلنيين ببعضهم البعض داخل ييلوبونيزيا وخارجها كانت أصلاً على اليابسة أكثر منها في البحر ، ومن ثم عبر إقليم كورينثا . وقد ملك الكورينثيون سلطان المال ، كما هو ثابت في قصائد الشعراء الأول الذين يثيرون إلى كورينثا بكلمة (الثروة) ، وعندما أصبحت الملاحة أكثر انتشاراً بين الهلنيين ، أصبح للكورينثيين أسطولهم ، وأصبحوا سادة القرصنة ، وأقاموا سوقاً لتتاج البحر تماماً كتجارة البر ، وبسطوا نفوذهم بفضل مواردهم ، ثم قام « الأيونيون » بتطوير أسطولهم في عهد « سيروس الأول » Cyrus ملك فارس Persia وابنه « قبيز » Cambyses . وفي حروبهم مع « سيروس » سيطروا على مياههم لفترة من الوقت . وفي حكم « قبيز » أصبح « بوليكراتيس Polycrates سلطان ساموس صاحب سلطة بحرية فأخضع عدداً من الجزر — بما فيها (رهنيا) Rheneia التي

(١) كانت هناك من قبل ملكيات مستبدة ذات امتيازات ثابتة (لؤلؤة) .

(٢) سفن حربية ذات قوة مجاديف تبلغ ثلاثة أضعاف النوع القديم (الحقق) .

أهداها إلى « أبولو » في (ديلوس) ، وهزم القوكيون القرطاجيين في البحر حينما كانوا يقيمون مستعمراتهم في (مرسيليا) Merseilles . تلك كانت أقوى الأساطيل الموجودة وقت ذاك ، وحتى هذه الأساطيل ، رغم أن تاريخها يمتد إلى عدة أجيال بعد الحرب الطروادية ، فإنها على ما يبدو قد استخدمت سفناً حربية قليلة كانت لا تزال تتكون من خمسين مجدافاً ، وقوارب طويلة مثل أساطيل فترة الحرب الطروادية . وإن هي إلا فترة قصيرة قبيل الحرب الفارسية و وفاة « دارا » Darius .. خليفة « قبيز » حتى بنيت السفن الحربية في عدد لا بأس به على أيدي الحكام السبديين في مقلية وعلى أيدي الكوركيين - وهي آخر الأساطيل الهامة التي وجدت في العالم الهليني قبيل حملة « كسر كسيس » Xerxes . وقد كان لدى « الأيجهنتيين » Aeignetans والآثينيين ، وآخرين سفن قليلة كانت في الغالب من ذات الخمسين مجدافاً ، وفي إحدى فترات التاريخ المتأخرة نسبياً حث « ثيميستوكليس » Themistocles الآثينيين ، وقت أن كانوا في حرب مع « أيجينا » Aegina ، على أن يبنوا السفن التي حاربوا بها فعلاً - وهي سفن ، كانت زيادة على ذلك ما تزال دون ظهر مكشوف ، وكان غزو الشرق على وشك أن يقع .

هذا هو تاريخ الأساطيل الهلينية في أزمنة متقدمة ومتأخرة . وبذات الوقت ، فإن الأمم التي زادت من الاضطرابات أحرزت سلطة لا بأس بها في الدخل المالى والرقمة الخارجية . لقد غزوا الجزر وهزموها خاصة تلك المناطق التي لم يكن أهلها يعتمدون على أنفسهم . ومن جهة أخرى ، لم تحدث أية حرب نتيجة لتركز السلطة على البر ، كذلك الحروب التي حدثت بين سكان الحدود . ولم يقم بمسد الهلينيون بحملات عسكرية بعيدة لنزود دائم ، لأن أكبر الولايات لم تكن قد أخضعت بقية الولايات ، بينما لم تقم الوحدات المستقلة بحملات مشتركة على قدم المساواة . ولم يكن هناك سوى حروب عملية بين الجماعات المتجاورة . أما الحرب المبكرة بين (خالكس) Chalcis و (إرتريا) Eretria ، فقد كانت أول بادرة مهدت للانقسام المام في العالم الإغريق إلى معسكرين ، واسطلم تطور الدول المختلفة بمدئذ بعقبات متباينة . وأحرز الأيونيون تقدماً

ملحوظاً عندما هاجمهم «سروس» والملكية الفارسية ، بعد هزيمة «كرويسوس» Croesus والبلدان الواقعة غرب نهر (هاليس) ^(١) Halys وانتصوا من مساحة دولهم على اليابسة . وبعد ذلك أقام «دارا» من نفسه سيداً على الجزر ، بمساعدة الأسطول الفينيقي . وقد أسهم الطغاة المختلفون الذين نشأوا في الدول الهلينية ، وكانت نظرتهم الأنانية محصورة في تأمين راحتهم الشخصية وروات عائلاتهم ، في السلام بقدر ما استطاعوا في سياستهم الخارجية . ولهذا لم تحدث أية عواقب هامة ، خلاف ما كان يقع باستمرار بين الجماعات في قطاعهم المحلي . وقد نشأت أقوى الدول على أيدي جباية صقلية . وهكذا كان العالم الهليني خاضعاً لفترة طويلة للضغط من كل اتجاه ، مما حال دون أي عمل مشترك واضح ، وألقى بالدول المنزلة في سلبية مهينة .

وأيما كان الأمر ، فقد أطاح الإسبرطيون ^(٢) بنابلية عتاة أثينا وبقية مدن هيلاس (حيث كانت الحكومات المطلقة سائدة لفترة من الزمن) — وعلى وجه الدقة أطاحوا بآخر هؤلاء الحكام ماعدا حكام صقلية — ولم تمض سنوات طويلة بعد الإطاحة بهم حتى نشبت معركة (ماراثون) Marathon بين الفرس والأثينيين . وبعد عشرة أعوام من ذلك التاريخ سار «دارا» بجيشه العظيم للمرة الثانية نحو هيلاس كي يستولى عليها . وسيطر الإسبرطيون في هذه الأزمات على حلفائهم باعتبارهم أقوى دولة هلينية ، بينما قابل الأثينيون الفزو الفارسي بالتخلي عن مدينتهم والجلء عنها على السفن التي كانوا قد أعدوها في البحر . ولم يتم وضع حد لدارا بالجهد المشترك . وما كاد الهلينيون يتحررون من فارس حتى انقسم حلفاء الأوس إلى مسكرين أحدهما تزعمه إسبرطة والثاني أثينا ، أقوى دولتين ظهرتا في ذلك

(١) كوزيل يرماق Qyzyl Ermaq (المحقق)

(٢) بعد تأسيس إسبرطة على أيدي سكانها الدوريين الحاليين ، تمزقت بفعل الاضطرابات الداخلية لمدة سنوات متقطعة ، ولكنها كانت أيضاً رائدة الإصلاح ولم يتم قبضة طاغية على الإطلاق . وعاش الإسبرطيون لمدة أربعة قرون تحسب منذ نهاية الحرب الأخيرة ، عاشوا في ظل الدستور ضمن الذي منحهم سلطة التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى . (المؤلف) .

الوقت — إحداهما في البر والأخرى في البحر . وبعد أن كان العمل مشتركاً بين الجيوش لفترة وجيزة ، تنازع الإسبرطيون والأثينيون وانطلقوا للقتال ، كل فريق بحلفائه ، وانمازت الدول الإغريقية الأخرى التي تنازعت منذ ذلك الحين ، إلى هذا الفريق أو ذاك . ومنذ الحرب الفارسية حتى الحرب الأخيرة ، تعاقبت المهادنات والحملات بشكل دائم (يتصارع فريق مع الفريق الآخر ، أو يحدث صراع مع المنشقين بين صفوف حلفاء كل فريق) ، مما أدى إلى إتقان تسليحهم وتحسين تكتيكهم الحربى بالتدرب على القتال المباشر . ولم يفرض الإسبرطيون على حلفائهم الذين قدموا لهم مساعدات عسكرية أن يسهموا بالمال بل ألزموا أمامهم بتأمين حكمهم لصالح إسبرطة حسب لائحة محددة . وسيطر الأثينيون تدريجياً على أساطيل الولايات الكونتقدالية فيما عدا (خيوس) Chios و (ليسبوس) Lesbos ، وفرضوا ضريبة سنوية محددة عليهم جميعاً ، مما أدى إلى أن تصبح الأسلحة المحلية التي كانت في حوزتهم في بداية الحرب الأخيرة ، تفوق أقوى أسلحة كانت في أيدي الاتحاد عند بدايته .

هذه هي نتائج أبحاثى عن الماضى — وإن كان من العسير في هذا المجال أن نتمتع كل دليل بصورته التي يرد بها إلينا . وإننا نقبل الروايات التاريخية ، بما فيها تلك التي تتعلق بالأحداث المحلية ، بنفس الاقتدار إلى النقد الذي لا يتغير من عقل إلى آخر . وتصور غالبية الشعب في أثينا أن « هيبارخوس » Hipparchus كان طاغية حينما اغتاله « هارموديوس » Harmodius و « أرستوجيتون » Aristogeiton ، ولم تتأكد من أن « هيباس » Hippias خلف والده « بيزيستراتوس » Peisistratus بمقتضى حق الوراثة ، وأن « هيبارخوس » و « تسالوس » Thessalus مجرد إخوة له . وسبب هذا ، أنه يوم محاولة الاغتيال خشي « هارموديوس » و « أرستوجيتون » في آخر لحظة ، أن تكون الخطة ، قد تسربت بواسطة زملائهم في المؤامرة إلى « هيباس » ، فلم ينفذوا قتل « هيباس » على زعم أنه قد اكتشف الخطة . وبينما هما يتوقمان إلقاء القبض عليهما بين لحظة قررا ألا يضحيا بنفسيهما سدى ، فاغتالا « هيبارخوس » أثناء انشغاله بممل

الترتيبات لوكب (الباناثيناي)* في حرم (اليوكريوم) Leocureum . وقد تنطس ذكريات الماضي بغضى الزمن ، إلا أن أنظمة كثيرة كانت قائمة قد أساء فهمها العالم الهليني بأسره . فثلاً كان يشيع الفن ، بأن لكل ملك من ملوك إسبرطة صوتان انتخابيان بدلاً من صوت واحد ، وأنه كان هناك ما يسمى (كتيبة بيتان) Pitane Battalion — وهى وحدة لم توجد قط . وقد عانت أغلبية الشعب بعض الآلام في البحث عن الحقيقة وهى على استعداد لقبول الرواية الأولى التى تفرض نفسها . ومازال من المضمون استخلاص النتائج التى استخلصتها أنا من الدليل الذى سرده بعكس ترهات الشعراء المبالغ فيها أو المسلية أكثر من المؤلفات الدقيقة التى يقوم بها علماء السلالات . ولا توجد فى الحقيقة ، أية وسائل تؤكد موضوعاً له مثل هذا القدم ويمكن بواسطتها شق الطريق بين الروايات النامضة . وربما يكفى هذا القدر فى مثل هذا المجال مادامت هناك سمات بارزة . أما الحرب الأخيرة فهى مسألة مختلفة . وإننى أدرك أن الناس خلال الحروب يمتقنون دائماً أنهم غارقون فى أعظم حرب عرفها التاريخ ، ثم لا يلبثون أن يعودوا بتفنون بالمجد الغابر بعد إقرار السلام ، ولو أن حقائق الحرب الأخيرة تنطق بذاتها وتبين أنها قد فقت سابقتها .

وفى يتعلق بالأحداث المختلفة التى ألفت قبل الاعتداءات أو بعدها ، فقد وجدت أنه من المسير المحافظة على دقة الرواية الشفاهية فى الحالات التى كنت أنا فيها الراوى ، أما الأشخاص الآخرون الذين أخذت عنهم تقاريرى فقد نقلوها بدورهم عن غيرهم ممن عاشوا التجربة ذاتها . وكان منهجى هو أن أعيد صياغة ما يصلنى باللغة التى تبدولى أنها الأرجح والأكثر ملائمة لكل مقام . بينما أحافظ بإخلاص وبقدر المستطاع على المعنى العام للحديث الذى ألقى فضلاً . أما فيما

* كان هناك فى بادى الأمر احتفال دينى يقام لإجلال الالهة (أثينا) حامية مدينة أثينا . ولما أصبحت البلاد كلها تحت حكومة واحدة صار الاحتفال بإلهة مدينة أثينا عيداً للدولة بأسرها وتغير الاسم القديم (أثينى) . لى (باناثينى) . ويلاحظ أن المقطع الأول (Pan) معناه كل أو جميع (المترجم العربى) .

يختص بوقائع الحرب المادية ، فإنني لم أكن راضياً عن اتباع المخبرين الرسميين أو تصوري الخاص . وفي المواضيع التي لم أكن فيها شاهداً عياناً بنفسى ، تحريت بأكبر دقة بالغة ممكنة كافة التفاصيل التي وصلتني عن طريق ناقل الروايات ، وكان ذلك عملاً مضمناً لأن شهود الأحداث الخاصة ذاتها قد قدموا روايات اختلفت باختلاف مشاعرهم الذاتية أو أولياء نعمتهم . وقد يجد الجمهور في روايتي جفافاً لا يستسيغونه ، إلا أنني سأكون راضياً ، إذا ما قوبل على بالرضا من جانب القراء الذين يضعون نصب أعينهم دقة المعلومات في الوقائع التي لم تحدث بحسب ، بل التي يمكن أن تحدث مرة أخرى في أى احتمال بشرى . لقد حاولت دائماً أن أسهم في المعرفة أكثر من أن أقوم بعمل من أعمال البطولة .

لقد كانت الحرب الفارسية أعظم حرب قبل الحرب الأخيرة ، وقد وقعت فور الاشتباك في البحر والبر مرتين . إلا أن الحرب الأخيرة استغرقت فترة طويلة ورزأت هيلاس بكوارث ليس لها مثيل في أية فترة تاريخية سابقة . ولم يحدث أن سقطت مدن أو دمرت بهذه الكيفية من قبل على أيدي غير الهيلينيين والمحاربين الهيلينيين أنفسهم^(١) ، ولم يحدث أن طرد الناس من بيوتهم أو ذبحوا بهذه الصورة سواء في الحرب ذاتها أو في الاضطرابات الأهلية . وفضلاً عن ذلك فإن أحداثاً مروعة وقعت على نطاق واسع وكان لها سوابق مماثلة وإن كانت قليلة . كالهزات الأرضية التي حدثت بدرجة من المدى والعنف لا مثيل لها ، وتكرار حالات كسوف الشمس التي لم يحدث لها مثيل . وهناك أيضاً أحداث القمع المحلية القاسية والهجمات التكررة ، وأحد هذه الكوارث القظيمة الطاعون ، الذي أدى إلى نقص عدد السكان . كل ذلك وكان الحرب كانت بمثابة إشارة البدء لهجوم سائر قوى الطبيعة تلك .

وكان نشوب الحرب يعنى تقصص السلام الذي دام ثلاثين عاماً والتي عقدته الأثينيون والبلوونيزيون بعد قهر (يوبويا) ^(٢) Euboea . وسوف أدلى برواية

(١) هناك حالات حدث فيها تفرق السكان عقب سقوط المدن (المؤلف)

(٢) وقعت من جانب الأثينيين في عام ٤٤٦ ق م (المحقق) :

أولية عن النزاعات التي أدت إلى تقص السلام ، حتى لا يفوت القارى ما يجب عليه إدراكه عن كيفية انزلاق الهلنيين إلى مثل هذا الصراع الروح . وفي رأي ، أن ما دفعهم إلى امتشاق الحسام ، هو هذا الخوف الذى بثه الأثينيون فى قلوب الإسبرطيين نتيجة لحشودهم العسكرية ، وهو السبب الذى اعتبره صورة رئيسية فى الروايات الرسمية .

تاريخ الحرب البيلوبونيسية (الجزء الثانى)

(نص أكسفورد ، تحقيق ستيفارت جونز Stuart-Jones الكتاب الخامس . الفصول ٢٥ - ٢٦) .

بعد أن انتهت مفاوضات المعاهدة والتحالف بين (إسبرطة) و (أثينا) ؛ والتي انتهت بمقتضاها حرب السنوات العشر^(١) ، أتى الموقعون أنفسهم فى سلام^(٢) . ولكن (كورينثا) ودولاً أخرى من البيلوبونيس بدأت فى تقويض دعائم الاستقرار ، على نحو جعل إسبرطة تفرق فى مشاكل جديدة مع حلفائها . وأصبح الإسبرطيون بعضى الزمن ، يرباؤون بدورهم فى الأثينيين ، لأنهم أخفقوا فى تنفيذ نصوص معينة من شروط الاتفاقية . حقيقة أنهم أحجموا طيلة الست سنوات والنصف الأولى ، عن غزو أى إقليم من الأقاليم الأخرى ، إلا أنهم لم يفوتوا فرصة لإزالة الضرر أحدهما بالآخر فى ميادين أخرى . وظلت الهدنة مزعزعة ، حتى جاءت ظروف دفعت بهم فى النهاية إلى تكبير صفو السلام الذى عقد بعد السنوات العشر الأولى وتحول إلى عداة مكشوف .

(١) ٤٣١ - ٤٢١ ق م (المحقق) .

(٢) فى بليستولاس Pleistolas وهو عام مجلس الحكم فى إسبرطة و (الكايوس) فى أثينا .

وقد كتب ثوكوديدس الأثيني ، تاريخ الطور الثاني من الحرب — في تماق زمى بين الشتاء والصيف ، إلى يوم أن أطاح الإسبرطيون وحلفاؤهم بالإمبراطورية الأثينية ، ثم احتلوا (الجدران الطويلة) Long Walls ، (ويرايس)^(١) Peiraeus . وتبلغ فترة استمرار الحرب حتى هذا التاريخ سبباً وعشرين سنة بما فيها فترة الهدنة التى يعتبر إسقاطها من الحساب خطأ . وإذا كان هناك قارى لا يوافقنى فى هذا رأى ، فاعليه إلا أن يفحص هذه الفترة فى ضوء الحقائق حتى يتأكد من أن كلمة (السلام) لم تنطبق على فترة الهدنة . لأن كلا الفريقين لم يستمد أو يسترد كافة الأماكن المنصوص عليها فى الاتفاقية ، ناهيك عن انتهاك السلم من جانب الفريقين فى الحروب المانتينية Mantanean والأبيدورية Epidaurian وفى مناسبات أخرى ؛ ولم يكف حلفاء أثينا على ساحل تراقيا عن المدوان ؛ وعقد البيوتيون فقط هدنة على فترات متقطعة تبلغ كل فترة عشرة أيام فى كل مرة . وإذا أدخلنا الحرب الأولى (التى دامت عشر سنوات) ، والهدنة المزعومة التى أعقبها والحرب الثانية التى أنهت تلك الهدنة ، فإن مجموع السنوات ، إذا ما حسبت بالفصول ، تبلغ أقل من الرقم الذى ذكرته بأيام قليلة ، ومن الصدف فإن هذه الحادثة إنما تؤيد من يعتقد فى الرجم بالنيب . إننى أذكر تماماً تكرار القول دائماً فى دوائر عريضة ، منذ بداية الحرب إلى نهايتها ، بأن الحرب مقدر لها أن يطول أمدتها إلى تسع سنين مضروبة فى ثلاث . ولقد عشت خلالها جميعاً ، ولم أكن فى سن من يدرك فحسب ، بل كنت أنجشم مشقة الوقوف على معلومات دقيقة . وقدر لى أن أنق من بلدى لعشرين سنة بعد قيادى فى (أمفيبوليس) Amphipolis ، وفى هذا الموقف تمكنت من أن أرى شيئاً لدى كلا الجانبين — البيلوبونيزى والأثينى — وأن أعد دراسة حول الحرب فى وقت فراغى . ويتعين على الآن أن أسرد المنازعات التى أعقبت خاتمة حرب السنوات المشر الأولى ، وتقص المهادنة ، وسير الحرب الثانية التى تلت ذلك .

(١) مات المؤلف ، لسوء الحظ ، قبل إتمام مشروعه (المحقق) .

بولوبيوس الميجالى

Polybius of Megalopolis

(٢٠١ - ١٢٠ ق.م)

تاريخ العالم

(نص توينر Feubner تحقيق و . بتر وبست W. Buttner—Wobst)
الكتاب الأول الفصول ١ - ٤) .

إذا ما كان المؤرخون السابقون قد أغفلوا تقرير فهم الخاص بهم ، فلقد كان من واجبي أن أنوه بإشارة عابرة عن الود الذى قوئ به هذا الفرع من الأدب . لأن معرفة الأحداث الماضية هى بمثابة المقوم الحقيق للطبيعة البشرية . وأما كان الأمر ، فإن هذا الواجب لا ينبغى أن يتم بشكل شاذ أو دون اكتراث . فهو من الناحية الفعلية الإشارة التى بدأ بها كافة المؤرخين تقريباً وأنسوا أعمالهم ، حينما أطروا دروس التاريخ على اعتبار أنها أسلم تربية وتدريب للحياة السياسية ، وبدراسة تغير أحوال الآخرين باعتبارها أكثر المدارس فعالية ، أو أنها فى الحقيقة المدرسة الوحيدة التى تكتسب فيها الروح الحققة لتحمل تقلبات الحظ . وعلى هذا ، فمن الجلى ، أنه لا يلتبس العذر لأى مؤرخ يكرر ما يكون قد تردد أو قيل من قبل بشكل بارع ، وأقل هؤلاء طراً هو كاتب هذه السطور . فإن الأحداث التى اختارها مادة له هى بذاتها شاذة بما يكفى أن تثير وتوقظ انتباه أى قارى صغرى أو كبرى . وأى عقل هذا الذى مهما بلغت قواه أو عدم اكتراته لا يستشعر تطلعا إلى تعلم تلك العملية التى كان من جرائها أن سقط العالم كله تقريباً تحت سطوة روما دون منازع خلال فترة أقل من ٥٣ عاماً ، أو لا يتطلع إلى أن يتم بالتنظيم السياسى الذى يعزى إليه هذا الانتصار — وهى ظاهرة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الجنس البشرى ؟ وأى عقل هذا الذى مهما خلبته مشاهد أو دراسات أخرى ، كان أمامه أن يجد مجالاً للمعرفة أكثر فائدة من هذا المجال ؟

إن الطبيعة غير المادية والأهمية الفائقة للمشكلة التي يعنى بها عملنا هذا ، ربما اتضح أكثر إذا عقدنا مقارنة نقدية بين سيادة روما وأكثر الإمبراطوريات شهرة في التاريخ القديم والتي استحوذت على انتباه المؤرخين حتى الآن . وأسدى هذه الحالات هي : الفرس الذين امتد سلطانهم مدة من الزمن على إمبراطورية شاسعة ، ولكنهم منذ أن غامروا خلف حدود آسيا ، بدأوا يفقدون ، لا إمبراطوريتهم بحسب ، بل وجودهم أيضاً . والإسبرطيون الذين تولوا مركزاً قيادياً في هيلاس بعد نزاع طويل الأمد ، وظلوا في وضع لا نزاع فيه لشهرة أعوام فقط ، والقدونيون Macedonians الذين أقاموا حكمهم في أوروبا من الأدرياتيك Adriatic إلى الدانوب Danube (وهو قسم ليس بنى أهمية من تلك القارة كما يبدو لنا الآن) ، وضمو بعد ذلك رقعة آسيا بعد أن أطاحوا بالإمبراطورية الفارسية . كانت كل هذه إمبراطوريات شهيرة ومتسمة بقوة في زمانها ، إلا أنها تركت بالفعل الجزء الأكبر من المعمورة خارج حدودها . ولم تسع أبداً إلى أن تنافس سيادة مقلية وسردينيا أو شمال أفريقيا ، وتجهل كذلك وجود معظم الشعوب التي تنزع إلى الحرب في أوروبا وهي شعوب الغرب . ومن جهة أخرى فإن الرومان لم يخضعوا جزءاً من العالم بحسب ، ولكنهم أخضعوا العالم المعمور فعلاً ، وأقاموا دولة ذات شهرة لم تحظ بها الدول الماصرة لها ، ولم يتيسر حتى للدول التي جاءت بعدها أن تطمع في التفوق عليها . ومن أهدافنا هنا أن نلقى ضوءاً على هذه الظاهرة^(١) وأن نبين الفوائد العديدة الهامة التي تقدمها إلى الدارسين الجادين لهذا الفرع العملي من التاريخ .

إن نقطة بداية هذا العمل من الناحية التقويمية هي الأولمبياد^(٢) Olympiad المائة والأربعون. وفيما يلي الماملات الأولى المسجلة : في هيلاس . هناك ما يطلقون عليه الحرب الفيدالية ، التي بدأت بحلف عدائي ضد «الأيتوليين» Aetolians

(١) النص اليوناني لهذه الجملة متا كل (المحقق) .

(٢) استعمل بوليبيوس كلمة فنية خاصة للإشارة إلى مؤلفه .

(٣) كان الأولمبياد يقصد دورياً كل أربعة أعوام ، يقاس بتكرار الألعاب الأولمبية ، وبدأ الأولمبياد المائة والأربعون في الصيف الأخير من عام ٢٢٠ ق . م (المحقق) .

بين «الأخيين» Achaeans و«فيليب» Philip، ابن «ديمتريوس» Demetrius ووالده «برسيوس» Perseus، وفي آسيا، حرب جوف سوريا Hollow Syria بين «أنتيوخس» Antiochus و«بطليموس فيلو باتور» Ptolemy Philopator في إيطاليا وشمال أفريقيا، هناك الحرب بين الرومانين القرطاجيين، والتي تعرف عادة بالحرب الهانيبالية. وهذه الماملات تلحق بآخر جزء مسجل في مؤلف «أراتوس السيكوني» ^(١) Aratus of Sicyon. وفي الفترات السابقة وردت عمليات العالم المأهول في أبواب مستقلة، ووردت فيها الشروعات التي سعى للقيام بها، والنتائج التي أحرزوها والمراكر التي تشتمل عليها، ووردت في شكل غير مترابط. إلا أنه منذ ذلك التاريخ فصاعداً والتاريخ يكتسب خاصية عضوية فإن العمليات الخاصة بإيطاليا وشمال أفريقيا، أصبحت تندرج ضمن عمليات هيلاس وآسيا، وأصبحت كافة التيارات تتجه إلى هدف واحد. وهذا أزم الكاتب بأن يبدأ عمله في التاريخ المذكور آنفاً. فالكاتب ينظر إلى هزيمة القرطاجيين على أيدي الرومان في الحرب الهانيبالية على أنها الخطوة الحاسمة في معنى الرومان للسيطرة على العالم. وما إن تمت هذه الخطوة حتى تجاسروا ليمدوا أيديهم إلى بقية العالم ويخولوا لأنفسهم حق التدخل العسكري في هيلاس وآسيا.

وإذا ما كانت مجموعتا الدول اللتان تتنازعا سيادة العالم في هذه الحرب مادة لمعرفة شائسة، فربما يكون من نافلة القول أن تزج بقسم تمهيدى نشرح فيه السياسة والموارد التي أوحث اليهم أن يباشروا مشروعات ضخمة كهذه. وإعما كان الأمر فإن الموارد السابقة وتدابير الدول الرومانية والقرطاجية كانت بالفعل غير مألوفة لدى أغلبية الشعب الهليني بحيث يبدو من الضروري أن تقدم لهذا التاريخ بمجلدين تمهيديين ^(٢) وهذا من شأنه أن يضمن ألا يجد أى قارئ نفسه في بداية روايتي

(١) هو الباسى البليق البارز في عصره ٢٧١ — ٢١٣ ق. م (المحقق)

(٢) إن المجلد، وهو في أصله وممنه الحرف عبارة عن لغة من ورق البردى أو الجلد، كان وحدة أسفر بكثير من المجلد الثرى الحديث المطبوع (المحقق).

الرئيسية دون إجابة على سؤاله : أية سياسة كانت في أذهان الرومان ، وأية موارد عسكرية واقتصادية كانت في متناول أيديهم ، عندما شرعوا في هذا المشروعات التي أدت إلى أن أصبحوا سادة البحر الأبيض المتوسط بأسره وساحله أيضاً ؟ وسيوضح هذان المجلدان أن الوسائل التي كانت تحت أيدي الرومان قد استخدمت لخلق الدولة المالية والإمبراطورية المالية بالصورة التي حققوها ، وذلك بشكل يدعو للإعجاب .

ويعتبر الاتفاق الذي ساق كافة تدابير العالم في اتجاه واحد وجهها نحو هدف واحد ، هو الخاصية الشاذة للعصر الراهن ، وتعتبر القسمة الخاصة للعمل الراهن نتيجة لهذا الاتفاق . وتفرض وحدة الأحداث على المؤرخ وحدة مماثلة من التأليف عندما يصور لقرائه عملية قوانين الحظ على مدى واسع ، وكان هذا هو الباعث الرئيسي للنبيه لي في العمل الذي أخذته على عاتق . وإلا لكان من شأن هذا المجال أن يثبت جاذبية أقل لطموحى . والذي حدث هو أن الحروب المحلية وبعض التدابير المرتبطة بها قد تناولها عدد من المؤرخين ، بينما لا يوجد مؤرخ واحد ، على ما أعلم ، حاول أن يفحص ، من وجهة النظر العامة ، العلاقات الداخلية لتتابع الأحداث وأسولها ونتائجها . وقد جعلني يقينى هذا أشعر بالضرورة المطلقة لعدم إغفال أكثر إجراءات الحظ جدارة بالإعجاب والتي لها دلالة تثقيفية أو المرور دون تعليق واحد عليها . إن الحظ وهو ذلك الثورى الجبار ، الذى جعل من حياة البشر قطع شطرنج في يديه ، لم يتجز من قبل عملاً بطولياً مثيراً للدهشة كهذا العمل الذى قام به لصالح جيلنا . إلا أن الموضوعات التى دمجها المؤرخون المتخصصون لا تقدم أى إشارة للصورة الكاملة ، وإذا ظن أى قارئ أن معاينة البلدان الرئيسية ، كل بمحزل عن الآخر ، أو بالأحرى ، أن تأمل توارىخها المحلية كل على حدة ، من شأنه أن يقدم له صورة سريمة للعالم في ترتيبه ووضعه العام ، فإننى أرى من واجبى أن أسارع بفضح منالطته هذه ، لأننى أعتقد أن الإصرار على القسول بأن البداية بالتاريخ المحلى تقدم نظرة مترنة عن الظاهرة بأسرها ، أمر خاطئ . كخطأ الظن بأن تأمل عضو من أعضاء الجسم ، يبادل الملاحظة المباشرة للكائن كله بشكل ما في

الحياة من طاقة وجمال . وإننى لأتصور أن أى إنسان يتمسك بمثل هذا الوضع عليه أن يقبل توأجسامه خطئه الضحك ، فى تصوره أن ساحراً ما بوسمه أن يكشف له سر الكائن ، بضربة واحدة ، فى مثل كمال شكله الأسيل وفيض حيويته . حقيقة أن الجزء قد بنيء ويقدملمسة عن الكل ، إلا أنه ليس من الممكن أن يقدم معرفة دقيقة ومؤكدة عنه ، يستدل من هذا أن الإخصائيين قد أسهموا بالزور اليسير نحو فهم حقيقى لتاريخ العالم . فإن دراسة الاتصالات العامة والعلاقات والعائلات العامة والأختلافات العامة هى الطريق الوحيد لفهم عام ، وبغيرها لا يمكن استخلاص فائدة أو متعة من البحث التاريخى .

تاريخ العالم

مقدمة المجلد التاسع

(نص توبنر تحقيق بتر وبست الكتاب التاسع ، فصول ١ - ٢)

إننى ادرك أن هناك شيئاً ما لا يستساغ فى عملى ، على اعتبار أنه يوافق طبقة خاصة من القراء ، وأنه معرض للنقد بسبب رتابة أسلوبه . إن سائر الكتاب الآخرين تقريباً ، أو غالبيتهم على أى تقدير ، يقدمون جميع فروع الكتابة التاريخية على اختلافها ، ولهذا فهم يجتذبون جمهوراً عريضاً يتصفح مؤلفاتهم . فمن يحب القصة يجذبها الجانب الخاص بالأنساب ، والمقول التوافقة للاستطلاع والتمحيص تجذبها أبحاث أصول الدول ، وقيام المستعمرات وموضوعات الأجناس البشرية كتلك التى نجدها عند « إيفورس » Ephorus ، فى حين تميل المقول ذات الاتجاه السياسى إلى ذلك الجانب الذى يعنى بأعمال الناس والدول والحكام . أما أنا فقد هياتت نفسى بوجه خاص إلى هذا الجانب الأخير ، وأنا إذ أجمع على كله حول هذا المركز الذى طاب لى ، أكون ، كما قلت ، قد جعلته يناسب طبقة

خاصة من القراء ، وذلك على حساب جملة مادة غير جذابة بالنسبة للغالبية . أما الأسباب التي حدثت بي إلى نبذ الفروع الأخرى والتزم الجانب العملي ، فقد شرحتها بتفصيل وافٍ في مكان آخر . ويبدو أنه ليس هناك ما يحول دون إيجازها مرة أخرى حتى تؤكد الاتجاه وأفيد قرأني .

وحقيقة الأمر ، أن قصة علم الأجناس والأصول والأساطير والسلالات والاستعمار قد تعددت روايتها من جانب كتاب كثيرين لدرجة أن أى مؤرخ يتناول القصة اليوم ، لا يجد مندوحة من أن يختار بين إعادة قول الغير على أنه قوله ، وهذا مسلك غير أمين بالمرّة ، أو أن ينزع إلى تقرير حقيقة قائمة لاسبيل إلى إخفاؤها ، فيعترف صراحة بأن الموضوع الذي يبني عليه أفكاره وبراعته الأدبية إنما قد تناوله من سبقوه بصورة وافيه . ولهذا السبب ولغيره من أسباب تخلّلت عن هذه الفروع من جهة واحتضنت الفروع الخاصة بالإجراءات العملية - فأولاً ، لأن المادة الحديثة تراكم دائماً وتتطلب تسجيلاً حديثاً (لأنه يستحيل منطقياً أن يخبرنا كتاب الماضي بمعاملات الفترات التأخرة) ، وثانياً ، لأنه فرع تثقيفي أكثر من غيره . لقد كان هذا الأمر صحيحاً على الدوام ، إلا أنه لم يكن صحيحاً كما هو صحيح اليوم . إذ أن تقدم المعرفة والتسكين قد بلغ حداً أمكن معه تناول أى ظاهرة يكشف عنها تطور الأحداث تناولاً علمياً وبأيدٍ خيرة . ومن ثم لم أستهدف إمتاع القارئ العادى بقدر ما استهدفت تثقيف الدارس الجاد . وعلى هذا فقد آليت على نفسي أن أتمثل هذا الفرع وأن أهمل الفروع الأخرى . وسوف أجد أقوى دليل على إنصاف رأيي عند الدارس الواعي .

ديودورس الأجرىوى

Diodorus of Agyrium.

(٩٠ - ٢٠ ق. م)

مكتبة التاريخ العالمى

(نص توينر، تحقيق ف. فوجل F. Vogel الكتاب الأول الفصول ١ - ٥)

يستحق كتاب التاريخ العالمى شكر زملائهم ، واعتراهم بالفضل للروح التى يقدمون بها أعمالهم من أجل خير البشر . لقد اكتشفوا سر تقديم الثمار من التجربة دون عناء ، ولهذا لديهم معرفة ذات قيمة لا تقدر يقدمونها إلى قراء مؤلفاتهم . وإن الشاق والمخاطر لهى ضريبة الحكمة التجريبية التى تجلبها الحياة اليومية ، وإننا لنجد أن البطل الأسطورى الذى تمتبر خبراته ثمينة جداً ، عليه أن يتكبد الشاق المضنية من أجل ...

أن يرى مأوى أناس كثيرين

وأن يقرأ ما يجيش فى صدورهم

بينما نجد التاريخ قادراً على أن يقدم معلوماته دون آلام بتقديمه فكرة عن فشل الآخرين ونجاحهم . ونحن مدينون كذلك لهؤلاء المؤلفين لما بذلوا من جهد لتألف سائر الجنس البشرى ، الذى ينخرط أعضاؤه جميعاً فى نظام واحد عظيم ، رغم حواجز المكان والزمان . وهم فى مسام هذا ، لم يمتروا أنفسهم أكثر من خدام للعناية الإلهية . وقد ربط الله برعايته سير نجوم السماء وطبائع الناس فى نظام واحد ، وحفظها فى حركة دائمة إلى الأبد . وأعطى لكل واحد حظه المقسوم هذا ، بينما يقوم مؤرخو العالم بتسجيل الماملات العامة للعالم كما لو كان مجتمعاً قائماً بفرده ، ويفضلون تدابير العناية الإلهية خلال القيام بعملية التخصيص العظيم لتنظيم الداخل .

وإياه لمن نعم الله علينا أن يعطينا الفرصة لتطور أنفسنا بتحاى أخطاء الآخرين ،
 وفي كافة فرص هذه الحياة الزائلة ونشيراتنا ، فإن المرء حر في أن يكرر نجاح
 الماضي بدلاً من أن يكون مجبراً على تجربة مؤلة في الحاضر . وفي أمور الحياة
 العادية ، تعتبر أحكام الجيل الأكبر مقبولة دائماً من جانب الجيل الأصغر ، وذلك
 للخبرة التي حصل عليها ذلك الجيل على مر الزمن ، إلا أن المعرفة التي يقدمها
 التاريخ تفوق خبرة الأفراد في قيمتها ، وذلك لتفوقها الواضح في الدرجة والقيمة .
 وسوف تكون الفائدة الكبرى من هذه الدراسة موضع رضا عام بالنسبة لكل
 موقف معقول في الحياة . ويفيد الصغار من هذه الدراسة عن طريق فهم الكبار ،
 وتضاعف بفضلها تجربة الكبار إلى مائة ضعف ، وبفضلها يتحول عامة الناس إلى
 قادة ، والذين ولدوا ليتولوا مراكز قيادية يثيرم خلود الشهرة التي تقدمها لهم
 هذه الدراسة فيقومون بمشروعات نبيلة ، وينهر الجنود أيضاً بالجدد المرتقب مما يدفع
 بهم إلى المفاخرة بحياتهم في سبيل بلادهم . أما الآثمون فيقف في وجوههم
 الخزي الأبدى الذي يتوعددهم به التاريخ جزاء دوافعهم الشريرة . وعلى العموم ، فإن
 فضائل التاريخ لقيت محداً كبيراً ، حتى إن الأمل قد دفع بالبعض ليقوموا بتأسيس
 الدول ، والبعض الآخر كي يقدم قوانين تسهم في أمن البشر ، وبالبعض الثالث
 كي يقوموا باكتشافات علمية وعملية أفاد منها الجنس البشري كله . وترايدت
 درجة السعادة الإنسانية نتيجة لكل هذه الجهود ، فينبني والحال هكذا أن يعود
 المديح كله إلى التاريخ ، فهو السبب الرئيسي في هذا كله . إذ يمكن القول بأن
 التاريخ وصى على الذين يريدون الاحتفاظ بالشهرة ، وهو الشاهد على الذين يفرطون
 فيها ، وهو صاحب الفضل على الإنسانية بأسرها . حتى إن أسطورة الجحيم ، وهي خرافية
 تماماً ، تعتبر أداة فعالة لتحويل قلوب الناس إلى البر وخافة الله . وعلى هذا ، فبأى قدر
 من العظمة ، يجب علينا أن ندرك أننا القوة الفعالة عظيمة القدر بالنسبة للتاريخ ،
 نبى الحقيقة وينبوع الفلسفة ؟ وسر الطبيعة هي أن حياة الأفراد جزء ضئيل جداً
 من الأبدية إذا ما قورنت بالزمن الذي يمجى وهم غير موجودين فيه أما أولئك
 الذين لم ينتجزوا ما يستحق الذكر في حياتهم ، فإن موت الجسد يعقبه انقراض

وجودهم تماماً ، أما أولئك الذين أكسبتهم قدراتهم الجدة ، فإن الثناء الذى يقطر من شفاه التاريخ القدسية ليؤكد ذكرى خلود أعمالهم . والشخص الحكيم هو من يجد فى الشهرة الخالدة بالطبع ترويضاً جزئياً عن المتاعب الزائلة . ومن المعروف تماماً أن « هرقل » Heracles قد كرس وقته كله الذى قضاه فى هذا العالم فى تحمل ثورى المتاعب والأخطار الضنية المستمرة . ومن أجل هذا كان ينبغي أن يخطى بالخلود باعتباره صاحب فضل على الجنس البشرى . كذلك القديسون الذين حازوا شرفاً بطولياً أو إلهياً ، مدينون جميعاً بكل ما حصلوا عليه من مجد إلى الخلود الذى جعل التاريخ يتفرغ لما حققوه . أما سائر الذكريات الأخرى فهى زائلة وعرضة للتلف تحت ظروف كثيرة ، إلا أن التاريخ ، الذى يمتد سلطانه على العالم ، وجد فى الزمن مثلاً كبيراً ، وحارساً فى الوقت ذاته لثرائه الدائم من أجل الأجيال القادمة .

والتاريخ معلم البلاغة ، وموهبة الواهب ، فالبلاغة تجعل الهليني فى مرتبة أعلى من غير الهليني ، والمعلم فوق الجاهل ، وهى السلاح الوحيد الذى يمكن رجلاً بمفرده من أن يتغلب على كثيرين . وعلى العموم ، فإن أية قضية تتوقف على مقدرة الرجل الذى يعرضها . إننا نطلق على الطيبين من الناس أنهم (جديرون بالذكور الطيب) بمعنى أنه الجزاء الذى استحقوه لقاء ما قاموا به . وفى الفروع المدينة التى تنقسم إليها البلاغة ، يقدم الشعر الثمرة أكثر من المنفعة ، والتشريع يتجه للعقوبة أكثر منه للتعليم . كذلك فإن الفروع الأخرى لاتسهم فى السعادة الإنسانية ولا تقدم محصولاً يجمع بين الحنطة والحشائش ، بل ينحون بعضها الحقيقة . وليس فى التاريخ اتساق بين الحقائق وممناها العرفى غيب ، بل هناك وحدة لكل منعمة . انظر إلى ثماره وأنت تدرك أنه يهدف للصواب وينبذ الشر ويحبذ الخير ، وبمباراة موجزة ، يضيف إلى الذين يدبرونه الحكمة الإنسانية .

إن تأمل الإستحسان الذى يقبل به المؤرخون قد أثار فى حساساً مماثلاً للموضوع ، أوله معنى دراسة من سبقونى فى هذا المضمار أقوى المشاعر للاتفاق معهم فى الهدف .

واكد أشعر في الوقت نفسه ، بأن إمكانيات المعرفة الزاخرة والكامنة قد تحققت في أعمالهم . وتتوقف قيمة مثل هذه الأعمال بالنسبة للقارى ، على درجة تمهيد أكبر عدد من الظروف وتباينها ، إلا أن معظم المؤرخين يقتصرون في تسجيلاتهم على حروب متفرقة شنها أناس بعينهم أو دول بعينها ، بينما حاولت قلة منهم تسجيل أعمال الجنس البشرى منذ أقدم المصور حتى عصرهم . ومن هذه القلة أيضاً ، من اقتصروا على الأعمال التي قام بها السالم الهليني . ورفض البعض أساطير الأقدمين على اعتبار أنها مادة سمية . واختطف القدر البعض الآخر قبل أن يتجسجوا في إتمام برنامجهم الذي شرعوا فيه ، لدرجة أنه لا يوجد بين الذين وضعوا لأنفسهم برنامجاً محدداً بدؤوا فيه فعلاً ، كاتب واحد واصل تأريخه إلى ما بعد عصر المقدونيين . وقد اختتم البعض تسجيلاته بأعمال فيليب . وتوقف آخرون عند « الإسكندر Alexander » وآخرون عند خلفاء الإسكندر في الجيل الأول أو الثاني . ورغم أن الأعمال فيما بين التاريخ الأخير وجيلنا ، والتي تركت دون أن يقربها أحد ، عديدة وهامة ، فإن إتساع الموضوع قد منع أى مؤرخ من أن يحاول تناولها في حدود عمل واحد . وترتب على هذا أن تيمر تسجيل الأعمال التاريخية في عدة مؤلفات كتبها مؤرخون متعددون وتناولوا فيها الفترات المتباينة . ولهذا كان من السبيل أن تتحكم في الموضوع كوحدة كاملة أو حتى تتذكره .

وبعد أن انتهيت من فحص مؤلفات مختلف الكتاب الذين سبقت الإشارة إليهم ، قررت أن أكرس جهدى في موضوع تاريخي يجمع بين أكبر منفعة ممكنة مع أقل احتمالات إدخال الملل على القارى . وقد وضع لي أن كل مؤرخ منهم بذل أقصى الجهد في تعقب الأعمال التاريخية المسجلة عن العالم بأسره منذ أقدم المصور ، على أساس تناول الموضوع من ناحية واحدة . وبهذا أتى على عاتقه عبثاً هائلاً ، إلا أن العمل الناجم عن مجهوداته في الوقت نفسه ، كان من شأنه ، أن يؤتى تناوله لجمهور القراء ويتميز مورداً غنياً يستطيع كل واحد أن ينهل منه ما يروى ظمأه دون مشقة . والقراء الذين يحاولون أن يتلصوا طريقتهم وسط تيه الأعمال التاريخية القائمة ، يواجهون في المحل الأول ، صعوبة الحصول على مداخل للكتب اللازمة

ومجدون ، فى المحل الثانى ، أن سيادة الأحداث تنوء منهم فى أشتات المؤلفات المنشورة التشعبة . ومن جهة ثالثة ، فإن تناول الموضوع كوحدة يسهل المهمة على القارئ وذلك بتزويده برواية مستفيضة ، يسهل التحكم فيها . وبمجل القول ، فإن تفوق هذا الفرع من التاريخ على بقية الفروع يقدر مثلما تقدر منفعة السكل الفائقة بالنسبة إلى الجزء ، وبمنفعة الدوام بالنسبة إلى عدم الاستمرار ، فضلاً عن فوائده فى إيجاد تقويم دقيق للروايات التى لا يكاد يظهر منها أكثر أدلة التاريخ غموضاً .

وانطبع فى نفسى أيضاً مدى الفائدة من عمل يحتذى النهج السابق ذكره رغم التضحية بالجهد والوقت اللازمين ، وعلى ذلك فقد كرست ثلاثين عاماً لهذه المهمة ، تعرضت خلالها لتأعب ومخاطر لا بأس بها فى القيام برحلات طويلة فى آسيا وفى أوروبا أيضاً . وقد قررت أن أقف بنفسى على أكثر الأماكن ، على الأقل الهامة منها ، لأن الاقتدار إلى معرفة خصائص الأماكن ضلل دائماً الكتاب الذين هم فوق المستوى العادى ، أو حتى بعض من ذاع صيته منهم . وكان رأسمالى الوحيد لتنفيذ مشروعى هو حماس للعمل — تلك الروح التى مكنت الطبيعة البشرية من فعل المستحيلات الواضحة — بلى ذلك ، مواد دراسة موضوعى التى تتوافر فى روما . إن تفوق روما وسلطانها الذى يمتد إلى أقاصى الأرض ، قد وفر لى خلال الفترة الطويلة التى أقف فيها هناك مصادر لا تحصى وتسهيلات . أما موطنى (أجيريم) فى صقلية ، واتصالى بالمستوطنين الناطقين باللاتينية فى الجزيرة ، فقد جعلنى أجيد اللغة اللاتينية إجادة تامة ، ولهذا استطعت أن أستخلص معلومات دقيقة عن كافة المعاملات الرومانية من السجلات المحلية ، التى كانت محفوظة منذ تاريخ مبكر . واتخذت الأصول الأسطورية للعالمين الهلينى وغير الهلينى ، نقطة بداية لتاريخى ، حسب الروايات المتباعدة التى لم أدخر وسعاً فى الإفادة منها .

والآن وقد تم برنامجى ، قبل أن أعرض نتائج جهودى على الملأ ،

(١) كانت اللغة السائدة فى صقلية حين ذاك (وحين للقرن الحادى عشر بعد المسيح) هى اللغة اليونانية (المحقق) .

ينبغي أن أمهد لها بمجدول صغير يحتوي على العمل كوحدة قائمة بذاتها . فجلداتى
السنة الأولى تحتوى على أعمال وأساطير سابقة على الحرب الطروادية — المجلدات
الثلاثة الأولى غير هليلية ، بينما تزخر غالبية المجلدات الباقية بتاريخ هيلاس القديم .
وسجلت فى المجلدات الأحد عشر الأعمال العامة للعالم منذ الحرب الطروادية حتى
موت الإسكندر ، بينما أتيج لى فى المجلدات الثلاثة والشرين التالية أن أسجل
سائر الأعمال بين ذلك التاريخ وبداية الحرب الكتانية — الرومانية Roman — Celto
التي حطسم فيها « جايوس يوليوس قيصر » Gaius Julius Caesar ،
قائد القوات الرومانية التي أحرزت له شرقاً قدسياً ، مقاومة غالبية الشعب الكتلى
(بما فيها معظم المحاربين) ، وبسط سيادة روما حتى الجزر البريطانية . وقد تمت
العمليات الأولى لهذه الحرب فى السنوات الأولى للأولمبياد المائة والثمانين ، وفق
السنة التي حكم فيها « هيرودس » Herodes فى أثينا .

كانت تلك هى الأبعاد الزمنية لعملى ، إلا أننى لم أسع إلى تقويم عدد لأحداث
ما قبل الحرب الطروادية ، طالما لم تقع فى يدى أية قائمة تحتوى على تواريخ لهذه
الفترة يمكن أن يوثق بها . وفيما بين الحرب الطروادية وعودة « بنى هرقل »
حذوت حذو « أبولودورس » Apollodorus الأثينى فى افتراضه فترة ثمانين عاماً ،
وأن الفترة بين التاريخ الأخير والأولمبياد الأول قد قدرت بثلاثمائة وثمانية وعشرين
عاماً ، قام فيها حكم ملوك إسبرطة Sparta ، فى حين أن الفترة بين الأولمبياد
الأول وآخر تاريخ لعملى ، هو بداية الحرب الكتانية ، تقدر بسبعائة وثلاثين عاماً
ينبنى أن توضع فى الاعتبار . لذلك فإن الأربعين مجلداً التي تشتمل على عملى بأمله
تحتل فترة تقدر بـ ١١٣٨ سنة ، دون أن تدخل فيها الفترة التي حدثت
فيها أحداث سابقة على الحرب الطروادية .

إن الهدف من هذه القائمة الدقيقة للمحتويات لم يقتصر على تقديم مفهوم
نظمتى لحسب ، بل يمنع أيضاً تجار النشر عن ممارسة تشويه مؤلفات الغير . والجزاء
الوحيد الذى أرجوه هو أن تجد الفقرات الناجحة فى مؤلفى قبولاً كريماً وأن تجد

الأخطاء تصويماً من جانب قراء أكثر منى كفاية . فهذا يتم برنامجي ، وما على الآن إلا أن أحاول إنجاز وعدى فأقدم العمل ذاته .

ديونوسيوس الهالكارناسي

Dionysius of Halicarnasuss

(عرف في النصف الأخير من القرن الأول ق . م)

تاريخ روما القديم

(نص توينر ، تحقيق ك . جا كوبي C . Jacoby الكتاب الأول .

الفصول ١ - ٨)

أراني ملزماً ، وهذا لا أرغب فيه كثيراً ، أن أقدم هذه الملاحظات الشخصية الأولية وهي سمة جد شائعة في مقدمات الأعمال التاريخية . وأيما كان الأمر ، فإنني لأنوى أن أسهب في الحديث عن جداتي ، لأنني أدرك تماماً أن الحديث فيها من شأنه أن يبعث السأم لدى قرائى ، كما لأنوى الخوض في النيل من زملائي الكتاب ، على نحو ما فعل « أناكسيمينيس » Anaximenes و « ثيوبومبوس » Theomopus في مقدمات مؤلفاتهما التاريخية . أما الدافع عندى ، فهو ببساطة ، شرح الأسباب التى حدثت بي شخصياً أن أبأشر هذا العمل ، وأن أولى بعض الأهمية لمصادر معلوماتى . وأعتقد أن أى فرد يريد أن يترك للأجيال المقبلة بعض الذكريات تبقى بعد زوال وجوده المادى ، عليه أن يلزم — بالدرجة الأولى ، ولا سيما كاتب المؤلفات التاريخية (ذلك الذى يقدر من اعتقاده المبدأ الأول لكل حكمة وإدراك وهو الحق) — باختيار موضوع جيد ذى طبيعة سامية يفيد القارى حقاً . وبلى ذلك فى الأهمية أن يولى هذا الكاتب أقصى العناية والبذل لتزويد نفسه بالمصادر الصحيحة لمؤلفه الخاص . وهناك بالطبع مؤلفون دفعهم التمتع للشهرة إلى الضلال ، دون نظر إلى طبيعة هذه الشهرة أو المناسبات التى يمرضون فيها قدرتهم

الأدبية في عمل من أعمال البطولة . وهناك من اتخذوا من أحداث شائنة أو سخيّة أساساً لمعلمهم . فمثل هؤلاء الكتاب لا يستحذون على إعجاب الأجيال المقبلة بعارفهم ولا يشتهرون بأعمالهم أو قدراتهم ، بل إنهم يتركون ، في كل عقل يدرس مؤلفاتهم ، انطبعاؤاً مؤداه أن أهدافهم الشخصية في الحياة قد انصكست فيما ينشرون — إذ أن المؤلفات الأدبية ينظر إليها في العادة وبشكل عام على أنها مرآة لشخصية مؤلفها . كذلك الكتاب الذين يختارون موضوعات طريفة إلا أنهم يكشفون فيها عن سواهم وعن اعتمادهم الصريح على الإشاعات ، لا ينالون أى ثقة فيما يختارونه ، لأن هذا الاتجاه يؤذى مشاعرنا ، حينما نرى تاريخ الأمم المعروفة ومشاهير الحكام يبالغ بطريقة ارتجالية . كانت تلك إذن هي المبادئ التي أعتبرها ضرورية لكتاب التاريخ . وقد أوليت اهتماماً كبيراً لكل منها ، ولهذا لم أشأ أن أتركها دون تسجيل ، وما كنت لأجد مكاناً أكثر ملائمة لها من مقدمة مؤلتي هذا .

وأنا على ثقة بأن الأمر لا يتطلب عبارات كثيرة لتوضيح جودة الموضوع الذي اخترته ، وسمو طبيعته أو اتساع نطاق الإفادة منه . هذا إذا ما افترضت سلفاً في قرأتى الإللام بالمبادئ الأولية للتاريخ العام . وما على هؤلاء إلا أن يمددوا بذكريتهم إلى إمبراطوريات الماضي (سواء التي أخذت شكل المدن الرئيسية أو شكل الأمم) والتي لها سجلات تحت أيدينا ، وأن يفحصوها أولاً منفردة ثم مقارنة ، بقصد تحديد أيها حاز سيطرة أوسع وقام بأكثر الأعمال لماعية في السلم والحرب . وسيجدون أن الإمبراطورية الرومانية قد فاقت بشكل لا يمكن قياسه كافة الإمبراطوريات التاريخية التي سبقها ، ليس في اتساع رقعتها وروعة أعمالها بحسب ، (تلك الأعمال التي لم تقدر بمدى قدرها في الأدب) ، وإنما في طول أمدها حتى عصرنا الراهن أيضاً . إن الإمبراطورية الآشورية Assyrian القديمة شبه الأسطورية لم تمتد رقعتها إلى أكثر من جزء في آسيا ، والإمبراطورية الميديّة Median التي أطاحت بالإمبراطورية الآشورية وأظهرت سلطاناً أعظم ، فقد انقضت إلى البقاء وسقطت في الجليل الرابع . والفرس الذين قهروا الميديين

وامتد سلطانهم على سائر آسيا تقريباً ، لامت محاولاتهم فى إلحاق الهزيمة بشعوب أوروبا نجاحاً محدوداً وظل ضعف سلطانهم أكثر من قرنين . كذلك السيطرة المقدونية التى أطاحت بفارس القوية وفاقت رقمتها كافة الإمبراطوريات السابقة ، تمتعت برخاء عابر وبدأت فى الانحلال عقب موت الإسكندر . وتفسخت الإمبراطورية ، فى الجيل الأول لخلفائه ، بين عدد من الحكام المتنافسين ، وظلت قوتها مدة جيلين أو ثلاثة فقط قبل أن تنهار بفعل التدهور الدائى حيث اكتسحتها روما نهائياً . حتى الإمبراطورية المقدونية لم تبسط سيادتها الشاملة على البحر والبر ، ولم تحرز موطئاً لقدم فى شمال أفريقيا بعيداً عن الركن المجاور لمصر ، ولم يتيسر لها أن تخضع سائر أوروبا ، ولم تتقدم شمالى القارة التى تقع فيها إلى أبعد من (تراقيا) شرقاً أو أبعد من الأدرياتيك غرباً .

تلك كانت أقصى حدود السلطان والرخاء التى بلغتها الإمبراطورية السابقة ، والتى يوجد بها قبل أن تسقط سجل تاريخى تحت أيدينا . كما أنه بالنسبة للدول الهلينية ، فإن امتداد إمبراطوريتها وفترة عظمتها كانت ضئيلة جداً إذا ما قورنت بالإمبراطوريات السابق ذكرها دون أى وجه للمقارنة . واقتضرت الإمبراطوريات الأثينية التى ظلت ثمانية وستين عاماً ، على الساحل وعلى مجرد شريط ضيق بين البحر الأسود والبحر البامفلى Pamphylian حتى فى أوج سلطان أثينا البحرى . إن الإسبرطيين ، الذين انتهت إمبراطوريتهم ، قبل أن يتمتموا بها أكثر من ثلاثين عاماً كاملة ، على أيدي أهل طيبة ، نجحوا فقط فى بسط سلطانهم على جزر البيلوبونيز وبقية هيلاس كما فعلت مقدونيا وأصبح أمام روما أن تقيم إمبراطوريتها على كل ما يمكن الوصول إليه من ممتلكات على وجه الأرض حتى حدود العمران البشرى ، وكذلك البحر بأسره — لا البحر المتوسط فحسب ، بل كافة مياه الأطلنطى الصالحة لسير السفن . إن روما وحدها ، دون سائر الدول التى عرفها التاريخ منذ عصوره الأولى ، هى أولى من امتدت حدودها ، من مشرق

الشمس إلى مغيبها ، وحافظت على سلطانها لا لفترة زمنية وجيزة فحسب بل لفترة ليس لها مثيل في أية دولة أو مملكة أخرى . لقد أخذت تؤكد سلطانها عقب تأسيسها مباشرة على جيرانها المحارين المديدين ، ولم يفلت أى منافس من الخضوع لها ، وانمقد لها لواء النصر هذان دون انقطاع لمدة سبعمائة وخمسة وأربعين عاماً ، حتى زمن قنصلية « كلوديوس نيرون » ^(١) Claudius Nero و « بيزوكالبورنيوس » Piso Calpurnius اللذين انتخبا في الأولياد الثالث والتسعين بعد المئة . وما إن ركمت سائر أجزاء إيطاليا تحت أقدام روما ، حتى تطلعت في جراءة إلى سيادة العالم . وحيناً طردت (قرطاجنة) Carthage الدولة البحرية الأولى من البحار ، وقهرت مقدونيا ، التي كانت تعتبر الدولة البرية الأولى من قبل ، بقيت روما دون منافس في العالم الهليني وغير الهليني على السواء . إن إمبراطورية روما العالمية ، التي قامت على هذه الصورة ، بلغت الآن الجليل السابع ، ولا تكاد توجد أمة تتحدى حتى سيطرتها على نفسها ، ناهيك عن سيادتها العالمية . وبقيناً فإننى في حل من إيراد أى إيضاح أكثر يخرج بى عن الموضوع الأصل . لأننى لم أختار موضوعاً نافعاً ولم أقرر أن أرى أعمالاً سخيفة أو نافهة .

وأما كلن الأمر ، فينبى أن أورد عبارات تمهيدية قليلة لأشرح أن تخصصى في (تاريخ روما القديم) كان قراراً سادراً عن ترو وتقل ، اتخذته وأنا في وضع تساندها الحجة المقتمة . وإلا فمتى خطر فى أن أصبح عل إدانة أولئك النقاد الخصوم الذين لا يصرم شىء ، والذين سوف يلومونى لأنى أعرضت عن كافة الموضوعات الشهيرة التى يتضمنها تاريخ روما وانصراى إلى تاريخها القديم غير الواضح . سوف يقولون لى إن مجد روما المعاصر وليد أصول وضيعة غير مجيدة ولا تستحق تناول التاريخى . فشهريتها وعظمتها تعودان إلى إلحاق الهزيمة بالبول القدونى وانتصارها وايد الحروب البونية ^(٢) Punic war ، لمدة أجيال مضت نسبياً . وردى على

(١) كان توليه الحكم للمرة الثانية فى عام ٧ ق . م

(٢) البونية . الحقيقية . . مثل القرطانيات (المفق) .

ذلك هو أن تاريخ روما القديم مازال بالفعل كتاباً متلفاً بالنسبة للجمهور الهليني فإن الأغلبية قد ضللتها الرأى الزائف ، الذى لا يقوم على أساس سوى الإشاعة التى تقول بأن مؤسسى روما كانوا متشردين غير متحضرين وخارجين على القانون ولم يولدوا أحراراً ، وأن سر تقدم روما للتدريج نحو سيادة العالم لم يكن فى استقامتها أو فى خوفها من الله ، أو أى سفة خلقية ، وإنما كان ضربة عشواء ، وعملية حظ آلية لا أخلاقية ، ذلك الحظ الذى أعقد أعظم هبانه على معظم خدامه الذين لا جدوى منهم . وكان الأسلوب الشائع فى دوائر خيثة هو ترديد هذا الادعاء كثيراً جداً وإلقاء اللوم على الحظ لأنه منح امتيازات الهلنيين إلى البرابرة المنحطين . ومن نافلة القول أن نتحدث عن العامة فى الوقت الذى لم يوجد فيه كتاب اجترأوا على وضع هذه القضية فى سجل دائم فى مؤلفاتهم التاريخية . وقد ضحى هؤلاء الكتاب بالحق والشرف فى سبيل إرضاء ملوك غير متحضرين . وصاروا لهم عبيداً محترفين منافقين ، وكرهوا سيادة روما .

ون هدى ، كما قررت ، هو أن أستأصل شأفة هذه الافتراضات الخاطئة من أذهان العامة وأن أغرس الحق مكانها ، وذلك عندما أتعرض لمؤسسى روما وأنظمتها وأعمالها الأولى . وبالتالي سوف أشرح فى المجلد الحالى من م مؤسسوها والتواريخ التى تجمع فيها قبل ذلك كل فريق على حدة ، والظروف التى دفعتهم إلى أن يهجروا مواطني أسلافهم ، وأنا كفى بأن أوضح أنهم لم يكونوا مجرد هلينيين فحسب بل كانوا هلينيين بدرجة لا مثيل لها . فإن أعمالهم فى الفترة التى أعقت تأسيس روما مباشرة ، والأنظمة التى تمكن خلفائهم بفضلها من أن يشيدوا هذه الإمبراطورية القوية ، سوف أسفها فى المجلد الثانى وما يليه ، وسوف أبذل قصارى جهدى فى ألا أغفل شيئاً يستحق الملاحظة التاريخية . وأمل فى أن يكون من نتيجة اكتشاف الحق ذلك التقدير الصحيح لروما فى عقول قرائى ، اللهم إلا إذا كانوا من أعدائها التمسعين الذين لا يمكن الوفاق معهم . ومن البلادة استنكار ما يتبع بشكل كامل القانون الطبيعى الشامل والأبدى فى مطابقته على ما يكون عليه الضعيف محكوماً بشكل ثابت من جانب القوى ، ومن البلادة كذلك أن نلوم

الحظ لأنه بدد هذه الإمبراطورية العظيمة طوال هذه المدفئ حالة غير جدرة بالشرف . وأحد الاكتشافات التي تنتظر قرأى هو أن روما منذ لحظة تأسيسها فصاعداً قد أخصبت عظمة خلقية سواء في الاستقامة وخفاة الله أو في ضبط النفس لمدة طويلة أو في الشجاعة الحربية ، فإن أبناء روما يمكن أن يصمدوا للمقارنة مع أبناء أية دولة أخرى ، هلينية أو غير هلينية . وإن ما أخشاه فقط هو أن الطيبة المتناقضة الشاذة لتلك القضايا التي تكفلت بإثباتها قد تجعل من عملى هذا مثار بغضاء قرأى . وأيما كان الأمر ، فإن الجماعة الجيدة التي أنشأت الإمبراطورية الرومانية ظلت غير معروفة تماماً إلى جمهور الهلنيين ، لأنها لم تجد المؤرخ المناسب . ولم يظهر لأعمالها تاريخ دقيق في اللغة اليونانية ، باستثناء ملخصات موجزة قليلة .

وحسباً أعرف ، فإن الكاتب الأول ، الذى مس تاريخ روما القديم كان « هيرونيموس الكاردى » Hieronymus of Cardia فى مؤلفه عن الجيل الثانى خلفاء الإسكندر . ويليهِ « تيمايوس الصقلى » Timaeus of Sicily الذى تناول الفترة القديمة فى تاريخه العام وأفرد مؤلفاً خاصاً للحرب مع « بيرهوس الأيروسى » Pyrrhus of Epirus وفضلاً عن هذين الكاتبين كان هناك « أنتيجونوس بوليبيوس » Antigonus Polybius ، و « سيلينوس » Silenus وحشد آخر أدلوا بدلائهم فى الأحداث ذاتها بنجاح أقل . وقد تناول كل منهم جزءاً من القصة وبنى تاريخه على الإشاعات بدلاً من توخى الدقة فى بحث جديد . كما أنه ليس هناك ما يمكن إختياره بين هذه المؤلفات ونشرات المؤلفين الرومانيين الذين كتبوا التاريخ القديم بلداً باللغة اليونانية ، وكان أقدمهم « كوينتوس فايوس » Quintus Fabius « لوكيوس كينكيوس » Lucius Cincius وقد عاصر كلاهما الحروب البونية وكان دقيقاً فى وصفه الأحداث بشكل مستقيم ، لأن كلاهما شهد أحداثه . وعلى الرغم من هذا لم يقدم سوى تاريخ مختصر غير دقيق فيما يتعلق بروما القديمة فى الفترة التى تلت تأسيسها . وقد أجبرتني هذه الاعتبارات على ألا أترك فترة تاريخية عظيمة مجهولة دون تسجيل حتى الآن ، ودون رواية دقيقة ، مما سيكون له نتيجة الصادقة العادلة والأمانة والسارة . وستكون الشهرة الخالدة وإعجاب

الأجيال القادمة في المحل الأول ، جزاء الطيبين الصادقين ، ومن حذا حذوهم . وهذا من شأنه أن يفسخ الطبيعة البشرية ويخلد أعمال الناس بعد موتهم . وفي المحل الثاني ستدفع هذه الشهرة الأحياء وخلفاء هؤلاء الأبطال الذين لم يولدوا بعد إلى تفصيل حياة الطموح النبيل على حياة التمة والدعة ، وفي اعتقادهم أن أولئك الذين تلقوا هبة وراثية أولية خصبة ، كان ينبغي عليهم أن يضعوا أنفسهم في مستوى أعلى ، ألا يبدؤا أبداً غير جديرين بالانتساب إلى أسلافهم . إن جزأى الوحيد على انصراف لهذا العمل ، دون التفكير في التلق ، بل التفكير في الحق والعدل (وهى الأهداف الحقيقية لكل تاريخ) ، يظهر أولاً في التماطف مع كافة الذين انتهجوا بشرف لدراسة الأحداث العظيمة الملهمة ، وثانياً ، في إزجاء الشكر إلى روما . وهذا ما فىسمى ، ذا كراً الترية والهبات الأخرى التى أسدتها لى روما أثناء إقامتى كغريب داخل أسوارها .

أما وقد قدمت الآن عرضاً لبرنامجى ، فلا يزال من واجبى أن أتعرض للمصادر التى رجعت إليها عند كتابتى هذا التاريخ . إن القراء الذين يألون فضلاً «هيريونيموس» و «تيايوس» و «بولويوس» أو أى كاتب آخر من الذين أهتمهم آنفاً بالسلطحية ، سوف يلاحظون أن الجزء الأكبر من مادتى غير موجود فى مؤلفات هؤلاء الكتاب . وقد يكون من المعقول أن يتهمونى بالارتجال ، أو أنهم غير راضين عن المصادر التى استقيت منها معلوماتى . ويوسى أن أزيل مثل هذه الشكوك من أذهان قرأى بتقديم بعض الملاحظات الأولية عن الكتب والسجلات التى اتخذتها مرجعاً أساسياً لى . والحق أنى كنت فى إيطاليا وقت أن كانت الحرب الأهلية توشك على نهايتها على يدى « أغسطس قيصر » Augustus Caesar فى منتصف الأولمبياد السابع والثمانين بدالمائة^(١) . ومنذ ذلك التاريخ مر اثنان وعشرون عاماً ولم أغادر روما أبداً . فقد تملت اللغة اللاتينية ، وألمت بالأدب وشغلت قسى بشكل مستمر بالدراسات المتعلقة بموضوعى الراهن . وقد حصلت

عن طريق الرواية الشفاهية على جزء من معلوماتي من أفواه الحكماء الرومان المشهورين الذين اتصلت بهم شخصياً . وطالعت جزءاً من الأعمال التاريخية التي تحظى بأكبر شهرة بين الرومان أنفسهم ، من أمثال « بوركيوس كانو » Porcius Cato و « فاييوس ماكسيموس » Fabius Maximus و « فاليريوس الأنشوي » Valerius of Antium و « ليكينيوس ماكير » Licinius Macer وأبلى Aelii وجيلي Gelli وكالبورني Calpurni وغيرهم من الكتاب الممتازين . وتعتبر هذه الأعمال (التي تمثل التواريخ الهلينية المحلية) من الأسس التي اعتمدت عليها في مؤلتي . ولست في حاجة للحديث عن نفسي أكثر ، وعلى أن أذكر الحدود الزمنية لعملي ، ومحتوياته الرئيسية وخطته العامة .

وأبدأ قصتي بالأساطير الموهقة في القدم والتي أغفلها المؤرخون الذين سبقوني ، لأنها كانت تحتاج في تحقيقها إلى بحث مضم . وأصل روايتي إلى بداية الحرب البونية الأولى ، والتي يرجع تاريخها إلى السنة الثالثة من الأولمبياد الثامن والعشرين بعد المائة ^(١) وقد سردت سائر حروب روما الخارجية التي وقعت في تلك الفترة ، وكذلك الإضطرابات الأهلية التي مرت بها ، مع بيان الأسباب التي أدت إليها وإلى إنهاؤها وسبل ذلك . وأتناول كذلك دساتير روما المتعاقبة سواء قبل سقوط الملكية أو بعدها ، وأصف مجلداتها . وأصف كذلك أكثر أنظمتها إيجاباً وأكبر قوانينها شهرة . وبالاختصار أقدم صورة كاملة عن حياة روما في الأزمنة العابرة . وتختلف الخطة التي أبني عليها مؤلتي عن تلك الخطة التي يسلكها المؤرخ الحربي أو الدستوري الخالص ، ولا يكاد يشبه المرض اللوز الذي يسوقه الإخصائي وينشره عن تاريخ أثينا المحلي ، فهناك رقابة كاملة في سائر هذه النماذج التي سرعان ما تبث الاستياء في نفس القارئ . وحاولت في مؤلتي أن أجمع بين الجوانب الثلاثة للأدب وهي الجوانب الجدلية والعلمية والترويحية ، على أمل أن يرضى ذلك كتاب النشئون الدولية ، الذين يكن اهتمامهم في التأمل الفلسفي ، وأي قارئ يبعث عن

(١) علم ٢٦٥ ق . م (المقق) .

شكل هادئ من اللهو في دراسة التاريخ . ولقد أوضحت الآن موضوع مؤلفي وخطته .

(التوقيع) ديونوسيوس ابن الإسكندر الهاليكارناسي (مؤلف تاريخ روما القديم) .

إنجيل القديس لوقا

[المهد الجديد في الأصل اليوناني . تحقيق ب. ف. وستكوت B. F. Westcott
و ف. ا. هورت F. J. A. Hort (لندن ١٨٩٥ الناشر ماكيلان) الإصحاح
الأول . الآيات ١ - ٤ : مهداة إلى ثاوفيلس]

عزيزي

لقد سعى شهود كثيرون من قبلي الى أن يؤلفوا قصة في الأمور التي تمت في مجتمعنا ، وما إن وصلت اليها الكلمة من الذين كانوا منذ البدء مهابين لها وكرسوا أنفسهم لصيانتها ، رأيت أنا أيضا ، إذ قد تنبت كل شيء حتى أصوله الأولى ، أن أكتب إليك تباعاً لصالحك ، على أمل أن أمدك بكلام صحيح في الرواية التي أحطت علماً بها شفاهة .

فلافيوس يوسيفوس الأورشليمي

Flavius Josephus of Jerusalmé

(٣٧ - ١٠٠ م)

الحرب اليهودية

(نص توينر ، مجموعة الأعمال ، المجلد الخامس ، تحقيق س . ا . نابير S. A. Naber
الكتاب الأول الفصول ١ - ٦)

إن الحرب اليهودية الرومانية هي أعظم حرب في أزمنتنا ، ولا نكون مغالين

إذا ما أضفنا أنها أعظم الحروب التي سجلت بين المدن العالمية أو الأمم على السواء. ومع ذلك فإن المؤلفين الذين لم يشتركوا في الأحداث ذاتها ، كتبوا تاريخها بأسلوب أكاديمي ، إلا أنهم جمعوا ما تواتر من أقوال اعتبارية وتعليقات متباينة عن طريق الإشاعات بينما حاول شهود العيان الأول، بمحض إرادتهم ، أن يثملقوا الرومانيين أو أن يمحرفوا الوقائع بسبب كراهيتهم لليهود . وتحتوى مثل هذه الأعمال على قدح ومدح متبادلين ، دون أثر لأية دقة تاريخية ، مما دفعنى الى أن أقدم لمجهور الإمبراطورية الرومانية ، فى ترجمة إلى اليونانية ، عملاً خاصاً بى ، تم تأليفه أصلاً فى لغتى الوطنية ^(١) ونشر فى الشرق غير الملبى ^(٢) . واسمى « يوسفوس » بن « ماثياس » Mathias . وأنا عبرى بحكم المنشأ من أورشليم ، وكلهن بحكم المهنة حاربت ضد الرومانيين فى مسهل الحرب ، واضطرت إلى أن أشهد مراحلها الأخيرة .

لقد كانت هذه الحرب ، كما أشرت ، انجباراً على أعظم جانب من الأهمية ، وقع الرومان خلالها فريسة الاضطرابات الداخلية ، فى حين أن العنصر الثورى بين اليهود ، الذى كان فى أوج مجده فى رهوس الأموال والقوات على السواء ، حدد وقت تمرده بحيث يفيد من الاضطرابات المنتشرة . وكانت الهزات المتعاقبة عنيفة لدرجة أن مصير الشرق تعلق فى الميزان بين الطرفين المتحاربين ، وكان لدى كل طرف على حدا أمل وخوف من النتيجة النهائية . فاليهود كانوا يأملون فى أن ينضم اليهم فى هبتهم ، مواطنونهم عن بكرة أبيهم فيما وراء نهر الفرات Euphrates ، بينما أقضت مضاجع الرومان هجمات جيرانهم الألمان ^(٣) ، والقتال بين رعاياهم السكتيين Celtic ، والهزات الشاملة التى أعقبت موت « نيرون » ، إذ نتج عن

(١) اللغة الأرامية Aramie (المحقق) .

(٢) المعنى المحرق (فيما بين غير الملبين والداخل) فى سبيل المثال ، أن « الداخل » خلف الحدود الشرقية للإمبراطورية الرومانية ، يتحدد من ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى أواسط الأراضي المحيطة (المحقق) .

(٣) فى اليونانية جلاتيون Galatian (المحقق) .

الوضع السياسي أن تطلع عدد من المتنافسين إلى العرش والسلطة العسكرية ، وألهبهم الأمل في الثروة والجاس للتغيير السياسي . وأحسست بأنه من التناقض أن تظل الحقيقة الخاصة بأحداث ذات أهمية كهذه ، غير معترف بها ، وأنه ينبغي أن أحيط « البارثيين » Barthians و « البابليين » Babylonians وسكان الجزيرة العربية الأول Arabia ، ومواطني ماوراء الفرات وسكان (أديابين)^(١) Adiabene علماً ما وبشكل دقيق ، خلال جهودى أساساً ، بتقلبات الحرب ونتيجتها النهائية فيما لم يكن لدى الهلنيين وسائر الرومان الذين لم يشتركوا في الحملة ، أفضل من الملوك أو الروايات الكاذبة التي تمجيب الحقيقة .

إن في الكتاب الذين أشرت إليهم وقاحة جعلهم ينتحلون (توارخ) لأعماله ليست مربية غصب ، بل وفي رأيي ، خبيثة المقصد تماماً . كان هدفهم أن يرضوا من قدر الرومان والآن قلت منهم فرصة لسحق اليهود وتحقيرهم ، رغم أنني لا أستطيع أن أدرك ، أية عظمة يمكن أن توجد في التقلب على خصم تافه . وأيما كان الأمر ، فإن هؤلاء السادة ، لم ينجحوا سواء من طول أمد الحرب أو كثرة ضحايا الرومان أو قدرات قادة الرومان الفاتحة — وهم في رأيي المتواضع ، قد حرموا مجد اليهود التي بذلوا في حصارهم للشدد على أورشليم بسبب الخط من قدر أعمالهم .

وأيما كان الأمر ، فإنني لا أقصد أبداً ، أن أدخل الحلية ضد أبطال الرومان وأن أفرع طبول مواطني . وسوف أترجم بالموضوعية الكاملة عند التحدث عن أعمال كلا الفريقين ، رغم أنني قد أجعل من تعليق على الأحداث تسييراً عن وجهة نظري الذاتية . وقد أسمع لشاعر عني الشخصية أن تجد ثمة للنواح على مصائب بلدي . إن بلادي قد سقطت كما يسقط البيت الذي ينقسم على نفسه ؛ واشتد ساعد الرومان بسبب طغيان قادة اليهود ، واندلعت النيران في المعبد المقدس بسبب أفعالهم . وقد

(١) المصطلحات الجغرافية الحديثة (الإيرانيون والفراتيون والكان العرب الأول والمتصنعات اليهودية شرق الفرات وسكان وادي الموصل ، على سبيل المثال أم سكان الشرق الأوسط فيما بين الهند من جانب والإمبراطورية الرومانية من جانب آخر ، وكان الآراميون هم صلة الوصل في التجارة والثقافة كما كان الإغريق في حدود الجانب الروماني (الحق) .

أقر بهذا « تيتس قيصر » Titus Caesar ، الذى قام بأعمال التدمير ، كما أنه تروى فى استخدام سلطة الثوريين إزاء السكان المزمل خلال الحصار ، وأجل الهجوم على المدينة مرات كثيرة ، على أمل أن يصل هؤلاء المسئولون إلى حل معقول خلال فترة الحصار الطويلة . إن هجومى الشديد على الطنأة قطاع الطرق ، إنما هو بدافع الألم إزاء المصائب التى أغرقوا فيها بلدى . وإذا ما رغب أى قارئ أن يتخذ من هذا رصيده ضدى ، فبوسمى فقط أن أطلبه بالتخلى عن العرف التاريخى فيعطى فرصة لمشاغرى ، وأن يضع فى ذهنه أن (القدر) قد رفع مدينتنا إلى قمة من الرخاء أعلى من أية مدينة كانت فى حوزة روما ، ثم يلقى بها فى النهاية إلى الحضيض ، إلى أسفل مراتب الكوارث . وإن كافة كوارث الجنس البشرى التى عرفت منذ بداية التاريخ لتتضاءل ، فى رأى ، إذا ما قورنت بالكوارث التى حلت باليهود ، ومسئولية هذه الأكاذيب لا تقع على عاتق أى شخص غريب . وفى مثل هذه الظروف لابد من جهد بشرى هائل يخدم مشاغرى . ولكن إذا قسا أحد قرائى فى حكمه دون أن تتسرب إلى قلبه الرحمة ، فإننى أتوسل إليه أن ينظر إلى الكتاب على أساس الرواية التاريخية للأحداث وليحاسبنى أنا شخصياً على النواح .

وينبى فى الحقيقة أن يلتمس لى المذرفى التهجيم على المؤرخين الهلنيين ولوى لهم على سلوكهم . لأنهم يؤثرون ، إزاء أحداث معاصرة بمثل هذه الأهمية ، تتضاءل أمامها الحروب القديمة ، يؤثرون أن يظلوا نقاداً ، وتقاداً متحفزين ، للكتاب الذين ينامرون باقتحام هذه الساحة (رغم أنهم يتضاءلون إلى جانبهم فى المفهوم بالدرجة التى يتفوقون بها عليهم فى العمل الأدبى) . إنهم يرضون لأنفسهم كتابة تاريخ آشور Assyria وميديا Media وكأنهم استطاعوا أن يدخلوا تحسناً على ما قدمه المؤرخون القدامى ، فى حين أنهم فى الحقيقة أقل من الآخرين فى القدرة الأدبية والفنية . لقد كرس جميع المؤرخين القدامى أنفسهم لكتابة تاريخ عصورهم حين ساعدتهم مشاركتهم الشخصية فى الأحداث على إيضاح عرضهم التاريخى . وكان من المؤكد أن يكشف الجمهور الذى يعرف هذه الأحداث أى تزيفه يقع من

جانبهم . إن تسجيل أحداث لم ترو من قبل ، وإمكان وصول الأجيال القادمة إلى التاريخ المعاصر لهو نشاط جدير بأن تقف أمامه وتقدره . ولا يشتمل البحث التاريخي الأسيل على مجرد إعادة ترتيب المادة الخاصة بالآخرين ، وإنما يشتمل على إقامة بناء راسخ من المعرفة التاريخية التي تثبت شكلاً جديداً للحديث . فأنا الرجل الأجنبي ، لم أدر جهداً أو مالا في سبيل إهداء الهلنيين والرومان مذكرات عن أعمالهم ، بينما يغفر بنو وطني أفواههم ، وتتدلى ألسنتهم حيث تنفق الأموال هناك في (الخان) ويجدون أنفسهم مكىمى الأفواه ومكتوفى الأيدي حيث يكون هناك حق يجب أن يحفظ ومعلومات تجمع بالبحث المضى في كتابة التاريخ . إنهم يتركون هذه المهمة الأدبية إلى الإخوة الذين لا يملون بأعمال الشخصيات البارزة . إن أقل ما يمكن أن تفعله نحن الشرقيين هو أن نولى الحق التاريخي بعض الأهمية ، الذى لا تضمه هيلاس في حسابها حالياً .

تاريخ اليهود القديم — رد على أيون^(٢) Apion

(مهدى إلى إيبافروديتوس Epaphroditus)

(نص توينر ، مجموعة الأعمال ، المجلد السادس تحقيق س . ا . نابز الكتاب الأول الفصول ١ — ٥٩)

عزرى

أدرك أننى قد بينت ، في مؤلفى عن التاريخ القديم ، بشكل كافٍ لأى فرد على درجة متوافرة من حسن النية تؤهله ليصبح من عداد قرائى ، بينت التاريخ الموعل في القدم لجنسنا اليهودى ، وتقاء مجموعته الأصلية والظروف التى استقر فيها في البداية في البلاد التى ما زالت موطننا لنا . وهذه القصة ، التى تمتد إلى فترة

* كان كاتباً قديراً وعلناً يونانياً عرف جداته الشديد لليهود ، وهو أحد التدوين اليونانيين الثلاثة الذين قابلوا كابوس جد فتنة الإسكندرية الشهيرة (المترجم) .

خسة آلاف عام ، أخذتها من كتبنا المقدسة وأعيد كتابتها باللغة اليونانية . في حين أنني ، أجد قسماً لا بأس به من الجمهور يتأثر بشكل كافٍ بالتحريفات المفترضة من جانب أعدائنا الحقيقيين ، وذلك حتى يرتأبوا في روايتي عن تاريخنا القديم ، ويحددوا دليلهم ، على أن جنسنا حديث الأصل ، في أن أكثر المؤرخين الهلنيين شهرة قد جهلوا وجوده . وبناء على هذا أحسست بأنني ملزم بأن أسهم قليلاً في هذه المجادلة ، كي أفضح القصد الخبيث والإفك المبيت من جانب الذين يفرون علينا ، وحتى أصحح جهل محتالهم ، وأبهر السبيل أمام سائر الذين يهتمون أصلاً بمعرفة حقيقة أصولنا . وتدعيماً لآرائي ، سوف أسرد دليل الكتاب الذين ينظر الهلينيون إليهم على أنهم أكبر الثقة في مجال التاريخ القديم بأمره ، وذلك حينما أبين كيف أن الكتاب الذين اقترعوا علينا وحرّفوا أفكارنا ، يمكن إدانتهم من أفعالهم . وسوف أحول شرح الأسباب التي أدت بالهلينيين إلى ذكر عدد قليل نسبياً من جنسنا في مؤلفاتهم التاريخية ، وسوف أبين فيما بعد الحالات التي لم يهمل فيها تاريخنا ، إلى أولئك القراء الذين لا يعرفونها أو هكذا يقولون .

إن الباعث الأول لي هو أن أعبر عن دهشتي إزاء أولئك الذين يعتبرون الهلينيين هم الثقافة الوحيدين الذين يمكن تعلم حقيقة التاريخ القديم منهم ، في حين أنهم يعتبروننا والآخرين جميعاً غير جديرين بالتصديق . والأمر كما أراه أنا ، هو أن هذا قلب كامل للحقائق ، هذا إذا لم يكن علينا أن نسترد بتأملات فارغة وإنما نترك الحقائق تنطق بنفسها . وفي الحقيقة ، سوف نجد أن الحضارة الهلينية بأمرها حديثة جداً إلى درجة يمكن وصفها بأنها نمت بالأمس أو أول أمس . إنني أشير إلى تأسيس الدول الهلينية ، وإلى ابتكاراتها المادية ، وصياغة مواد قانونها أما آخر نشاط عنوا به في هيلاس فهو كتابة التاريخ . ومن ناحية أخرى ، فإن الهلينيين يسلون (وهم لا يمارضونني في هذا) بأن مصر ، وكلدانيا ، وفينيقيا - ولبنيد اليهودية من القائمة الآن - لديها سجلات تاريخية دائمة وموغة في القدم . وكافة هذه الأمم تقطن مناطق مخلو بصفة خاصة من التأثيرات الجوية المخربة ، وقد عانت الأمرين حتى لا تترك أحد أعمالها دون تسجيل ، ويحفظونها على الدوام

لدى خبراء في السجلات العمومية. وعلى عكس ذلك ، فإن النطقة التي تقع فيها هيلاس قد تعرضت لتخريبات طبيعية لا تحصى طمست سجل الماضي؛ وقد كان سكان هيلاس مضطرين الى أن يبدؤوا حياتهم من جديد على الدوام ، وفي كل ظرف من هذه الظروف اعتبروا قترتهم بداية الأشياء كلها ؛ وقد كان اكتسابهم لفن الكتابة عملية متأخرة ومضنية . وحتى أولئك الذين يزعمون بأنهم كان لديهم منذ البداية أكثر التواريخ قدماً ، فإنهم يتباهون بأنهم اكتسبوها من « الكادموس » Cadmus والفينيقيين . وبذات الوقت ، كان من المستحيل أن توجد وثيقة مكتوبة سواء من الوثائق الكهنوتية أو العامة ، والتي حفظت حتى من تلك الفترة ، تأخذ في اعتبارها مقدار التأملات والمناقشة التي ثارت حول ما اذا كان فن الكتابة معروفاً للجيل الذي قام بالحلة على طروادة ، وهي حادثة ذات التاريخ المتأخر كثيراً . إن الرأي القائل بأن مناج كتابتنا الراهن لم يكن معروفاً لهم ، هو أكثر الاحتمالات صواباً ، ومن نؤكد أنه ، لا يوجد في العالم الهليني نموذج للكتابة لا نزاع حوله أكثر قدماً من شعر هومر . ومن الواضح أيضاً ، أن « هومر » متأخر عن الحرب الطروادية ، وقيل أيضاً إنه وإن لم يترك شعراً مكتوباً ، إلا أن الناس تداولوه شفاهة ثم جمع بعد ذلك من أجزاء القصائد المختلفة ، الأمر الذي أدى إلى التناقضات العديدة التي يحتوي عليها شعر هومر . وفيما يتعلق برواد الكتابة الهلينية التاريخية ، وأعني بهم « كادموس الميليئي » Cadmus of Meletus ، و« أكوزيلاوس الأرجوسي » Acusilaus of Argos وخلفاء « أكوزيلاوس » من حفظ لنا التاريخ أسماءهم ، فإنهم كانوا سابقين للغزو الفارسي لهيلاس بفترة وجيزة . وفضلاً عن ذلك ، فإن آباء التأمل الهليني في الفلك والدين ، مثل « فيريكودس السيروسي » Pherecydes of Syros و« فيثاغورس » Pythagoras و« طاليس » Thales قد سلموا جميعاً بأنهم تلمذوا على أيدي المصريين والسكديانيين قبل أن يكتبوا مؤلفاتهم المتواضعة . إلا أن الهلنيين الذين يعتبرون هذه المؤلفات من أقدم سائر المؤلفات ، يتشككون في نسبتها إلى مؤلفيها المشهورين

وعلى ضوء هذا كله ، فمن غير المقبول بكل تأكيد أن يتباهى الهلينيون بأنهم

وعدم خبراء التاريخ القديم وبأنهم وخدم أصحاب الروايات الصحيحة والدقيقة . وإذا فحصنا مؤلفاتهم يتضح تماماً أنها لا تقوم على أية معرفة مؤكدة ، وإنما تقوم على الحدس والتخمين . وعلى أية حال ، فليس لما كتبوه أثر أكثر من كشف أحدهم للآخر . وهم لا يترددون على الإطلاق في إنشاء القضايا المتناقضة حول نقاط مماثلة . ويكون تطفلاً من جانبي أن أحيط من هو أكثر منى علماً بالتناقضات التي نشأت بين « هيلانيكوس » Hellanicus و « أكوزيلاوس » Acusilaus حول مسائل الأنساب ، وحول تصويبات « هسيود » Hesiod التي قام بها « أكوزيلاوس » ، أو الطريقة التي يمرض بها « إفوروس » Ephorus عدم دقة هيلانيكوس في أغلب المسائل ، وعدم دقة « إفودوس » التي أظهرها « تيايوس » Timaeus ، أو أخطاء « تيايوس » التي أظهرها خلفاؤه ، وأخطاء هيرودوت التي أظهرها كل إنسان . فإن « تيايوس » لم يشعر ، حتى بشأن مسائل التاريخ الصقلي المحلي ، بأنه مطالب بأن يروي الحكاية بنفسها كما روتها مدرسة « أنتيوخس » Antiochus و « فيليستوس » Philistus أو « كالياس » Callias . كذلك الأمر فيما يتعلق بكتاب التاريخ الأثيني الذين لم يرسم واحد منهم خطي الآخر في مسائل هذا التاريخ ، ولا خطي المؤرخين الأرجيفيين فيما يتعلق بالتاريخ الأرجيفي . وأيما كان الأمر ، فلسنا في حاجة للحدوث عن التاريخ المحلي والخاص بموضوع محدد ، عندما يختلف أكثر المؤرخين شهرة حول ما يختص بأعمال الحملة الفارسية حتى ثوكوديديس الذي يعتبر من أكثر مؤرخي عصره دقة ، مهمتهم بدم توحى الدقة في مسائل كثيرة من جانب نقاد معينين .

وقد يؤدي البحث إلى كشف عدد من أسباب هذا التناقض البالغ ، إلا أنني أعزو الأثر الأكبر إلى سببين سوف أشرع في ذكرهما . وسوف أبدأ بالسبب الذي اعتبره أكثر السببين أهمية . إن حقيقة عدم عناية الهلنيين منذ البداية بالاحتفاظ بسجلات عمومية للأحداث الجارية ، هي السبب الرئيسي بالتأكد لخلط الذي وقع فيه الكتاب الذين حللوا تبعاً تناول التاريخ القديم . وهو السبب الذي أدى إلى ارتكاب الأخطاء التي وقعوا فيها . إن تسجيل الأحداث لم يهمل في هيلاس

كلها بحسب ، بل في أثينا أيضاً ، تلك المدينة التي اشتهر أهلها بالثقافة والاحتفاء بها حيث لا نجد أى أثر لهذه الظاهرة . وأكثر السجلات العامة قدماً في أثينا ، يقال إنه التشريع الجنائى لـ « دراكون » Dracon ، وهو في تاريخ متقدم قليلاً عن فترة حكم الطاغية « بيزستراتوس » Peisistratus . أما بالنسبة للآركاديين ، فإن زعمهم يقدم تاريخهم تنفيه الحقيقة التي تقضى بأنهم نجحوا بالكاد في السيطرة على زمن الكتابة حتى في تاريخ متأخر عن هذا .

إن عدم وجود أساس معقد من قبل خاص بشكل السجلات العمومية ، التي تكون قد أفادت الذين رغبوا في معرفة الحق ، وفقدت عدم الدقة ، يعتبر هو السبب الرئيسى في التناقض بين كتاب التاريخ الهلينيين . والسبب الثانى هو أن الهلينيين الذين تطلعو للتأليف لم يكن لديهم أى فكرة على الحق ، وعلى الرغم من أن الحزم بعكس ذلك كان على شفاههم دائماً ، إذ أنهم كانوا يهتمون بإظهار قدرتهم الأدبية .

وعلى هذا ، واءموا أنفسهم مع أى منهج يقدم لهم صورة تبرز منافسهم حسناً في هذا الشأن . وقد لجأ بعضهم إلى الرواية ، والبعض إلى تملق الدول والحكام عن قصد . وتخصص آخرون في كيل الاتهامات للأعمال ومن قام بتسجيلها ، على اعتبار أن هذا مجال يمكن أن يلعبوا فيه . وباختصار فإنهم يشاربون على عادة تنافى تماماً مع الروح التاريخية . إن العلامة المميزة للتاريخ الصحيح هي الاتفاق الإجماعى على مسائل بذاتها من جانب كل من الدارسين والكتاب ، بينما اعتبر المؤرخون أن أفضل وسائل إرساء الدقة السامية ، هي أن يقفوا في وصف الأحداث المتأصلة إلى جانب الأقلية المارضة . أما فيما يختص بالشكل الأدبى والرونى ، فيجب علينا نحن الشرقيين أن نسلم بانتصار المؤرخين الهلينيين ، ولكن ليس بسبب صحة تناول التاريخ القديم ولا سيما عندما يتعلق الأمر بتاريخنا المحلى .

وفى ذلك الوقت ، كان تسجيل الأحداث في مصر وبابل موكولاً إلى مسئولية الإخصائين — وهم الكهنة في مصر والكلدانيون في بابل — وقد أفاد

الفينيقيون ، دون سائر الشرقيين الذين احتكوا بالهليينيين ، أكبر فائدة من فن الكتابة من أجل تدبير شئونهم الخاصة ومن أجل تسجيل الأحداث العامة أيضا . وهذه الحقائق مسلم بها تماماً فلا أرى العودة إليها فيما بعد . وسوف أمضي الآن إلى أسلافنا وسأحاول أن أوضح ، على قدر ما يمكنني من إيجاز ، أنهم كانوا متخصصين ، شأنهم شأن جيرانهم (سوف لا أدخل في موضوع ما إذا كانوا حالياً أكثر تخصصاً عما كانوا عليه من ذي قبل) في حفظ السجلات ، حتى إنهم وكلوا هذه المهمة لكبار الكهنة والأنبياء ، وبقيت ممارسة هذه المهمة ، حتى يومنا هذا (ويمكنني القول بأنها سوف تكون كذلك فيما بعد) باللغة الدقة .

وم لا يضعون هذا القسم تحت إشراف صفوة الرجال الذين يلتزمون بخدمة الله ، من البداية فحسب ، بل إنهم يتخذون الإجراءات لصيانة عنصر الكهنة نقياً غير مختلط . ومن يتطلع إلى الكهانة يجب أن يكون مولوداً من أم يهودية . ولا تدخل الثروة والرتبة ضمن الشروط . وعلى طالب الكهانة أن يثبت نسبه من المحفوظات ويأتى بعدد من الشهود . وهذه الممارسة ليست مقصورة على اليهودية . فحيثما يوجد موطن لأمتنا يكون سجل الزواج الدقيق محفوظاً لدى الكهنة ^(١) ، يرسلون صوراً منه إلى أورشليم ، حيث يدون اسم والد الزوجة وأسلافها السابقين ، وكذلك أسماء الشهود . وفي حالة الحرب ، التي تكررت مراراً كثيرة قبل الآن ^(٢) ؛ فإن أعضاء الكهانة ، الذين ما زالوا أحياء ، يعيدون قيود السجلات القديمة ويحصون النساء اللاتي ما زلن أحياء . ولا يعاد قيد النساء اللاتي وقمن في السبي (لهذا السبب) ، وذلك للشكوك التي تنشأ من الاختلاط الدائم ، في مثل هذه الظروف بينهم وبين الذكور من غير اليهود . إن أبرز الدلائل على دقتنا هي أن الكهنة

(١) إنني أشير إلى الكهنة اليهود ومصر وبابل وأى قسم آخر من العالم ينتشر فيه كهنة أمتنا (المؤلف) .

(٢) على سبيل المثال غزوات البلاد على أيدي أتيوخس إيفانيس ، وبومبيوس ماجنوس وكوينتيوس فاروس ، وعلى الأخص أحداث زماننا (المؤلف) .

في مجتمعنا يمكن أن يبنوا تسلسلاً غير متقطع ، لألفين من السنين ، من الأب إلى الابن كادوت بالاسم في السجلات ، بينما أتى فرد لا يتوافر فيه أى شرط من الشروط السابق ذكرها يستبعد من الخدمة في الذبح ولا يقوم بأى دور في العبادة . وليس هذا الأمر طبيعياً فحسب بل لا مناص منه أيضاً ، إذا ما تذكرنا مرة أخرى أن حق القيد في السجلات غير متروك لحرية تصرف أفراد مخصوصين وأنه ليس هناك تناقض بين القيودات ، فإن الامتيازات مقصورة على الأنبياء ، الذين يلعبون بمعظم الماضي البعيد بوحى من الله ، والذين يسجلون الأحداث المعاصرة لهم بإحكام .

وليس في أدبنا أسفار كثيرة تختلف مع بعضها وتتناقض إلى ما لا نهاية . بل لدينا فقط اثنان وعشرون سفرًا تنضم سجل لـ لكل العصور والتي تنق فيها بحق واطمئنان . وخمسة منها هي أعمال موسى ، تحتوي على النواميس وروايات خلق الإنسان حتى وفاة موسى . ومن وفاة موسى حتى حكم « أرتا كسر كسيس » Artaxerxes ، خليفة « كسر كسيس » على عرش فارس ، وهي سجل الأنبياء الذين خلفوا موسى وأحداث أزمنتهم في ثلاثة عشر سفرًا . وتحتوي الأسفار الأربعة الباقية على تسامح الرب . والإرشادات المتعلقة بساوث الحياة الإنسانية . ومن « أرتا كسر كسيس » حتى أزمنتنا يوجد سجل متصل ، إلا أنه لا ينظر إليه بمثل الانتقال الوطيد على الوثائق الأولى ، لأن توالى الأنبياء لم يحفظ بشكل دقيق . وتشرح الوقائع ذاتها بشكل وافي موقفنا تجاه سجلاتنا المحلية . فخلال الفترة الكبيرة التي انقضت منذ تأليفها ، لم يجازف أحد بأن يضيف إليها أو يحذف منها أو يغير ترتيبها . وينظر إليها كل يهودى منذ مولده بشكل غريزى على أنها ناموس الله ، التي يرعاها بإخلاص ويلاقى الموت في سبيلها عن طيب خاطر ، إذا ما تطلب الأمر ذلك . واشتهر أسرى يهود كثيرين قبل الآن ، في مناسبات عديدة ، بأنهم تحملوا التعذيب وصنوف الموت المروعة في المسارح العامة ولم ينبسوا بكلمة واحدة ضد

٩٢

التاموس أو الوسايا التي تتصل به . فهل يتحمل أى هلىنى مثل هذا فى شخصه ؟
 إنه لا يمانى أى متاعب فى سبيل الحفاظ على أعمال الأدب الهلىنى . وينظر الهلىنيون
 إلى مثل هذه الأعمال على أنها عبارات مرتجلة حسب أهواء الكتّاب ؛ وهم معذرون
 بكل تأكيد فى اتخاذ هذا الموقف من أدبهم القديم لأنهم يرون بعض الكتّاب
 الهلىنيين المعاصرين يمازفون برواية تاريخ الأحداث التى لم يشاركوا فيها بأنفسهم .
 ونظراً إلى أنهم لم يبذلوا أى جهد ليتعلموا الحقيقة من أولئك الذين لديهم الوقائع .
 وفيما يتعلق بمرحبنا الحديثة ، فإن الكتّاب التى تندرج تحت قاعة (التواريخ) قد
 نشرها المؤلفون الذين لم يزوروا مسرح الأحداث ، أو لم يقربوه حينها وقت هذه
 الأحداث ، ولكنهم جمعوا بعضاً من الروايات المتنافلة كعذر لهذا الدنس المثل
 الذى شت اسم التاريخ .

إن سجلي الخاص بالحرب فى مجموعها صحيح ، والتفاصيل الصغيرة كذلك
 صحيحة ، لأننى شهدت ، أولاً بأول ، كافة الأحداث . لقد كنت فى قيادة قواتنا
 من سكان الجليل بقدر ما طال أمد المقاومة ، بينما كنت بعد وقوعى فى الأسر سجين
 الرومان واضطرتنى «فبسيان»^(١) و Vespasian و «تيتس» لأن أظل تحت
 المراقبة ، وكنت فى بداية الأمر فى القيود ، ثم أطلق سراحى بعد ذلك ، وأرسلت
 من الإسكندرية ، فى خدمة تيتس ، أثناء حصاره أورشليم . ولم يحدث شئ خلال
 تلك الفترة إلا وكان تحت بصرى . وثابت على تسجيل الأحداث فى المسكر
 الرومانى أولاً بأول ، بينما كنت الشخص الوحيد الذى استطاع أن يفهم تقارير
 الفارين من الجانب اليهودى . وعندما كانت كافة مواردى فى حالة إعداد سليمة ،
 أفدت من فرصة فراغى فى روما وأفدت من المساعدين لى باللغة اليونانية ،
 وهكذا أكتب روايتى . إن إيمانى بصواب ما أعرضه كان شديداً حتى إننى سجلت
 ما قام به «فبسيان» و «تيتس» اللذان كانا قادة الحرب ، كما شهدت فى
 بادئ الأمر . وبمباراة أخرى ، كانا أول شخصين عرضت عليهما أعمالى ، وبعدئذ

(١) فبسيان ، نودى به إمبراطوراً حينما كان يقوم بقمع العصاة اليهود وبعد أن قصد
 لى روما وكل لى ابنه تيتس أمر الحرب ضد اليهود . (المترجم العربى)

بعثت منها نسخاً إلى الرومان الذين اشتركوا في الحملة وإلى كثير من مواطني^١، ومن بين هؤلاء من نال قسطاً من التعليم الهليني ، بما فيهم « يوليوس أرخيلائوس » Julius Archelaus وصاحب القنصلية «هيرودس» Herodes وصاحب الجلالة العظيم الملك «أغريباس»^(١) Agrippa نفسه . وشهد هؤلاء الأشخاص الرومانيون بأنني كنت بطلاً مولياً جانب الحق ، ولم يترددوا بالتاكيد في أن يقفوا عند نقطة ما إذا كان الجهل أو اللقي قد أوقضاني في بلبلة أو إغفال واقعة من الوقائع . وأيما كان الأمر ، فهناك أشخاص بعينهم غير جديرين بالاهتمام حاولوا أن يشككوا في تاريخي وسلوكوا مسلك التلاميذ حينما يمرض عليهم في حلقة الدرس اتهام مشين ومتناقض . والحق أنه لا يجوز لأحد أن يسجل حقيقة لصالح آخرين دون أن يكون قد وقف بنفسه أولاً بدقة على الوقائع ، سواء بتتبع الأحداث أو بالتأكد منها عن طريق الذين يعرفونها . وأيما كان الأمر ، فإنني أعجب نفسي لأنني قد وفيت شخصياً هذه المطالب في كل من مؤلفاتي . فإن تاريخي القديم ، الذي كان كما ذكرت ترجمة من الأسفار المقدسة ، هو عمل كلهن بطبيعته تربي على فلسفة الكتاب المقدس . إن تاريخي عن الحرب هو تاريخ من أسهم في كثير من الأحداث وشاهدها كلها تقريباً ، ويستطيع أن يقول إنه ما من شيء قيل أو وقع إلا وقد لاحظته . وإنني لا أستطيع القول كيف يمكن لهؤلاء الأشخاص الذين حاولوا أن يجادلوا في صياغتي للأحداث ، أن يكونوا بريئين من الوقاحة . فقد يتفرون بأنه كان لديهم صلة بذكرات القادة ، إلا أنهم لم يكونوا بالطبع على صلة كذلك بأحداثنا التي كانت في الجانب المعادي لهم .

وقد بداني أن الانحراف السابق لا يمكن تجنبه إذا ما قدر لي أن أضعف

(١) كان هيرودس الكبير والياً على اليهودية من قبل قيصر عام ٧ ق.م. وفي عام ٤٠ ق.م. عينه مجلس الشيوخ حاكماً على الجليل وملكاً على اليهودية . وأرخيلائوس هو ابنه من امرأة سامرية ، وعند موت أبيه عام ٤ ق.م. ولي حكم أدومية والسامرة واليهودية وبعد وفاته سنة ٧ م. أصبحت اليهودية يحكمها حاكم فرعي حتى جاء هيرودس أغريباس الأول سنة ٣٧ م. وفي عام ٣٩ م. أعطاه جايوس ولاية الجليل وبعد موت جايوس عينه كلوديوس ملكاً على فلسطين .
(المترجم العربي)

تساهل كتاب التاريخ المعترف بهم : وفي تصورى أننى قد أوضحت الآن بما فيه الكفاية أن ممارسة تسجيل أحداث الماضي بملاحظات أولية قليلة موجبة ضد النقاد الذين يحاولون أن يثبتوا حداثة وجودنا جميعاً على أساس أنه ليس هناك أى ذكر لنا (حسب وجهة نظرم) عند المؤرخين الهلنيين . وسأسرد الآن الدليل على قدمنا في آداب الشعوب الأخرى ، وسوف أبين أن الافتراءات التى نشرت ضد حننا لا أساس لها .

آريان النيقوميدي

Arrian of Nicomedia

(٩٠ — ١٧٠ م)

غزو الإسكندر لآسيا

(نص توينر تحقيق ا . ج . روس A. G. ROSS : الكتاب الأول
الفصول ١ — ٣) .

أبنا يقدم « بطليموس بن لاجوس » Ptolemy of Lagos « و » أسطوبولوس بن أرسطوبولوس « رواية متباعدة في مؤلفاتهما عن الإسكندر بن فليب ، فإنى أرسم خطاهما بثقة مطلقة في دقتها . وحينما يختلفان فإنى أرجح الرواية التى تبدو لى أكثر ثقة ، وأكثر أهمية في الوقت نفسه . ! إن لدى كل من مؤرخى الإسكندر روايته التى يسوقها ، وليست هناك شخصية تاريخية تعرض لها عدد كبير من المؤرخين أو اختلفوا حولها أكثر من هذه الشخصية . وأنا شخصياً أعتبر بطليموس وأرسطوبولوس جديرين بالثقة أكثر من غيرهما — لأن أرسطوبولوس كان مصاحباً للملك الإسكندر في الجيش ، وبطليموس نفسه فضلاً عن أنه كان ملكاً فهو يحس بالخزي أكثر من الأناس العاديين إذا ما فشل في ذكر الحقيقة ، وكان الإثنان بالمثل يعمدين عن الحاجة إلى تحريف الوقائع أو الباعث على تحريفها ، لأنها كبا مؤلفاتهما بعد وفاة الإسكندر . ولقد ضمنت على أيضاً معلومات مستمدة من

مؤلفات أخرى ، عندما بدت لي أنها هامة في حد ذاتها وجديرة بالاهتمام ، وذلك تحت عنوان حكايات غير مؤكدة . فإذا ما مال أى قارى إلى النهضة فيما يرغبى في التزوع في هذا العمل في أثر حشد مؤلفين هكذا ، فإننى أتوسل إليه أن يؤجل الحكم حتى يفحص سائر أعمالهم ويلم بنفسه بمؤلفى .

آيان السكندرى

Appian of Alexandria

(٩٠ - ١٦٠ م)

دراسات في التاريخ الرومانى

(نص توينر تحقيق ل . مندلسهون L. Mandelsschon : المجلد الأول المقدمة)
حينما شرعت فى كتابة تاريخ روما ، شعرت أنه من الضروري أن أقدم عرضاً لسائر الأمم تحت الحكم الرومانى .

[ويأتى العرض بعد ذلك]

وبرغم أن الرومان يحكمون الآن كل هذه الأمم القوية ، فقد ظلوا خمسمائة عام كاملة فى نضال شاق حتى يتموا إخضاع إيطاليا وحدها إخضاعاً تاماً . وعاشوا خلال النصف الأول من هذه الفترة فى ظل الملكية ، بينما ظلوا الفترة الباقية — بعد أن طردوا الملوك وأقسموا جادين ألا يدعوا الحكومات الملكية مرة ثانية فى نظام أرستوقراطى تحت رئاسة ضباط ينتخبون سنوياً . وقد شهد القرنان اللذان أعقبا الخمسة قرون الأولى عظمة إمبراطوريتهم . وتقع فى هذه الفترة السلطة التى اكتسبوها والتى لا حدود لها فى الخارج وكذلك هزيمة أغلبية القوميات التى تدخل ضمن رعاياهم . وبمدت فرض « جايوس قيصر » Gaius Caesar (الذى كان قد غطى على أكثر معاصريه سطوة ، وعزز سطوته وأقام ترتيبات فعالة للحفاظ عليها) أقام نفسه كملك أعظم ، بينما اتفق على الأشكال الدستورية

الثالثة . ومنذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا ، استمرت الإمبراطورية الرومانية تحت ظل حكم الأفراد ، الذين لم يتخذوا ألقاب الملوك ^(١) وإنما اتخذوا ألقاب الأباطرة ^(٢) ، وهو لقب كان يرتبط في الأصل بقادتهم العسكريين المؤقتين . وأياً كان الأمر ، فإنهم في الحقيقة يتحلون بكافة سجايا الملكية . وقد تقلده هؤلاء الأباطرة السلطة لما يقرب من قرنين إضافيين حتى الوقت الراهن — وهي قرون وصلت فيها الدولة إلى قمة تنظيمها ، ووصل الدخل العام أعلى رقم له ، وقد كان من شأن فترة السلم الطويلة الدائمة أن رفعت العالم إلى مستوى مضمون من الرخاء . وقد أضيف عدد قليل من الأمم التابعة على أبدى الأباطرة إلى تلك الأمم التي كانت في زمام الرومان بالفعل . وقد أخضعت الأمم الأخرى التي شقت عصا الطاعة ، ولكن مادام الرومان كانوا يستحوذون بالفعل على أحسن أجزاء الكرة الأرضية من يابس وماء ، فقد كانوا حكماء بدرجة تكفل لهم أن يهدفوا إلى الإبقاء على ما في أيديهم دون التوسع في إمبراطوريتهم إلى مالا نهاية له على الأقاليم المدفنة في الفقر وعدد من الأمم غير المتحضرة عديمة الفائدة . ولقد شهدت أنا بنفسى ممثلين لهذه الأمم ينتظرون في روما في بثبات دبلوماسية ويطلبون أن يكونوا من رعاياها ، والإمبراطور يرفض قبول تبعية شعوب ليست بذات قيمة لحكومته . وهناك عديد من الأمم التي يحدد سلوكها الرومان أنفسهم ، ماداموا لا يشعرون بفائدة من ضمها إلى إمبراطوريتهم . وهناك بعض من الأمم التابعة قدمت لروما هبات من خزائنها ، وهي نفورة بالآ ترفض روما هذه الهبات رغم أنها عبء مالى ثقيل . لقد حصنوا حدود إمبراطوريتهم بحلقة من الجيوش القوية وقاموا بحراسة هذه المساحة الواسعة من الأرض والبحر بسهولة كما لو كانت مزرعة متواضعة .

(١) إننى أصور أن هذا لإكرام لقسمهم اصيل (المؤلف) :

(٢) « الأوتوقراطيون » في اليونانية ترادف رسمياً (الأباطرة) في اللاتينية

(المحقق) .

ولم تقم حتى الآن إمبراطورية بمثل هذه العظمة ، دام بقاؤها لمثل هذه الفترة
 فبقاء الإمبراطوريات الهلينية لم يمتد إلى أى عدد كبير من السنين ، حتى لو جمعت
 أرقام فترات السطوة المتعاقبة لآثينا وإسبرطة وطيبة ، فيما بين حملة « دارا »
 Darius ، وهى مناسبة بحق لهم فيها جداً أن يباهوا بأنفسهم ، وإقامة سيادة
 فيليب بن « أمينتاس » Amyntas على هيلاس . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن نصالهم
 لم يكن شافاً لتكوين الإمبراطورية بمطاردة المنافسين المتبادلين ، بينما حدثت أكثر
 أعجادم في الدفاع عن حريتهم ضد عدوان الدول الأجنبية ، وقد واجهت الكوارث
 من أبحر منهم إلى مقلية أملا في السيطرة الخارجية ، وتراجع كل من عبر منهم
 إلى آسيا على الفور ، بعد أن أحرز قليلا في هذا الجانب كما هو الحال في الجانب
 الآخر . وعلى العموم ، فإن إمبريالية الهلنيين ، على الرغم من أنهم ناضلوا دون
 هوة من أجل سيادتهم ، فإنها لم تجد أبداً موطئ قدم ثابتاً فيما وراء حدود
 هيلاس ذاتها . لقد كانوا ناجحين بدرجة مذهشة في تأجيل يوم الهزيمة الأعير
 ويوم الوقوع في الأسر ، ولكن يبدو لي أنهم منذ زمن فيليب بن أمينتاس وزمن
 الإسكندر بن فيليب ، كلهم لهم تاريخ من الفشل لا يتفق وماضيهم .

أما بالنسبة للإمبريالية الآسيوية ، فإن الأعمال والصفات التي ترتبط بها لا تقوى
 على المقارنة مع أقل الأعمال شهرة في أوروبا ، وهذا بالنسبة لضعف الأمم الآسيوية
 وخشيتها . وسوف يتضح هذا كلما عرضت تاريخي ، لأنه لم يكلف الرومان إلا ممالك
 قليلة لهزيمة سائر دول آسيا التي ستظل تحت حكمهم ، وهذا على الرغم من أن
 المقدونيين كانوا يظهرون أسبابهم بمظهر البطولة . إنها حروبهم في أفريقيا وأوروبا
 التي أودت بالرومان . والحال كذلك بالنسبة للأشوريين والميديين والفرس ،
 أعظم إمبراطوريات ثلاث قبل الإسكندر بن فيليب ، فإن مدة استمرارها في مجموعها
 لا تصل إلى فترة القرون التسعة التي تتمتع بها روما حتى الآن ، بينما لا يمتد اتساع
 رقعتهم ، في تصوري ، إلى نصف رقعة الإمبراطورية الرومانية . وأنا أقيم هذا
 الافتراض على حقيقة أن الإمبراطورية الرومانية تمتد من غروب الشمس والمحيط
 الغربي حتى منطقة القوقاز ، ومن نهر الفرات وقلب أثيوبيا ، التي تمتد في المنطقة

عبر مصر والجزيرة العربية إلى محيط الشرق . إن الحدود الرومانية هي المحيط الذي يشرق فيه الكوكب المقدس وينترب ، والرومان هم أسياذ البحر الأبيض المتوسط وسائر الجزر الأوقيانوسية في بريطانيا . ولم يسطر « الميديون » و « الفرس » سلطانهم البحري إلى ما وراء الخليج البامقيل أو إلى جسرز أبعد من قبرص Cyprus وجزيرة أو جزيرتين صغيرتين من أيونيا . أما بالنسبة للخليج الفارسي (الذي سيطروا عليه أيضاً) ، فإهو الامتداد الفعلي لسطح مائه ؟

وإذا ما عدنا إلى دولة المقدونيين — في فترة ما قبل « فيليب » بن « أميناس » أنشأتها ضئيلة تماماً وتمت سيطرة أجنبية بين الحين والحين ، بينما كان عمل فيليب على الرغم من أنه كان يدعو للإعجاب باعتباره مثالا للجهد الشاق ، كان محصوراً في هيلاس والمناطق المتاخمة . وفي زمن الإسكندر ، أنهكت الإمبراطورية المقدونية العالم باتساع رقعتها ، وسرعة عملياتها ونجاح تداويرها ، إلا أنها لم تدم أكثر من ومضة الضوء ، هذا ، على الرغم من أن المجد قد عم الأجزاء طويلا ، حتى بعد أن تحللت إلى عدد من الولايات ^(١) المنفصلة . وقد احتفظ سلاطيننا ^(٢) وحدهم بجيش يتكون من ٢٠٠.٠٠٠ من المشاة و ٤٠.٠٠٠ فارس و ٣٠٠٠ فيل قتال و ٢٠٠٠٠ عربة مسلحة و ٣٠٠.٠٠٠ من المتاد الإحتياطي . وكانت هذه هي قواتهم البرية ، بينما كانت قواتهم البحرية تتكون من ٢٠٠ زورق و ١٥٠٠ مقاتل (مرتين من درجة ونصف إلى خمس رتب) ، مع ضعف هذا الرقم من المعدات اللازمة ، و ٨٠٠ من القوارب الصنيرة التي طليت بمقدّماتها ومؤخراتها بماء الذهب ، وكل الملوك يتفقون بأنفسهم الأسطول على هذه القوارب . وكان لديهم أخيراً رأس مال يقدر بـ ٧٤٠.٠٠٠ وزنة مصرية في خزائهم . وهذه الأرقام هي التي أظهرتها السجلات الملكية

(١) (المحافظ) Satrap في اليونانية هي المقابل الفارسي القديم لكلمة (باشا)
الغانية الحديثة (الحق) .

(٢) مثلا أسرة البطالمة المقدونية التي حكمت مصر وسواحل وجزراً كثيرة والبلدان القريبة على ساحل البحر الأبيض المتوسط فيما بين وفاة الإسكندر وغزو مصر على يد أغسطس (الحق) .

ملك مصر الثانى بعد الإسكندر لما وصلت إليه أسلحته وقواته ، والتي تركها على هذا الأساس الثابت . ولم يزه أى ملك سواء فى المقدره المالىة ، أو فى البذل عن سعة أو فى نطاق أعماله العامة ، إلا أن كثيراً من الولايات الأخرى قد نهاوت بعد ذلك بمدة ليست بالطويلة . وأيما كان الأمر ، فإنها قد تمزقت فى الجليل الثانى ، بفعل الإبادة المتبادلة — وقد أصبح الاضطراب الداخلى هو المرض الوحيد القتال للإمبراطوريات العظيمة .

وقد ساعد الزمن والحكمة الرومان على أن يبرعوا فى بسط إمبراطوريتهم وإنجاحها . لقد بزوا سائر الأمم الأخرى فى الشجاعة والاحتمال والثابرة التى وفروها لتأسيس سيطرتهم . ولم يدعوا أنفسهم يفترون بالنجاح فأقلعوا سياحتهم بشكل كامل ، ولم يتطرق اليأس إلى قلوبهم بفعل الكوارث ، على الرغم من أنه وقت فى بعض الأحيان أحداث أهلكت فى يوم واحد ٢٠٠٠٠ أو ٤٠٠٠٠ أو ٥٠٠٠٠ بالقلل من رجالهم القتالين . ولقد تعرضت العاصمة ذاتها للخطر ، وعانوا هجمات مستمرة من الطاعون ، والاضطرابات الداخلية فى وقت واحد دون أن يحميدوا عن طموحهم ، فشيّدوا إمبراطوريتهم بوضمها الراهن خلال سبعة قرون من المتاعب والأخطار المصنية ، وجنوا فى النهاية هذا الرخاء وهو جزاء أرباب السياسة .

إن هذه القصة ، التى تملأ رقعة أوسع من تاريخ الإمبراطورية المقدونية (أعظم الإمبراطوريات قبل روما) كتبها بالفعل مؤرخون هيلينيون ورومان كثيرون . وعلى أية حال ، فمنذ بدأت دراسها كى أحصل على صورة كاملة لأعمال روما فى حالة كل أمة من الأمم التى اشتملت عليها ، وجدت نفسى دائماً أتقل بمسئولياتى من قرطاجنة إلى أسبانيا ، ومن أسبانيا إلى صقلية أو مقدونيا ، أو إلى البعثات الدبلوماسية أو المحالفات التى اشتملت على الأمم الأخرى ، ومرة أخرى ، أعود إلى حلقة مفرغة ، إلى قرطاجنة أو صقلية ، وذلك حتى زول مرة واحدة فقط من على هذه المسارح قبل أن يسدل الستار . وأخيراً ،

فقد جمعت لمنفعتي الخاصة ، الأجزاء المتفرقة — على سبيل المثال ، جميع الحملات ، والبعثات الدبلوماسية والإجراءات الأخرى من جانب الرومان في صقلية حتى التاريخ الذى أنقلموا فيه النظام الراعى فى الجزيرة ، وكذلك ، سائر حروبهم ومساهدتهم مع قرطاجنة ، وكافة البعثات الدبلوماسية المتبادلة بين الدولتين ، وكافة الضربات المتبادلة التى وجهوها أو تلقوها ، حتى التاريخ الذى صرع فيه الرومان قرطاجنة ، وضموا أمة البربر ، واستعمروا بالتالى القرطاجنيين أنفسهم وأسسوا النظام القائم فى شمالى غرب أفريقيا . [واتبعت الإجراءات ذاته فى حالة كل أمة ، بقصد إثبات أن أعمال الرومان المينة فى هذه الناحية — هى تحمل المثلوب أضعفه ، وشجاعة الغالبين وحسن طالعهم ، وكافة الأزمات والأحداث الطارئة] . اعتقاداً بأن الآخرين قد يفضلون مثلى أن يدرسوا تاريخ روما على هذه الصورة ، وأنا أكتبه الآن أمة أمة ، منفصلاً حذف كافة أعمال أية أمة أخرى تشوش الرواية وأتلقها إلى قسم خاص بتلك الأمة . ورأيت الا ضرورة لتاريخ كل حلثة ، إلا أننى سوف أشير إلى تاريخ الأحداث البارزة فى جل اعتراضية . وفيما يختص بوضع الأسماء ، فإن الرومان يتسمون فى الأصل باسم مفرد لكل فرد ، شأنهم شأن سائر الأمم . ثم زاد عدد الأسماء بعد ذلك إلى اسمين ، ولم يمض وقت طويل حتى كان لهم اسم ثالث ، مشتق من العيب أو الكفاية الشخصية ، بدأ يضاف ككلمة مميزة فى حالات معينة ، تماماً مثلما اعتاد بعض الهلنيين أن يحملوا ألقاباً بالإضافة إلى أسمائهم . وغالباً ما سؤرد الاسم كاملاً ، خاصة فى حالة مشاهير الرجال ، حتى أحدى شخصيتهم ، إلا أنه فى الحالات المادية سوف أشير إلى شخصياتى بالأسماء التى إعتاد الرومان أن يعتمروها أكثر تميزاً ، سواء كانت تلك الشخصيات شهيرة أو غير شهيرة .

وسوف نجد فى المجلدات الثلاثة الأولى حكاية الرومان بأسرها فى إيطاليا ، ويمكن اعتبار هذه المجلدات الثلاثة كلها خاصة بإيطاليا ، على الرغم من أن ضخامة مادة الموضوع قد اضطررتى إلى أن أضغ تقسيماً فيما بينها . فيصف المجلد الأول أعمال الملوك السبعة فى ترتيب زمنى ، وأعطيت له عنوان [دراسات رومانية — كتاب

الملك [ويتناول المجلد التالى ، بقية إيطاليا فيما عدا القسم الساحلى للخليج الأيونى ^(١) وهو يسمى [دراسات رومانية - كتاب إيطاليا] وذلك حتى أميزه عن المجلد الأول . وكانت الأمة الإيطالية آخر ما كان على الرومان أن يتعاملوا معها ، كانت أعظم وأفظع اتحاد للسامنيث Samnites فى الجزء الساحلى للخليج الأيونى ودام الصراع ثمانين عاماً ، حتى نجح الرومان فى إخضاع السامنيين أيضاً ، وكذلك الأمم المجاورة التى كانت متحالفة معهم والمستعمرات الهلينية على طول سواحل إيطاليا الجنوبية . ويتميز هذا المجلد بعنوان [دراسات رومانية - كتاب السكت وصقلية وأسبانيا وهانيبال وقرطاجنة ومقدونيا] ... وهكذا ... فإن ترتيبها ترتيباً تاريخياً يتعلق ببداية كل حرب ، حتى على الرغم من أن النهاية الخاصة لتلك الأمة قد تقع فى تاريخ متأخر عن أمم كثيرة أخرى بدأت قصتها بعدها . إن الاضطرابات الداخلية والحروب الأهلية فى روما نفسها ، والتى عانت منها بفضاعة أكثر من أى مضاعفات خارجية ، تقسم إلى مجلدات حسب قادة كل مرحلة - « ماريوس » Marius و « سوللا » Sulla و « بومبي » Pompeius و « قيصر » Caesar و « أنطونيوس » Antonius والقيصر الأصغر الملقب « أغسطس » Augustus ، ومن بين هؤلاء اشترك الاثنان الأخيران فى حرب أهلية ضد قتلة قيصر الأول وبمدد حارب الواحد منها ضد الآخر . وفى هذه الحرب الأخيرة من سلسلة الحروب ، خضعت مصر تحت سيادة روما وأصبحت روما نفسها ملكية .

هذه هى المجلدات التى قسمتها على أساس الأمم المختلفة ، والقادة الذين جمعت تحت أسمائهم الحرب الأهلية . وسوف يتعرض المجلد الأخير لكل القوى العسكرية التى يحتفظ بها الرومان ، وسائر الدخلى الذى يستخرجونه من كل أمة ، أو زيادة المصروفات الداخلية على التحصينات والمحطات البحرية وإصلاحات أخرى من هذا القبيل . إن المؤلف الذى يتطلع إلى أن يصف عظمة روما عليه أن يبدأ

(١) هذا الجزء من البحر الأبيض المتوسط الذى يحيطه خليج الأدراتييك فى الشمال وشرط ضيق بالمتى الحدود الصقلية فى أقصى الجنوب وبلوونيزيا فى الجنوب (الحقن) .

يوصف أصله هو . إن شخصية كاتب هذه السطور معروفة لقراء كثيرين وقد أوضحها هو بنفسه ، ولكن من أجل التحديد ، عليه أن يذكر أنه « آيان » من الإسكندرية وقد تولى منصباً قيادياً في بلده ، وترافع في عمكة الاستئناف في روما ، وكان يجوز شرف منصب في الخدمة الإمبراطورية . إن أى قارى يتوق إلى أن يعلم تفاصيل أكثر . سوف يجدها في تاريخ حياة المؤلف لنفسه .

ديو كاسيوس كوكيانوس النقاوى

Dio Cassius Cocceianus of Nicaea

(١٥٥ - ٢٣٥ م)

تاريخ روما

(نص تاوخنر Tauchnitz ، نسخة طبق الأصل ، المجلد الخامس ، الكتاب الثانى والسبعون . الفصل ٢٣) .

إن السبب الذى دفعنى إلى كتابة تاريخ الحروب العنيفة والاضطرابات الأهلية التى أعقبت وفاة « كومودوس » Commodus كان كما يلى : كنت قد كتبت من قبل ونشرت كتاباً عن الأحلام والتفاؤل التى ألهمت « سيفروس » Severus أمل الوصول إلى كرسى الحكم . وقد قرأ هذا الكتاب الإمبراطور نفسه في نسخة أهديتها إليه ، وقد كان عطوفاً بما فيه الكفاية فكافأنى بخطاب رقيق طويل . وقد وصلنى هذا الخطاب متأخراً في المساء قبل أن أذهب إلى النوم مباشرة ، وقد كان موضوع تأليف عمل تاريخى يلجأ على نوى بقوة خارقة للطبيعة . وهكذا أخذت في كتابة تاريخ الفترة التى وصلت إليها الآن . ولما كان هذا المقال قد قوبل بشكل مرض للغاية من جانب « سيفيروس » نفسه كما حدث من جانب الجمهور ، عند هذا دفعتنى رغبتي إلى كتابة تاريخ كامل لروما . وعليه قررت ألا أترك المقال الأول كجزء منفصل ، بل أضمنه في هذا الكتاب الأوسع ، كي أتمكن من كتابة القصة كلها من البداية حتى النقطة التى يسمح بها (الحظ) ، وهى بمثابة

وصية للخلف . ولقد آزرني (سيدنا الحظ) في عمل ، مكافأة على الروح الوقورة الحبيبة التي تناولت بها العمل . ففي تعبي وكذبي كان الحظ يواسيني بأحلامه . لقد قدم لي آمالاً مشرقة للمستقبل وأكد لي أنني سوف أعيش حتى أتم على وأنه سوف لا يلوئني بعار . لقد خصص لي ، كما بدا لي ، الملاك الحارس في هذه الحياة ، وأنا بالمثل عايد له . إن مجموعة مواد عمل التي تشمل تاريخ روما بأسره من البداية حتى زوال « سيفيروس » استغرقت مني عشرة أعوام ، واستغرقت كتابة روايتي اثني عشر عاماً زيادة على ذلك . وسوف أكتب ما يجد بالسرعة التي تتطلبها الأحداث .

هيروديان السوري

Herodian The Syrian

(عرف في النصف الأول من القرن الثالث بعد المسيح)

تاريخ الإمبراطورية الرومانية بعد وفاة ماركوس أوريليوس (*)

. Marcus Aurelius

(نص توينر ١ . بيكر J.I Bekker . الكتاب الأول . الفصل الأول) .

إن معظم الكتاب الذين شغلوا أنفسهم بالكتابة التاريخية وعنوا بإحياء ذكرى الأحداث القديمة ، التمسوا شهرة ثقافية خالصة . وخشوا إذا ما فشلوا في أن يعبروا عن أنفسهم ، أن يطويهم التهموض الكبير المتضاعف ، إلا أنهم في رواياتهم التاريخية انتهوا قليلاً إلى الحقيقة وكرسوا انتباههم الرئيسي للمحسنات البدئية ، متأكدين تماماً ، أنهم إذا أخطأوا في مجال الأسطورة ، فسوف يكافأون على سحر أسلوبهم ، وأن سياغتهم للحقيقة سوف لا تخضع لمحيص دقيق . وقد اندفع البعض فأسبغ على الأحداث الطفيفة أو التافهة خطورة مبالغاً فيها بفضل تألق قلمهم الأدبي وذلك بسبب عدائهم أو كراهيتهم للحكام المستبدين ، أو بسبب نظرهم ،

سواء كانوا يدافع الاهتمام أو الأصالة ، إلى الملوك والبلدان أو الأفراد . أما بالنسبة
لهودى فإننى لم أكن مقتنعاً بأن أتناول بعد الآخرين موضوعاً تاريخياً غامضاً
لا يمكن أن يتحكم فيه ، إلا أننى جمعت مواد على بدقة متناهية فى وقت كانت
فيه ذكرى الأحداث التى تسجلها ما تزال حديثة فى عقول أولئك الذين يفنى
عليهم أن يعمقوا فيها النظر . وإننى آمل أيضاً أن أدرس الأحداث الكبيرة التى
تجمعت فى فترة لا طرفة فيها لأجيال المستقبل . إن مقارنة هذه الفترة بكل الزمن
الذى انقضى منذ أن أصبحت الإمبراطورية الرومانية ملكية فى عصر « أغسطس »
سوف تكشف عن أنه تقريباً خلال القرنين اللذين يفصلان تلك الحقبة عن عصر
ماركوس أوريليوس ، لم تكن هناك سلسلة سرية من التغيرات على المرسى مثل
هذه السلسلة . كما أنه لم توجد تقلبات عنيفة فى الحرب الخارجية والأهلية ،
أو انتقارات فى الأمم أو نهب المدن سواء فى عالمنا أو فى بلدان كثيرة غير متحضرة ،
وكذلك لم تشهد مثل هذه الهزات الأرضية أو حالات الجو الوبائية ولا مثل هذا
السلوك الشاذ للعلناء والأباطرة (وهو سلوك لا نجد مثيلاً له إلا قليلاً فى سجلات
الماضى) وقد أبقي بعض هؤلاء الحكام على سلطانهم لمدة طويلة من الزمن ،
وبعضهم إلى مدة أقل ، بينما لا يكاد الآخرون يتمتعون باللقب وشرف البقاء بعض
يوم قبل أن يهلكوا . لأن الإمبراطورية الرومانية قد انقسمت خلال الستين عاماً
إلى عدد أعظم من الحكام أكثر من الزمن اللازم ، مع عواقب غريبة وعنيفة .
وكان من المفروض على مثل أولئك الحكام ، وقد طعنوا فى السن ، أن تمكنهم
خبرتهم من صيانة مصالحهم الخاصة ومصالح رعاياهم ، إلا أن الآخرين الذين كانوا
فى مستقبل العمر كانوا غير طبيعيين فى حياتهم الخاصة ووردين فى إدارتهم . وهذه
الاختلافات فى العمر والمسئولية تبينها بالضرورة اختلافات فى السلوك ، وسوف
أسارع الآن بربط تاريخ هذه الأحداث فى تفصيل ، وسأتناول الحكام المتتابعين
فى الترتيب الزمنى .

يونانيوس السرديسى

Eunapius of Sardis

(٣٥٠ - ٤٠٥ م)

متابعة تاريخ دكسيوس Dexippus الطبعة الثانية^(١)

(نص توير Historici Graeci Minores تحقيق ل. دندورف Dindorf
المجلد الأول ص ٢٠٧)

إن تاريخ « دكسيوس الأثينى » مرتب حسب سنوات الحكم السنيين
لأثينا منذ هبته الأولى ، مع التنويه بمن يماثلهم من القناصل الرومان ، يرغم أن
الرواية ذاتها تبدأ قبل أن يسمع عن أى من القناصل أو الضباط . إن السمة المميزة
لعمل دكسيوس هي أنه يفضل الفترة الباكورة التي تدخل في نطاق الشعر ، فهو
يتركها لأقلام أكثر كفاية من قلبه في تأثيره على نفس القارىء ، بينما يقوم بجمع
أكثر الأدلة جوهريه ، والذي يبرز بمضى الزمن ، ويركزه في شكل من الدقة التاريخية
والنقد الأصيل أكثر قابلية للتأثير . إنه يسوق روايته في قالب زمني يتركزها
في الأولمبياد وسنوات الحكومة الأثينية التي تقع كل أولمبياد فيها . إن المداخل
التي يصدر بها كتابه مفعمة بالجمال ، وهو يظهر خلال عرضه مدخلا رائعاً
بإعادة المحسنات الخرافية والتقديمية (التي يرددها إلى الصيادلة الذين وصفوها في
بداية الأمر ، لأنها من طراز قديم فقد شبيته) . إنه يسمح لهذه المحسنات
الخرافية والتقديمية بالظهور ، عندما يكون بصدد عرض الحقبة المصرية ، وبصدد
التركيز على سنوات الحكم الباكورة في كل بلد ، وبصدد ملاحظة مؤسسى التاريخ

(١) وهي الطبعة التي استجد منها المؤلف لعدة ما الهجات التي شنها ضد المسيحية في
الطبعة الأولى . دكسيوس ، والذي كان يونانيوس امتداداً له ، كان مؤرخاً أثينياً شهيراً وكان
رجلاً متنفذاً في القرن الثالث بعد المسيح (المحقق) .

وأبانه ، فإنه يحاول توضيح - إذالم يؤكدهمياً في عبارات كثيرة أن أسلافه ينتظرونه دائماً في مقدمة عناصر غير تاريخية. وتشبه روايته المحكة الركزة مخزن عطارة عام ، فيه تنسيق بديع ومناسب لبضائع تاريخية مستوردة فوراً بعد عملها على أيدي تشكيلة كبيرة من صناعاتها. ونجد كافة الأحداث ذات الأهمية التاريخية من وجهة النظر العامة أو الأحداث ذات الصلة بحياة أفراد مبرزين معينين ، نجدها معروضة بلا ملل ومنظمة في عمل « دكسيوس » الذي يحتمه بالإمبراطور « كلوديوس الثاني »^(١) Claudius II . ويدخل « دكسيوس » في حسابه عدداً من الأولمبياد مع التفاصيل وموظفي أثنين المختصين ، متخذاً ألف عام كاملة أساساً لشروعه . ويبدو أنه يخيم عليه الخوف من فشله في أن يعد قراءه بعدد كبير كاف من السنين .

أما وقد اتخذت هذا العمل موضع دراسة لي فقد تحسنت من أن أنعم من مثال « دكسيوس » نفسه وأن أقدر قيمة الأخطار الحقيقية التي تشتمل عليها كتابة التاريخ في شكل حوليات ، ولا سيما عندما يعترف المؤلف نفسه لقراءه بأن تقويعه ليس دقيقاً إنما هو موضوع تختلف حوله الآراء ، وعندما يكاد المؤرخ ينهم تقويعه تقريباً ، كما فعل دكسيوس ، بأنه قد أوجد رواية مضطربة مكتظة بالناقضات (بمثابة اجتماع دون رئيس) خلال التزامه بسلوك المهيج التقويعي . ويتردد في أذني دائماً ، المثل البيوتى الذى يقول (إنها ليست موسيقى) ، وقد ذكرت نفسى بأن المهدف المثالى وهدف التاريخ هو تسجيل الأحداث في ضوء الحقيقة مع تقليل عنصر الذاتية ، أما هذه الحسابات التقويعية الصارمة ، التي تندفع كتنجرج لم توجه إليه دعوة ، فلا قيمة لها في هذا الصدد . فإذا يمكن أن يسهم به التاريخ الزمنى في حكمة « سقراط » Socrates أو في عبقرية « ثيمستوكليس » Themistocles ؟ وهل الصيف هو الذى جعل العطاء عظماً ؟ أو هل لوحظ أبداً

(١) ٢٦٨ — ٢٧٠ (المعلق) .

هنا في العام الأول من حكمه والذى بدأ فيه ذلك الحكم وانتهى — كان كلوديوس قد حكم الإمبراطورية لعام واحد فقط ، على الرغم من أن بعض التفات يعتبرون أن حكمه قد امتد عاماً آخر (المؤلف) .

أنهم ينمون أو يظلمون صفاتهم الخلقية طبقاً لفصول السنة كما يفعل الشجر؟ أو هل لنا أن نقرر أن صفاتهم الفطرية والفريزية كانت في كل حالة تمت ممارستها وحفظها في نشاطها بدون توقف أو انقطاع؟ وإذا ما كان الأمر كذلك فأى مغزى في الهدف الحقيقي للتاريخ يمكن أن نجنيه من وراء معرفة أن الهلنيين قد كسبوا معركة عند ظهور كوكب الشعرى؟ أو كيف تتحسن التربة التاريخية عند القارىء عندما يعرف أن فلانا قد ولد في هذا اليوم أو ذاك، هذا الذى أصبح فيما بعد شاعراً أو عازفاً شهيراً؟ وإذا ما كان المقياس النهائي للقيم التاريخية هو القوة في عرض قدر لا حدود له من الأحداث في فترة زمنية قصيرة وفي مقرر سريع للقراءة، أو أن نتوقع حكمة العصر في أيام شبابنا بمعرفة الماضي الذى يتلائم مع معرفة الحاضر والشر؟ عندئذ فأنا مقتنع بأن هدف التاريخ قد أفسد سماء الكتاب الذين يدمرون الغذاء الصحى الذى يقدمه التاريخ لهم في ثوب غريب من القصص الاستطردادية التى لا لزوم لها، والذين يلوثون مياه قصتهم الحلوة بالأسلوب الأسف. وإيما كان الأمر، فقد يكون من نافلة القول الإفراط في الحديث عن معرفة لا لزوم لها، كما لاحظ «دكسيوس» نفسه أن التقاويم غالباً ما تكون متناقضة، بينما لا يوجد اختلاف في الروايات المحلية الموغلة في القدم. وأية شخصية تناول «ليكورجوس الأسبرطى» Lycurgus شهرة في جمهورية الآداب؟ إن كل واحد يألف شهادة السماء التى صار بموجبها «ليكورجوس» كاهناً بشكل واضح بسبب نشاطه التشريعى، إلا أنه ليس هناك كاتب يبحث في هذه الأسطورة يتفق مع أى كاتب آخر فيما يتعلق بالتاريخ الذى سُنَّ فيه التشريع. إنهم يشبهون ملاحظى مبنى أو عمود أو نصب تذكارى هندسى، يتفقون جميعاً حول حقيقة وجوده، إلا أنهم يملأون المجلدات بمناقشات منمقة حول تاريخ بنائه. إن «توكوديدس» وهو نموذج للدقة يسجل فلان الحرب العظيمة والشهيرة التى يؤرخ لها لمس فيها نفسه النكسة، وهى الأصل والمناسبة التى اختلفت حولها الأطراف حول تاريخ الاستيلاء على مدن معينة، فالؤرخ نفسه غير قادر على أن يحسم الموقف بدقة وبالتالي أن يبرز الحجج المختلفة لكل منها. وما إن يصل إلى مشكلة الأيام حتى يكشف

مضطراً بطلان الدراسات والأبحاث التوقعية وعدم جدواها .

وبعد جدل داخلي لا بأس به ، وبعد التأمل في الخطوط البيئية آتاء، وصلت إلى نتيجة (أوصى بها بالتالي كل التحمسين للتقويم) أن الملاحظة الدقيقة للأيام والفصول هي من عمل الذين يعملون في الأرض والمحاسبين وبالطبع الذين يحملون في النجوم والذين ينهمكون صراحة في الدراسات الرياضية أيضاً . وعلى هذا ينبغي أن أحذر قرأني في الوقت المناسب من أنني بينما شرعت في مهمة تسجيل الأحداث الماضية والمعاصرة وأنا أنق تماماً بقدراتي الخاصة ، فإني أستبعد اضطراري إلى تاريخ السنة أو اليوم على اعتبار أنه يناق روح التاريخ ، طالما ينظر إلى حكم الأباطرة ، على أنه وحدات زمنية علمية . وسوف يجذبني قرأني أسجل هذه الحادثة أو تلك التي وقعت إبان حكم هذا أو ذاك ، وأني تركت للآخرين أن يقرؤوا في الهواء الكاذب لتحديد عام أو يوم . وعندما أعبر عن الثقة في قدراتي ، فإني أعني اتباع الثقة الذين كانوا لأمد طويل هم المستبشرين في عصرنا ، والذين بدأوا مثلاً يجتذى لإقادة أحداث عصرنا من النسيان ومن الفترة التي يبعده عن النقطة التي ينتهي عندها تاريخ « دكسيوس » — وهي فترة لم يسبق أن أولاهها مؤرخ مرموق عنايته . وفي التكفل بهذا الأمر ، وهو شائع لدى ولدي من سبقوني ، أخذت حكم الإمبراطور « جوليان » Julian كوضوئى الرئيسي فهو يكتنف حياتي أنا .

لقد كان الجنس البشرى بأسره يبجل هذا الإمبراطور باعتبار أنه له .

(وعند هذا الحد يصبح المخطوط غير صالح . . . المحقق)

متابعة تاريخ ديكسيوس — الجزء الثانى

(نص توينر Historici Graeci Minores ، تحقيق ل. دندورف . المجلد

الأول صفحه ٢١٥) .

في الفصول السابقة ، تم وصف الأحداث التي شغلت الفترة فيما بين النقطة التي انتهى عندها مؤلف ديكسيوس وأزمة جوليان ، تم وصفها بشكل مناسب في تناول موجز بقدر الإمكان . وتتناول قصتي هنا البطل الذي كان

هدفاً منذ البداية ، ويدفعني إلى أن أنفـس في عمله بكل عواطف الود التي أكنها له . هذا في حين أنني لم أره أو أستمتع بميزة الاتصال الشخصي به . فـندما كان جوليان على العرش كان كاتب هذه السطور مجرد طفل . إلا أن عواطف الجنس البشري العامة ووحدة الآراء في الضريبة التي تدفع لذكراه لها تأثير غريب لا يقاوم ويهلب الولاء له . وكيف يتسنى لي أن أصمت إزاء موضوع لا يمكن لأي إنسان آخر أن يلتزم الصمت إزاءه ؟ كيف يحتج المرء عن حكاية تستحسنها حتى شفاء غير المتعلم والجاهل ، ا كـتـنـزت عصر بطلي النـهـي باعتباره موضوعاً حلـالـة لا يفوقها شيء ؟ إن الرجل المادى لا يشعر بأنه ملزم بأن يمرر عن عواطفه الشاملة في شكل أدبي ؛ ولكن في الحالة التي أنا بصدها فإن أكثر الأشخاص شهرة وتميزاً في العالم الأدبي أبوا إعفائي من مهمة أعنى أنا نفسي منها بسرور . لقد أظهروا لي التشجيع وعروض المونة ، ولقد عبر الصديق الحميم للإمبراطور « جوليان » « أوريباسيوس البرجاموسى » Oribasius of Pergamum الذى جمعه تدريبه في العلم الطبيعى مستشاراً طبياً عظيماً ، وما يزال يمارس الطب بشكل عظيم ، بين في لغة سهلة أنه من الجرم من جانبي إذا لم أباشر المهمة . وقد شرع « أوريباسيوس » لإرشادى ، في تأليف مذكرات تفصيلية عن أعمال الإمبراطور ، وكل ما يعرفه بمعلومات كاملة من جانب أول من شاهدها ؛ وعلى ذلك وجدت نفسي لا عندى للتخلص من العمل حتى إذا ما رغبت في ذلك .

ماركوس الشماس

Mercus The Deacon

(٣٧٥ - ٢٤٥ م)

حياة بورفيرىوس : أسقف غزة

(نص تـوـبـيـنـر تحـقـيق أعضـاء مـجـع الـفـيـلـوـلـوجـيـا في بـون : الفـصـول ١ - ٣) .

إن نضال الرجال القديسين واشتياقهم الإلهى وغيرتهم هى بمثابة النظر الذى يثبت عيون المتفرج . إن النظر إلى هذا النضال يوحى بالإعجاب . وبذات الوقت فإننا

قد نحصل على معلومات لا بأس بها من القصة إذا ما أعيدت روايتها ، عندما تلقىها لأرواح القراء عقول تلم بالحقائق إلماً دقيقاً . وعلى الرغم من أن النصال في صورته الأولى أكثر قابلية للتصديق من صورته الثانية ، إلا أن الأخير يحمل في طياته الإقناع إذا ما استمد من مصادر موثوق بها . وإذا ما بقيت سجلات الأحداث الزاخرة بالمعرفة دون عبث ولم يتسرب الزيف إلى الحق لبدت كتابة مؤلفات في هذا الموضوع لا لزوم لها . إن إشاعة الحق بين قلوب كل جيل عن طريق التراث الشفاهي من شأنه أن يكون في هذه الحالة كافياً لأغراض التثقيف . وكذلك ، لما كان الزمن قد أفسد السجلات ، سواء بتقادم العهد على المذكرات ، أو البعث عمداً في الرواية ، فقد اضطررنا هذا إلى أن نتكفل بالؤلف الحالي . وهدفه هو إتقاذ مذكرات رجس قديس مثل القديس « بورفوريوس » من أن يطمسه مرور الزمن . فإن تسجيل ما قام به ليعتبر وقاية حقيقية لأولئك الذين يقرءون له ، ومن الأوضاع المتناقضة أن الكتاب السرحيين والمؤلفين الآخرين يبدلون طاقاتهم الأدبية في الطرف وحكايات السيدات المسنات ، بينما تترك ذكرى القديسين للنسيان ، دون أي جهد لإتقاذها من المصير الأخير الذي ينتظرها . إنني أرتجف عندما أفكر في الجرعة التي أرتكبها إذا ما أنا قُشِلت في إعلاء شأن مصير رجل كهذا — محبوب من الله — في شكل أدبي دائم مصير غيور على المدينة السابوية التي نستمد منها إدراك الحياة .

وسوف لا أنص على حروبه ومنازعاته ضد قادة عبدة الأوثان وأبطالهم فحسب بل ضد سكان بأكلهم يستحوذ عليهم الجنون في كافة أشكاله أيضاً . لقد تذكر القديس كلمات الحوارى المبارك ، التي يقول فيها : « اتكل على الله . حتى تكون قادراً على أن تقاوم في اليوم الخفيف ، وأن تقف إذ أكملت كافة الأشياء » . وهذا هو السلاح الذي عنطى به التلميذ السالف الذكر عندما دخل في منازعاته ، وإن « بورفوريوس » الذي ووجه بنضال في مثل قسوة النصال الذي واجه الحوارى ، ضد خصوم متأملين في العدد والفظاعة ، قد توج بنصر مجيد مثلما توج به الحوارى أيضاً . وقد شيد تذكر هذا النصر في قلب بلاد العدو ، في شكل كنيسة المسيح

المقدسة التي أسسها القديس في غزة . ولم تكن طبيعته الإنسانية هي القوة التي
 أحرزتها ، ولكنها الحكمة التي جلبت النعمة السماوية على هذا العاطفي الحب
 للكنيسة ، والذي أعد ليقوم بكل الأمور ويقاس في قضيته من أجلها . وكم من
 هجمة مريّة من أيدي الأعداء لم يصمد لها هذا الشخص الجيب وكم خدعة
 واستهزاء لم يصبر عليها ؟ وستطول رواية القصة الكاملة لهذا الرجل العظيم ،
 وقصبات كثيرة فيها ينظر إليها على أنها مشكوك في حقيقتها . ولهذا سوف أحصر
 نفسي في رواية حقائق قليلة أتذكرها أنا شخصياً من الفترة الطويلة لإقامتي معه ،
 عندما كان لي حظ الاستمتاع بهذه الروح المباركة والموهبة التي كان معها الحقيقون
 هم الملائكة . هذا القديس الذي وهب كل صفات الكمال جدير بفناء الجنس
 البشري كله ، وبينما أنا حريص على أن تلك الصفات لمثل هذه الشخصية فوق
 التعبير عنها بكلمات ، فإن صلواته القدسية تشجمني حتى أشعر أن هذه المحاولة يجب
 أن تم . وسوف لا تكون هناك مجرفة في اللغة التي سوف أسرد بها قصته الجميلة .
 والكتابات لا يمكنها أن تضيف إلى زينة حياة رجال يمثل هذه الشخصية زينة . بل
 على العكس ، فإن كمال سلوكهم يشرف الكلمات التي تسجله . وعلى هذا فإنني
 متشجع ، في حالتي ، بصلوات القديس آنف الذكر ، لتناول هذه المهمة الأدبية .
 وخلال شفاعته هذه الصلوات ، فإنني أصلي من أجل نعمة ربنا يسوع المسيح
 ومساعدته ليكنني بكافة الوسائل ، أن أصف كمال ذلك الرجل القدوس والتمس من
 قراء هذا العمل ألا يرتابوا بمحتوياته . لقد كنت شاهد عيان لكمال « بورفيروس »
 باعتباري زميلاً له في الميثة والترحال والوقوع ضحية الاضطهاد حتى آخر يوم
 من حياته هنا على الأرض .

بروكيوس القيصرى

Procopius of Caesarea

(٥٠٠ - ٥٦٥ م)

تاريخ حروب جستنيان Justinian

(نص توينر .. مجموعة الأعمال . المجلد الأول تحقيق ج . هارى الكتاب الأول .
الفصل الأول) .

كتب بروكيوس القيصرى تاريخ شتى الحروب التى شنها « جستنيان »
إمبراطور الرومان ، ضد غير الرومانيين فى الشرق والغرب . وهدفه من ذلك إقناذ
أعمال على درجة كبرى من الأهمية من أن تتعرض ، إذا لم تسجل ، لاكتساح
الزمن المنتصر الانهائى ، الذى يهدد بإلقائها فى خضم النسيان . حيث يندثر
ذكرها تماماً . ويعتقد المؤلف ، أن صيانة هذا التسجيل سوف تكون لها آثارها
ومفيدة للأجيال الحاضرة والمقبلة ، فى حالة إذا ما وقع [الجنس البشرى] مرة
أخرى خلال التاريخ تحت ضغط موقف مماثل . وإن الأطراف التى تحفزها إرادة
الحرب أو تدفعها لتشرع فى تجربة القوة ، هذه الأطراف لها دروس قيمة تتعلمها
من النتائج التى تقدمها أبحاث من هذا القبيل ، وهذه النتائج قادرة فى حالة عرض
نضال مماثل فى الماضى على أن تلقى ضوءاً على مشكلة الحاضر محتملة الوقوع (على
افتراض أن الموقف يبالغ بحكمة) . ويشعر المؤلف نفسه أنه أهل بصفة خاصة
لكتابة هذا العمل لسبب واحد وكاف ، هو أنه لما كان الناصح الأمين للجنرال
« بليزاريوس » Belisarius ، فقد كان من حقه أن يسهم شخصياً فى سائر
الأحداث تقريباً موضع البحث . وهو يعتقد بأن زينة الصحافة الحقيقية ، هى التأنق
وزينة الشعر هى العواطف وأما زينة التاريخ فهى الحقيقة ولهذا السبب ، فإن المؤلف
لم يدار الجانب المظلم عند مناقشة حتى أقرب الأصدقاء إليه ، إلا أنه وصف

بإسهاب سلوك كافة هذه الشخصيات (سواء كان موثقاً به لديهم أو العكس) بدقة واعية .

وسوف يكون من الواضح ، بالنسبة إلى عقل غير متحيز ، أن أحداث هذه الحروب كانت على الأقل بارزة ومهيبة مثل أى حادثة أخرى . لقد كانت هذه الأحداث مسئولة عن وجود شخصية أكثر شذوذاً ، أكثر من غيرها ، من الأحداث الباقية المسجلة ، فيما عدا (على وجه الاحتمال) من وجهة نظر القارئ الذى يصر على إعطاء الأولوية للتقديم ويرفض أن يتأثر بأى شئ فى العالم المعاصر والمثال الأول الذى يتطرق إلى ذهنى هو تكلف الإشارة إلى الفضائل المصرية مثل « رماة النبال » والاحتفاظ بيمض الألقاب (مقاتل يد فى يد) أو (رجال تحت السلاح) للمقاتلين القدامى ، متوهمين بشكل وثيق أن هذه الصفات العسكرية منقرضة فى عصرنا . ومثل هذه الافتراضات إنما تكشف عن سطحية غادرة ونقص مطلق فى خبرة الذين يفترضونها . ولم يخطر ببالهم أن رماة النبال فى شعر « هومر » هم من شهر فى وجوههم السلاح دلالة على اللقب المشين ، لم يكن لديهم لحم خيول فى ركبتهم ولا رماح فى أيديهم ولا ستر حديدية تقطعهم . لقد ذهبوا للقتال على الأقدام ، وأجبروا على أن يتستروا خلف درع واق لأحد رفاقهم أو الاحتماء فى ضريح - أجبروا على أن يأخذوا وضاً حال بينهم وبين انتشار أنفسهم من الهزيمة ومن مطاردة عدو يتقهقر ، وفوق هذا كله ، من القتال فى المراء . ومن ثم فإن شهرتهم جاءت من قيامهم بدور مستور فى لعبة الحرب ، بينما تمحلوا قليلاً مع فهمهم بعمز عن ذلك كله ، الذى يقضى بأن يشدوا فى قديقتهم خيط القوس إلى الصدر ، وينتج عن ذلك بطبيعة الحال أن تنتهى القذيفة ، ويطلق تأثيرها بفعل الفترة التى تصل فيها إلى الهدف . وقد كان هذا بلاشك هو المستوى الذى وقتت عنده النبال فى أزمنة باكرة . وعلى النقيض فإن النبال المصرية تستخدم مجرزة بدرع وركب جلدية وجبة سهام على الجانب الأيمن والسيوف على الجانب الآخر ، بينما بعض القصاصات لديها رماح معلقة فوق أكتافهم وترس صغير

بلا مقابض^(١) على شكل قطر دائرة يغطي الوجه والرقبة . أما وقد أصبحوا فرساناً مرموقين ، فقد تدربوا على أن يشنوا قوسهم دون جهد على الجناح عند اتخاذ وثبة كاملة ، وأن يضربوا عدوياً يطاردهم في مؤخرته كما يضرب العدو الذي يتقهقر في مقدمته . إنهم يشدون حبل القوس إلى الوجه ، في مستوى الأذن اليمنى تقريباً ، الذي يحمل للقذيفة قوة كهذه بحيث يكون اصطدامها قاتلاً حقيقة ولا يستطيع الترس أو الدرع أن يقاوم زخمته (قوته التحركة) . وأياً كان الأمر ، فبعض الناس يؤثر تجاهل وجود هذه الفضائل ويثابر على تعلق مكشوف للقديم ويرفض أن يسلم بتفوق المخترعات المصرية . إن سوء فهم على هذه الشاكلة ، لا قيمة له بالطبع ، في سلب الحروب الصغيرة أهميتها الفائقة .

تاريخ لم ينشر

(نص توينبر ، مجموعة الأعمال ، المجلد الثالث ، الجزء الأول ، تحقيق ج . هاري : تاريخ لم ينشر ، الكتاب الأول ، مقدمة .)

في كتابي (التاريخ الحربي للشعب الروماني) حتى التاريخ الراهن ، قد رتبت وصفى للأحداث تحت عناوين زمنية وجغرافية بأقصى ما في وسعي . وفي بقية عملي سوف أتبنى مبدأ مفاير في التأليف ، فسوف أسجل كل شيء حدث فعلاً في كافة أرجاء الإمبراطورية الرومانية . وسبب تغير هذا المنهج هو أنه كان من المستحيل أن نسجل هذه الأحداث بطريقة صحيحة ، طالما بقي أصحابها على قيد الحياة . كان من المستحيل بالدرجة الأولى ، أن نقلت من جيش الجواسيس أو أن نهرب من دمار الموت المرعب ، إذا ما اكتشف أمرنا ، بينما لا يمكن أن تكون هناك ثقة في ولاء حتى في أقرب

(١) (عل وجه التخمين) يطلق على الكوع ولا يحسب به بقضة اليد . انظر لوجه الفارس البارز للملك خسرو الثاني ملك فارس (حكم ٥٩١ — ٦٢٨ م) في تالك — ي — بوستان ، الذي أعاد عرضه في Am Tor von Asien E. Herzfeld (برلين ١٩٢٠ روبر .) . الحق .

الفرين . وعلى هذا كنت مجبراً أن أحجب أسباب كثير من الحقائق المذكورة في مجلداتى السابقة ، ومهمتى في العمل الراهن من شأنها أن تفسر حقائق مرت حتى الآن في صمت ، وبالمثل أسباب حقائق غير واضحة حدثت بالفعل .

وعند الشروع في هذه المحاولة الثانية المسيرة التي لا تقاوم ، وهي محاولة كتابة تاريخ حياة « جستنيان » و« ثيودورا » Theodora فإننى أجد ملكاتى وقد شلت عندما أفكر أن محتويات العمل الراهن تبدو أنها ليست جديرة بالثقة أو التصديق من جانب أجيال المستقبل ، ولا سيما عندما أضغ و اعتبارى كيف أن مجرى الزمن الدائم يستنزف العمر الضعيف في كل رواية . إننى أخشى أصلاً اكتساب شهرة الروائى وأخشى أن أوضع في مصاف المؤلفين السرحيين أكثر من مصاف المؤرخين . وأيما كان الأمر ، فلدى سبب واحد للثقة ينمى من الإحجام عن تحمل عبء عملى ، وهذا السبب هو وجود شهود عيان على صواب روايتى . فإن الجيل الراهن هو شاهد يلم جيداً بالأحداث محل البحث ، وإننى قد أركها لأبدى أمينة كي تنقل لقرائى في المستقبل اعتقادهم الخاص بصدق .

وأيما كان الأمر ، فهناك اعتبار آخر ، طالما عاقنى حينما استحوذ على حماس هذه المهمة الأدبية . وتشككت في أن يكون إتمامها ضاراً بالأجيال المقبلة . إن أكثر الجرائم فظاعة هى على وجه التحديد تلك التي يرغب في إخفائها عن الخلف ، حينما يتطلع المحكام المستبدون إلى عدم تكرارها كما يفعلون ذلك ولا شك إذا ما وصلت معارفهم . إن حكام اليوم هم في العادة غير واهمين . إذ أنهم يجدون من الأوفى أن يروا الجانب السيئ من أسلافهم وقد ظهر في محادثهم ، وأن خطاهم في القنومة الأقل بعيد بشكل غير متاير أخطاء الماضى . وأيما كان الأمر ، فقد دفعت هنا بالتالى إلى تسجيل تاريخ الأحداث مرتبطاً بالتأمل الذى يقضى بأن طغاة المستقبل سوف يتلقون منها دروساً معينة مفيدة — أولها أن الجزاء على رذائلهم ليس من المحتمل أن يصيبهم ، كما أصاب أشخاص روايتى ، بينما في المحل الثانى سوف يسجل سلوكهم وشخصيتهم إلى الأبد ، وهو اعتبار قد أوقف الباعث عندهم على الخطأ . إن عمل

« سميراميس » Semiramis الداعر وجنون « سردانا بالوس » Serdanapalus
و « نرون » بعد هذا كله لم تكن ليعرفها فرد واحد في الأجيال القليلة إذا لم
تكن السجلات قد تركت لهم من المؤرخين المعاصرين ، والجدير بالذكر في هذا
الصد أن الرواية قد تبدو كلها مفيدة لضحايا طغاة المستقبل في ظروف مماثلة . إن
الكادحين يستمدون السلى عادة من إدراكهم أنهم ليسوا وحدهم في المصائب .
ولهذا سوف أبدأ بروايته ، وسوف أصف فيها من البداية سلوك « بلزارىوس »
لسي . . والسلوك المشين لجستينيان وثيودورا بعد ذلك .

أجاثياس الميرهنى

Agathias of Myrrhina

(٥٣٧/٥٣٦ - ٥٨٢) م

(تاريخ عصره)

(نص توينر Historici Graeci Minores تحقيق ل . دندورف — المجلد
٢ صفحة ١٣٢ . الكتاب الأول ، مقدمة)

ثم يرقى نجاح يحيط بانتصارات الحرب وأكاليها ، ودمار الدول وعظمتها ،
وكافة زينات الأحداث الكبرى . وجواز كهذه تجلب المجد والتمعة للمحظوظين
الفائزين بها ، إلا أنه ، عندما يترك هؤلاء الفائزون هذه الحياة الدنيا ويمضون إلى
العالم الآخر ، لا يجدون من السير أن يحملوا أعمالهم معهم . فيتسلل النسيان
إليها ويلفها ، حتى تفسد المسار الحقيقي للأحداث ، وحتى حينما يرسل شهود العيان
عن هذه الدنيا بدورهم ، فإن معرفة الوقائع تنطفيء معهم وتنشبت إلى لا شيء . إن
بجرد الذكرى بمثابة وهم لا طائل تحته فليس له صفة الدوام أو قوة البقاء جنباً إلى
جنب مع الزمن في امتداده الدائم . وفي اعتقادي ، أن الأبطال الذين جازفوا عامدين
بحياتهم في سبيل بلادهم أو تحملوا عبء الآخرين فوق أكتافهم ، هؤلاء ما كانوا
يفعلون ما فعلوا لو كانوا متأكدين أنهم حينما يصلون إلى قة العمل الإنسانى ،

سوف تقضى شهرتهم معهم وتتحلل إلى لا شيء . خلال فترة حياتهم القصيرة ، فيما عدما يمكن أن يعتبر بمثابة الماية الإلهية التي قوت ضعف الطبيعة البشرية بتقديم نعم وآمال دافعة من فن التاريخ . وإننى أتصور أن الزيتون وأطراف البقدونس لم توح إلى الظافرين بالأوليب أن يظهرأوا عراة فى الحلبة ، وكذلك فإن الرغبة فى المنفعة المباشرة من الجائزة المالية ليست هى التى دفعت بحيرة الجنود إلى أن يتحملوا مشاق الحرب المفروضة والتي لا يمكن الخطأ فيها . إن الجائزة التى كدح فى سبيلها الفريقان هى المجد البراق غير القابل للتلف ، وهذا ما يمكن الحصول عليه فقط بالخلود المقصور على التاريخ ، الذى لا يحمل منهاجه أى مشابهة لطفوس « زامولكسيس » Zamolxis ومحاقات العقيدة الجيتية ^(١) Getic ، ولكنها وسائل إلهية . فيقية وخالدة وهى الوسائل الوحيدة التى يمكن بمقتضاها للكائنات الحية أن تعيش إلى الأبد . وإنه لمن الأمور غير اليسيرة أن تقدم قائمة مضمينة للنعم التى يملأ بها التاريخ حياة (الإنسان) ، إلا أننى لا أستطيع أن أنتهى فى عبارة بأن أعبر عن الرأى الذى لا يعطى الأولوية تماماً إلى الفلسفة السياسية وقد تكون صاحبة الفضل الأكبر من الاثنين . إن الفلسفة السياسية مربية عنيدة لا يمكن المساس بها ، توزع أولمرها وتضع أنظمتها إزاء الأهداف السليمة التى يبحثون عنها أو يتحاشونها . إن إقناعها لا يتخلو أبداً من عناصر الإكراه ، بينما يعتمد التاريخ إلى أقصى حد ممكن على الجاذبية ، فيحيط دروسه بتنوع خصب من الإيضاحات ، ويقدم فى شكل أدبى ، الأمثلة التى حصل بها الرجال على الثقة من وراء ممارسة الحكمة والاستقامة وتلك الأمثلة الأخرى التى انتقاد فيها الرجال إلى خطوة زائفة بسبب قرار أو فرصة مشؤومة وذلك حتى يفرسوا فى النفوس بركة وبشكل غير محسوس الصفات التى يزدانون بها لحد كبير ، والتي توضح أكثر الجذور عمقاً ودواماً حتى تصبح متجانسة فى الطبع ويتقبلونها طواعية .

وسيجة لتبصر طويل وتأمل فى امتيازات التاريخ ، شمرت بأنه من المحتم أن

(١) كان زامولكسيس الذى الميهم للجيتيين أو الداقيين وهى قبيلة هاجرت (فى القرن السابع ق . م على وجه الاحتمال) من أعاليهم اسبئس أوراسيا إلى وادى الدانوب بين البلقان والكاربين وقد جلبت معها عقيدة متقلبة عن الخلود تنبأ بها الهلينيون (المحقق) .

أدفع له فريضة الإعجاب وأن أثنى على فضائل الإنسانية التي أنجزت بالفعل نتاج المؤلفات التاريخية، إلا أنني لم أشعر بأى إلزام فى أن أضع يدى فى هذه المهمة بنفسى حتى ولا مجرد أن أحاول ذلك . لقد كان حى الأول ، منذ صباى ، للشعر البطولى ، وإننى لمسور فى خيلاء هى بمثابة التوابل للفن الشعرى . وأنا فى الواقع مؤلف قصائد قصيرة ذات تفصيلات ستة وبمتوان (Daphniaca) موشاة برومانسية عاشقة ومفعمة بمجاذيبات أخرى من النوع ذاته . وبدأ لى أيضا ، ذات مرة أنه عمل جدير بالثناء والشكر، أن أقبل مجموعة كاملة على قدر ما يمكن بقصيدة موسمية حديثة لم تكن حتى ذلك الحين ذات صفة عامة ، ولكنها كانت تتردد على شفاه قليلة دون اهتمام كبير بصحتها ، وأن أعد نسخة منقحة ومرتبعة ترتيباً سليماً . ولقد كنت موفقاً فى تنفيذ هذا المشروع إلى جانب عدد آخر من المشروعات الأدبية ، التي يمكن أن تستحوذ على جاذبية معينة وسحر خاص بها ، على الرغم من أنه يكاد يمكن القول بأن لها هدفاً عملياً . وبالإضافة إلى هذا ، فإن الشعر شئ قدسى وخالق للطبيعة . فهو يلهب النفوس غير (كما يعبر الفيلسوف ابن أرسطون ^(١)) ويتولد عنه نتاج من الجمال الفائق ، إذا ما كان ملهماً فى الأصل واستحوذ عليه الهوس الإلهى . وعلى هذا كان قصدى أن أكرس وقتى للشعر وألا أترك باختياري هذه الحرفة الرقيقة والمبهجة ، سوى أن أتبع تعاليم دلتى وأن « أعرف شئونى الخاصة بى ^(٢) »

وأما كان الأمر ، فقد قدر لى أن أولد فى جيل نشبت فيه حروب كبيرة غير متوقعة فى أجزاء كثيرة من العالم ، وهاجرت بعض الشعوب غير المتحضرة إلى أوطان جديدة . وزخرت حياة الجنس البشرى كله بسلسلة من الأحداث الغامضة ولا يمكن تصديقها لأنها اتسمت بنهايات شاذة ، وبذبذبات الحظ العنيفة ، وإبادة الأجناس واسترقاق الشعوب وإحلال شعوب أخرى محلها ^(٣) . وقد أوحى إلى رؤية هذه الأحداث المشثومة وغيرها يبعث الشكوك المينة كذلك التى يبنى على

(١) هو أفلاطون (المحقق) .

(٢) كان النقش المشهور فى دلتى هو (اعرف نفسك) المحقق .

(٣) تنويه منق بفترة فى مقدمة توكوديدس (المحقق) .

ألا أكون مخطئاً في حق (النور) إذ أتركها دون تسجيل أو دون ذكر ، وقد كنت معنياً لأقصى حد بأحداث كهذه ذات أهمية فائقة يجب أن تكون لها قيمة موضوعية للرخاء . ولقد وصلت إلى الخاتمة التي ينبغي ألا تكون بعيدة عن عنايتي لعمل بعض تجارب في كتابة التاريخ، حتى يمكن أن تنقضي حياتي كلها حول رومانسية الأدب وغرائبه ، ولكن يجب أن تحمل بعض الثمار العملية على خير وجه . وقد زاد الباعث عندي قوة وإثارة إلحاح كثير من أصدقائي وتشجيعهم ، وعلى الأخص من جانب الصديق الصغير «يوثيخيانوس» Euthychianus بينا المبادرة قد تمت من جانب رسمي في الخدمة المدنية ، جعلت منه شخصيته السامية وذهنه التوقد وكل تعليمه زينة متألفة لبيت (فلوري) Florii . فهذا السيد الذي وضع مصالحى في قلبه وأولى تقديراتها كبيراً سواء في الشهرة الأدبية أو الشهرة العلمانية ، ثابر على أن يحفزنى ويتمنى لى النجاح . ولم يدع لى أن أعتبر الشروع صعباً أو في غير طاقتي ، ولا أن تثبط همى بجمدة التجربة كما يفعل رجل البر في حلتته البحرية لأول مرة . لقد أوصانى بأسلم وجهة نظر وهى أن التاريخ ليس بعيد النال من الشعر ، وأن الفئتين شقيقان في أسرة واحدة وليس بينهما ما لا يمكن إدراكه ، فيما عدا نظم الشعر الذى يفرق الواحد عن الآخر . وكان لى أن أعتبر نفسى في بيتى في كل من المسكرات وأن أتحرّك وأبدأ العمل بثقة وطاقة مثليتين . لقد وصلت تعاويذ أصدقائي إلى أذان صاغية فتتومنى تنويعاً مقناطيسياً ، وهكذا تكلفت بال مؤلف الراهن . وإبنى أثق بأن النتيجة قد تكون جديرة بغيرتى ، وقد تتطابق تقريباً في أهمية الأحداث المسجلة .

وعلى بادى ذى بدء أن أقتنى أثر التجربة المتتادة لكتاب التاريخ وأن أوضح هوبتي . إن اسمي الخاص هو أجاثياس ، ومسقط رأسى هو « ميرهينا » وأبى هو « ميمنونىوس » Memnonius ومهنتى هى القانون والمحاماة . (ميرهينا) التى أشرت إليها ليست عاصمة البلاد في ترافيا ، كذلك فليس هناك مكان آخر في أوروبا أو أفريقيا يحمل هذا الاسم ، فيما عدا مستعمرة (أيو إيان) Aeolian في آسيا ، التى تقع عند مصب نهر (بيتشيكوس) Pythicus ،

الذى ينبع من بلاد ليديا ، L dia ، ويصب في الخلاء الداخلى لخليج الإلياتيک Eleatic . وآمل أن أرد إلى مسقط رأسى جزاء تربيتى الكاملة لى ، وأن أنشر تاريخاً مفصلاً جديداً لكافة أعمالها التاريخية الشهيرة من جيل إلى جيل . وأما فيما يتعلق بالوقت الراهن ، فأتمنى منها أن تقبل ثنائى راضياً وى بنعم حماسى أقدم وأمضى به إلى الأحداث الكبيرة ذات الأهمية العظمى .

وسوف لا يتمثل كتابى فى طبيعته بمضى ما سلكه المؤرخون المعاصرون . فهناك بالطبع ، آخرون فى الوقت الراهن شرعوا بالفعل فى المهمة ذاتها ، إلا أنهم أولوا اهتماماً ضئيلاً فى معظم الأجزاء للحقيقة أو رواية الأحداث كما تشكلت فعلاً من جانب الخط ، وآثروا بدلاً من ذلك أن يتملقوا ويحاملوا عسداً من ذوى المناصب العالية بطريقة لا يمكن لأحد أن يصدقها ، حتى إذا ما تصادف أن قالوا الحقيقة . وأياً كان الأمر ، فقد أعلن الخبراء أن البالغة فى جدارة الفرد هى من وظيفة الصحافة ، والصحافة وحدها ، بينا التاريخ ، على الرغم من أنه لا يرفض من ناحية المبدأ ، الإشادة بالأعمال الناجحة ، ونمى الانهيارات ، وأظن ، أننى أقبل هذا كهدف للتاريخ وخاصة له ، إذ أن سياء الأحداث تقترض المدح أو الذم ، فالتاريخ ليس مطلق اليد فى أن يصنف الأحداث أو يوشىها . إلا أن هؤلاء المؤلفين الذين يدللون على أنهم يكتبون التاريخ ويسمحون بأن يكون هذا الأمر واضحاً فى اعترافات الصفحات الأولى ، قد اقتنموا نتيجة لفحص ممارسة سريعة ومناسبة ، اقتنموا بالاسم الذى ينتحلونه لمؤلفاتهم . وهم ، فى تناول الأحياء (سواء حدث هذا بالنسبة للحكام أو لرجال آخرين مرموقين) لا يفتنون عليهم فى رواية أعمالهم بحسب (التى قد تكون خطأ يفتفر إلى حد ما) ، ولكنهم يعمنون أيضاً على إيضاحها لكل قارئ بحيث أن اهتمامهم الوحيد قد زاد عن الحد الضرورى لمدح أبطالهم وتمجيدهم . ومن ناحية أخرى ، ففند تناول الأموات ، أياً كانت شخصيتهم الحقيقية ، فإنهم إما أن يقدموم باعتبارهم مجرمين ومن مصائب المجتمع ، وإما يسلكون مسلكاً معتدلاً فيتحاولونهم وينكرون كل ذكر لوجودهم . وهذا هو تصورهم لمعالجة الصالح المؤقتة وتأمين المنافع الشخصية بالخنوع للسلطات القائمة . وهم لا يدركون أنه حتى أولئك الذين يكيلون لهم الثناء

لا يرضون أنفسهم بهذا الاهتمام ، واضعين في الاعتبار كيف أن هذا الخيط الدقيق من اللق يمكن أن يعزى إلى شهرتهم . ويجب على هؤلاء المؤلفين أن يكتبوا كإشير عليهم الاتجاه والتعود ، إلا أنني في حالي ، أصمم على أن أضع الحق في اعتباري الأول ، أباً كانت الظروف .

وسوف أسجل عمليات ذات أهمية عامة عند الرومان والجزء الأكبر من العالم غير الروماني حتى تاريخنا الراهن (دون إهمال أى شيء هام) ، وسوف لا أقصر روائي على أعمال الأشخاص الذين ما زالوا أحياء ، ولكن سوف أفسح حيزاً أكبر لأى شيء أو شخص رحل الآن ، وعلى هذا فعلى الرغم من أنني أنعرض لتاريخ الفترة التي تلت وفاة جستنيان ، حينما مانجح « جستن » Justin الأصغر في التربع على المنصب الإمبراطوري ، إلا أنني سوف أرجع إلى الفترة السابقة ووجل هي أن أبحث عن أية أحداث لم يسبقني إليها مؤرخ آخر . إن الجزء الأكبر من أحداث عصر « جستنيان » قد سجل بالفعل وبتفصيل على يد « بروكوبيوس القيصري » ^(١) وبالتالي سوف أتركها ، مطمئناً إلى أنها لقيت تناولاً دقيقاً على يديه . ومهمتي الوحيدة أن أتناول القصة حيث تركها بروكوبيوس ، إلى أقصى حد من قدرتي ...

[يلى بعد ذلك جدول بمحتويات تاريخ بروكوبيوس]

إن الأحداث المشار إليها في الجدول السابق تصل بالرواية حتى العام السادس والعشرين من حكم « جستنيان » ^(٢) ، وهذه (إن لم أكن مخطئاً) هي المسألة التي ختم عندها « بروكوبيوس » مؤلفه وأنها عندها . وعلى هذا سوف أنتقل الآن إلى الجزء التالي وهو ما كان هدفاً لي منذ البداية

(١) الخيامي (المؤلف) .

(٢) م ٥٥٢ (الحقن) .

تاريخ عصره : مقدمة للمجلد الثالث

(نص توينبر Historici Graeci Minores تحقيق ل. دندورف . المجلد
الثاني صفحة ٢٣٦ الكتاب الثالث . الفصل الأول)

ناقشت في المجلد السابق أنظمة فارس ، وثوراتها السياسية المعقدة ، والمسائل الأساسية (كما أراها) والتي تتعلق بـ « خسرو » Chosroes وأسرته . وعلى الرغم من الحيز الذي لا بأس به والذي خصصته لتناول هذا الانحراف ، والارتباطات الطفيفة المقارنة مع ما سبقها ، فإنني على ثقة بأن أحد أسوأ لا يشمر بأنها من نافلة القول أو لا طائل تحتها ، إلا أن قرأني سوف يتفقون معي في أن فيها ارتباطاً سمياً من البهجة والمعرفة . ومقصدي ، كما هو مفعول عندي ، ومسعى الحاد هو أن (أمزج بين ربات النعم Graces والإلهات الفنون الجميلة Muses) ، إلا أن هموم هذا العالم كانت تشدني إلى اتجاه آخر دائماً ، وتضطرني الحاجة إلى أن أسير ضد كافة ميولي . إن مؤلّي التاريخي يعتبر أكثر الأعمال أهمية ورفعة يمكن أن يحوزه إنسان ، إنه أرفع من أي عمل دنيوي آخر ؛ إلا أنه (مصداقاً لنفسى بيوتيا العذاب) قد وضع قسراً في المرتبة الثانية من حجة الحياة ، وقدمت أن أحيا الحياة كاملة في عالم رغبتى . وينبني أن أعد دراسة تكيلية لأدب الماضي حتى أنخذها نموذجاً لي ، كما ينبغي أن أتأمل وأحصى في تفضيل التجمعات المختلفة للمادة التاريخية ، وأن أطلق ذهني يتفرغ ويركز بمجوده لهذا النشاطات . وبدلاً من هذا وقعت في التفرقة من الصباح حتى المساء الذي أكتب موجزات لأحصر لها وأوراق لأعد لها . وإنني حائق على الموكلين الذين يزعمونني ، كما أنني أحس بالدهشة عندما لا يزعمونني بدرجة كافية ، لأنني لست قادراً على أن أكسب قوت يومى دون متاعب وعناء . وأيما كان الأمر ، فهما كانت المعركة شاقة فسوف لا أكف عن العناء الذهني طالما كان اتعالى يعضدني ، أيا كن من المستغرب أن تهدف للارتفاع جداً (أو أن تسعى لتجد مكاناً في وعاء الفخار) . وقد يكتب النقاد عن عملي أنه جنين عقل كاذب وغير ممكن إدراكه وحائر بفعل شتات مصالح كبيرة ، إلا أنني أمل على الأقل

وإن أكون واحداً من النشدين غير الموسيقين الذين يقدمون ممتعة مركزة لأنفسهم.
أبداً كان الأمر ، فقد حان الوقت أن أرجع الى روايتي ، لأنه اذا ما انغمست في
انحراف أبعد فقد أتهم في ارتكاب ذنب لا يطلق .

ميناندر الديدبان *

Menander the Guardsman

(عرف في النصف الأخير من القرن السادس بعد المسيح)

تاريخ عصره

(نص توينر Historici Graeci Minores تحقيق ل . دندورف المجلد ٢
صفحة ١)

لم يتمتع أبي ، « يوفراتيس » Euphrates ، كان مواطناً بيزنطياً ،
بميزة اتعلم العالي ، أما أخى « هيرودوت » فقد اضطر ، عندما تدقّ التعليم
القانونى في البداية ، إلى الثورة ضد المستقبل القانونى . ولم يسمح لى وعيى الذاتى أن
أجرى القانون حتى أتمت دراستى ، وعلى هذا فقد أتمتها على أفضل ما أستطيع ،
إلا أننى لم أمارس العمل القانونى أبداً . ولم أجد العمل فى المحاكم من نوع واحد ،
وما زال فى الاتجاه المنتظم فى القاعات والمجهرود الذى من شأنه أن يوجد تأثيراً
صالحاً على التقاضين بالتألق الذهني أقل مرتبة . وعلى هذا أهملت مستقبلى بسبب
مواصلة الاستهتار والتبذير بشكل كبير غير مرغوب فيه . لقد كان قلبي ينتظم فى
الفرق الملونة ^(١) ، واضطرابات السباق ومنظر الباليه . وقد دخلت الحلبة أيضاً ،
وقت مجامعتى بصموبة على الصخور حتى إننى نزعته عنى معطى ، ومعه ذوق العام
وآداب الحياة .

* يعرف فى التاريخ المسيحى ميناندر اليراف ، إذ قال إنه (المجلس) وإن اللائكة
خالقة العالم (المترجم) .

(١) هما الفريقان (الأزرق والأخضر) اللذان يؤيدان الحمول المختلفة فى الباقى ، وكانا
منظفين بإتقان حتى لهما أصبحا ، فى القرن السادس بعد المسيح قوة سياسية فى القسطنطينية
(المعلق) .

وقد استمر هذا حتى تقلد « مورييس » Maurice التاج الإمبراطورى ،
الذى لم يظهر قلقاً وراثياً فحسب إزاء رعاياه ، ولكنه كان أيضاً محباً للأدب ،
وقارئاً غيوراً للشعر والتاريخ لدرجة أنه اعتاد أن يقضى الجزء الأكبر من المساء
فى متابعة هذه التمتعة ، وبالتالي يشجع الأذهان المترامية ويشيرها بمرغبات مالية .
وفى ذلك الوقت اضطررتنى ضيق المؤلم للوسائل غير الكافية ، والتى كانت عقوبة
لأنجرافى فى الخيال ، اضطررتنى إلى أن أضع فى اعتبارى أيضاً تذبذرى الذى لا طائل
تحتة . وعلى هذا قررت أن أضع هدفاً مالحياً بتحويل طاقاتى الى العمل الراهن
الذى اتخذت فيه وفاة سلفى « أجاثياس » استهلالاً لتاريخى ..

وقد أقت آمالى فى النجاح على أهمية موضوعى أكثر من امتياز أسلوبى ، لأنه
لا يمكننى أن أبلىغ ، بشكل معقول ، ذلك المستوى من الثقافة الذى يبرر تعرضى
للتأليف الأدبى ، واضعاً فى اعتبارى الحياة التى لا أهمية لها والمضطربة التى
عشتها حتى الآن .

ثيو فيلاكتوس سيموكاتا^(١) المصرى

Theophylactus Simocatta The Egyptian

(٥٩٠ - ٦٣٠ م)

التاريخ الكونى : حوار بين الفلسفة والتاريخ

(نص توينر تحقيق لك . دى بور C. de Boor)

الفلسفة : ما هذا يا بنى ؟ هلا حلت لى هذه المشكلة التى أنطلق لمعرفة سرها ،
بمخيط ذهبي من ضوء الحقيقة يرشدنى خلال البعد عن التاهة الخرافية . إننى لأجد
تناول التأملات بالغ الصعوبة فى تداوله .

(١) معناه (التعلل أفضس الأغب) - المحقق .

التاريخ : أينها الفلسفة ، يا مليكة الكون : إذا ما كان يصح حقيقة أن أكون مملاً لك ، وتكونين تلميذة لى ، لأجبت بقدر ما يسمح به ذكائى . إننى ألتقى مع فيلسوف بركة^(١) Cyrene فى زغبى ألا أجعل شيئاً تجدد معرفته .

الفلسفة : أود أن أسألك يا بنى ، ما هى الوسائل بالتحديد التى جلبت بها الحياة للأمس وأول من أمس ، إلا أن عباراتى تنعثر مرة أخرى ، وكما لو كان العنان يلزمنى الصمت ، معتقدة بأن الرغبات يغمرها الحياء . هل ضللتنى خدعة مشعوذة ؟ يا طفلى ، لقد مت لأمد طويل - منذ أن تم غزو البلاط الإمبراطورى على يدى الطاغية الكاليدونى^(٢) Calydonian الكيسى بالقولاذ ، وشبهه النول المتوحش الكوكلوبس Cyclops والكتنور Centaur الذى لوث جلال رداء الإمبراطور وحط من شأن التاج الإمبراطورى لقاء جائزة من الدعارة . وأنا لا أستطيع أن أذكر جرائعه الأخرى إذا ما أنا راعيت وقار القارى وكرامته . وبهذا العدد نفسه ، فقد كنت أيضاً قد أقصيت عن النطاق الإمبراطورى ولم أجد مأوى فى أنيسكا ، حيث كان سيدي سقراط قد أعدمه « أنيتوس التراقى » The Thracian Anytus . وفى الوقت المناسب جاء « بنو هرقل »^(٣) بالخلصاص ، وأعادوا الدستور وطهروا القصر من الدنس ، وأعادونى مرة أخرى فى النهاية إلى الأراضى الإمبراطورية . وتردد صدى صوتى فى الأماكن الإمبراطورية كما لو كنت ألحن اللحن الأنثيكي القديم . كما هو الحال الآن ، ولكن ، يا بنى ، كيف تم إقتاذك ، وعلى أبهى من ؟ .

التاريخ : أينها الملكة ، ألا تعرفين الكاهن الأعلى العظيم وسيد المعمورة بأسمها^(٤) ؟

(١) ربما كان أريستوبس أو كاليماخوس - المحقق .

(٢) هو الإمبراطور فوكس الذى حكم من ٦٠٢ - ٦١٠ م (المحقق)

« (أصحاب المين المستديرة) عمالقة متوحشون يأكلون لحوم البشر (المترجم)

(٣) للقصود هرقل وأسبته التى أطاحت بفوكس وخربته (المحقق) .

(٤) بطريرك القبطية (سرجيوس) المحقق .

الفلسفة : لماذا يا بني ، إنه من أقدم أصدقائي وذخري الخالص .

التاريخ : إذن أيها الملكة، قد وجدت بنفسك الرد على تساؤلك . إنه هو الذي رفعتني من مقبرة الجباله لتفتحني أنفاس الحياة . لقد كنت كالملكة الكستيس Alceste وأعادتني هو بكل حماية هرقل . وبكرم الأمراء أخذني إلى منزله وألبسني ملابس زاهية وزيفني بعقد من ذهب . وهذه النسر المحيطة التي تربتها قد رشق عليها جندياً ذهبياً^(١) ، قد ألبسني إياه المحسن العجيب ، والذي جعلني أشع بوهج عقل الراهن ، وقدم لي منبر خطابة شيد عن طيب خاطر لاستمالي الخالص ، وأطلق لي حرية قول الحق دون خوف من الأخطار .

الفلسفة : يا بني .. إنني أجل الرئيس النبيل لشهامته التي أبداهها . ما أصعب مرتقى الأعمال الذي تسلفه ، حتى احتل مكانه على قمة اللاهوت الشاهقة وأقام مأواه على سمات الفضائل . إلا أنه لم يحقر النجاحات الضئيلة . وقد كرس حياته إلى أممي النشاطات الذهنية ، لأنه لا يمكن أن يتحمل أن يبقى هذا العالم الأرضي في فوضى . فهل يوليني كل أجباني قشهم كما يفعل هو . بكل تأكيد ، فإن الفكر إذا لم يكن قد تقلب على الأرض في شكل غير هيولي ، لأصبح متجسداً وعاش شبيهاً بالإنسان بين الناس .

التاريخ : يا مليكتي ، ما أجل نسج إكليل ثنائك ، ولكن إذا ما تفضلت ، هلا جلست قليلاً تحت جذع هذه الشجرة الفارعة ؟ إذ أن فروعها تنتشر بشكل جذاب ، وارتقا شجرة الصفصاف وظلالها هذه لجذيرة بالإعجاب أيضاً^(٢) .

الفلسفة : فليبدأ الطريق يا بني ، وقدم للقاري الحال مقدم كمنطقة بدء للرواية . وسوف أمتحك فكري كأى ملك من (إناكا) Irbaka وسوف لا أصم أذني ، وإنما سوف أصنى لصوتك الفاتن وأنت تحكي قصتك .

(١) إشارة لاسم لما إلى عبارة في مقدمة توكوتيس (الحق) .

(٢) تنويه ساذج بمجاورات أطلالون (الحق) .

التاريخ : أينما الملكة ، سوف أطيعك وسوف أهرق قيثارة التاريخ . ولتتنازلي
فتصبحين قوساً لي - أكثر الأقواس الموسيقية في أى قيثارة . إنك عيط معرفة
ومنهل فصاحة . فيك تكس كل نعمة (كجزيرة محاطة ببحر لا نهائى) .

التاريخ الكونى مقدمة

(نص توينر تحقيق ك. دى بور . الكتاب الأول)

كان من اللائق أن يتحلى الإنسان باكتشافاته تماماً كما يتحلى بهيات الطبيعة
لأن بقاءها معه هو البدء الإلهى العجيب للعقل . إذ أنه تعلم من العقل أن يجعل
الله ويمبده ويتأمل التأملات المراثية من الطبيعة التى حوله ، وقد نزع جهالته عن
تركيبه البدنى . وبالعقل يتمايش الإنسان مع الآخر ، وينفذ من السطح الخارجى
إلى العقل الداخلى ، ويكشف أسرار وجودهم . وقد أطر العقل نمواً لا حصر لها
على الناس وهو مساعد عظيم إلى جانب الطبيعة . فإن ما لم تفعله الطبيعة ، أكمله
العقل حتى تمامه - فيجعل الأشياء بهجة للناظرين ، ويجعل الشيء حلواً
الذائق ، ويرقق ملمسه أو يخشنه ، ويجعل أموراً أخرى متجانسة للأذن ، ويغلب
النفس ويغذب اتباعها بسحر النغم . أليس هو العقل أيضاً الذى له حق الإدعاء
بأنه خالق الفنون ؟ فمن الصوف نسج أقشة الملابس ، ومن الخشب صنع النجار
مقبض الفأس ، ومجداف البحار وترس الجندى والبرقة وهى خير معين له فى الحرب .
وأكثر أهمية من هذا ، فقد نظم العقل التباين الذى لا حدود له فى التاريخ حتى
يهيج القارىء ويشقف النفس . وكى تسرغور النفوس ، ليس هناك أكثر جاذبية
من التاريخ ، كما هو واضح بما فيه الكفاية بالرواية الواردة فى أوراق هومر .

لقد استمتع ابن «لاثر تيس» Laertes بالضيافة فى بلاط الملك «انكينوس»
Alcinous بعد أن ألقت به أمواج البحر أخيراً على الشاطئ ،، وقد غمر «أوديسيوس»

Odysseus بالشفقة . لقد قدم لعنحية السفينة المحطمة الصارى ملابس مشرفة ليضمها على خصره ، وكان ضيف الشرف على المائدة الملكية ، وقد وهب الغريب حرية الحديث وحرية إنهاء روايته . وإبهيح الفيا كيون * من دراسة التاريخ حتى إنهم طردوا الذين كانوا يهتفون ، وغيروا شكل المأدبة في السرح ، وفتحت أذانهم وحلقوا فاعترن أفواههم للراوى دون أن يملوا طول الرواية — هذا على الرغم من أن غالبية الحوادث كانت تجملهم يقضون بأبصارهم ، إذ أن المجموعة قد اهتزت للمغامرات الخطرة حتى عاشوها مرة أخرى .

والعقل البشرى نهم لا يشبع عندما يولم إلى حكايات شاذة ، وهذا يوضح لماذا كان الشعراء أول من أحرز هيبة كقوة تربوية . فقد وجد الشعراء نفوس الرجال فضولية وتوافقة إلى أن تتلم متعطشة دائماً إلى القصص الغريبة ، واخترعوا الرواية لصالحهم ، وكسوا مادتهم بالأسلوب ، وغطوا كاذبيهم بالقافية ، وانطلقوا في شعوذتهم بالبحر السحري . وكانت هذه هي قوتهم في سحرهم حتى إن الناس اعتبروهم لاهوتين .

وكان من المعتقد أن الآلهة تزورهم ، وأنها تنصح أسرار قلوبهم عن طريق شفاه الشعراء التى تروى الكوارث التى وقعت فى حياتهم . ولهذا سوف نجد التاريخ هو العلم العالمى للجنس البشرى ، يطرح أماناً ما ينبغى أن تفعل وما ينبغى أن تتجنب طالما كان من غير المحتمل أن ينجح . ومن الواضح أن استشارات التاريخ تعطى الجنود التمرس فى فهم ، طالما يعرفون كيف يظهرون قوامهم وكيف يراعون المدو (بحيل الحرب) وتجعلهم يتوقعون مقدما كوارث الآخرين وذلك بمعرفة أخطاء أسلافهم ، بينما تريد من فلاحهم فى حالة النجاح وإقامة قم شاهقة لأعمال عظيمة من مديايات صغيرة .

* الفيا كيون شعب بحارة . كان ملتحهم يسمى الكيوس . وله منه تسمى (ناوسيكيا) وجدت أوديسيوس عرياداً ، وطلبت منه أن يتبعها حتى أبواب المدينة ، وأخذ أوديسيوس يقف على مسامع الملك مقامراته وإن كان رحته لم يعود إلى جزيرة إيثاكا (تشرح)

وهو بالنسبة للمسنين ممرض ومزمار سليم ، وللشباب معلم فائق الذكاء يدير
رءوسهم بخبرة الشيب . وهكذا يسهم بالمعرفة التدريجية التي تأتي مع الزمن .
ولقد قررت أن ألقى بنفسى فى أحضانها ، حتى ولو كان الشروع فوق طاقتى بسبب
خشونة أسلوبى ، وسخافة أفكارى ، وارتباك تعبيرى وعدم مهارة تأليفى . وإذا
ما وجد أى قارى هنا وهناك لمسة من غبطة فى روايتى ، فينبغى أن يرجع هذا
للصدفة ، لأنها بكل تأكيد لا تمزى إلى كفاية الكاتب .

الجزء الثاني
فلسفة التاريخ

القسم الأول - القلب

أوراق ورجال

(هوميروس : نص أ كنفورد : الإلياذة، الكتاب السادس الأبيات ١٤٦-١٤٩)

انظروا إلى ورق الشجر ، فالتاس هكذا ،
والأوراق عندما تذهوها الرياح في دوامة التراب
سرعان ما تفرخ القابة الخضراء ملايين جديدة ،
ثم انظروا ، جمال الريمع على العالم
يجيء ويعضى . وهكذا سائر بنى الإنسان
جلبرت مورى

الفناء

(هيرودوت : الكتاب السابع : الفصول ٤٤ - ٤٦)

حينما وصلوا إلى (أيدوس)^(١) Abydos ، رغب « كركيس » Xerxes
في أن يستعرض جيشه . وقد شيدت منصة للمراقبة من الرمر مقدماً على ربوة
في المكان المجاور^(٢) ، ومن هذه النقطة التي أشرفت على منظر الشاطئ ،
استعرض « كركيس » القوات البرية والأسطول . وبينما هو يستعرضها ،
راوده الرغبة في مشاهدة مناورات بحرية ، وحين أجريت هذه المناورات وانتصر
الفينيقيون من (سيدا) Sidon ، ابتهج بالمناورات وبالجملة بأسرها . وحين رأى
أن سطح الدردنيل Dardanelles يغطيه الأسطول ، وأن سائر رؤوس الأراضي

(١) هي المدينة التي تسيطر على مضائق الدردنيل على الجانب الآسيوى (الحق)

(٢) شيدها شعب أبلوس بناء على أمر سابق من الملك (المؤلف) .

الناثة في البحر والأغوار في منطقة أبيدوس عوج بالقوات، أسرع « كسر كيبس »
بنهشة نفسه ، ولكنه بكى بعدها . ولاحظ خاله « أرتابانوس » Artabanus
دموعه ، وكان خاله قد عبر عن رأيه أصلاً بشكل صريح في غير صالح الحملة
ضد هيلاس .

أما وقد رأى أن « كسر كيبس » ينخرط في البكاء فقد حسب « أرتابانوس »
أن فرصته قد واثته فقال : « مولاي ، ثمة تناقض شاذ في سلوكك الآن ومنذ
لحظة خلت ، لقد هنأت نفسك في بداية الأمر وبعدئذ تبكى . » فأجاب كسر كيبس ،
« لقد أذهلتني الشفقة إزاء فكرة قصر الحياة الإنسانية بأمرها ، وعند ما تحققت
من ذلك ، فمن بين هذه الجوع كلها ، ليس هناك فرد واحد سيظل على قيد الحياة
من بعد مائة سنة منذ الآن . »

وأجاب أرتابانوس « لدينا في الحياة خبرات أخرى تدعو للرائء أكثر من
ذلك . إذ أن مدة حياتنا قصيرة حقاً كما نقول ، ومع هذا فليس هناك فرد واحد ،
سواء في هذا الجيش أو في العالم ، يكون سعيداً بصورة طبيعية حتى إنه في فترة قصيرة
كذه ، لا يجد نفسه راعباً ، لامرة واحدة بل عدة مرات أكثر ، في أن يموت ولا
يحيا . إن ضربات المصائب ، وتخريب المرض جعلت الحياة القصيرة تبدو طويلة ،
وعلى هذا يأتي الموت إكراماً مباركاً للإنسان من الوجود الشرير ، فيما يعتبر الرب
أنه إله غيور في معاملته للإنسان عن طريق تذوق حلاوة الحياة التي يضمن
بها عليه . »

الكارثة الأثينية في صقلية

(٤١٦ - ٤١٣ ق . م)

(نوكوديدس : الكتاب السادس : الفصول ٢٤ - ٢٦ و ٣٠ - ٣٢ .

الكتاب السابع ، الفصول ٤٣ - ٤٤ و ٨٤ - ٨٧)

القرار

قدر « نيكياس » Nicias في خطابه متطلبات الحملة برقم كبير ، معتقداً أنه
بذلك إما أن يعوق الأثينيين نهائياً عن الحملة أو أن ينجح على أية حال في تقليل

الخطر إلى أدنى حد إذا ما اضطر للقيام بالحملة . وأما كان الأمر ، فلم يكن التسليح المطلوب لبثى الأثينيين عن رغبتهم في الحملة ، إذ أنهم شعروا بياث أقوى من أى وقت آخر . وكانت نتيجة حديث « نيكياس » عكس ما يريد تماماً . إذ أن نصيحته قد أخذت على أنها نوفر هامشاً فسيحاً يضمن سلامة الحملة .

واستحوذت على الجميع دون استثناء عاطفة صادقة إزاء الفامرة . فاعتقد الرجال السنون أنهم إما أن يهزموا معارضهم وإما على أسوأ الفروض ، يظل جزء من هذه القوى بمنأى من الكارثة ، أما الرجال في سن الجندية فيدفعهم الشوق إلى رؤية أراضى غريبة وإلى دراستها ، وهم على يقين من أنهم سوف يمودون في أمان . بينما تطلعت الجماهير^(١) والجنود المختارون إلى اكتساب المال في المستقبل القريب وإلى اكتساب أراضى جديدة ومنها تتدفق الضرائب بشكل دائم . إن رغبة الأغلبية المفرطة قلت من الانشغافات الفردية التي تدعو إلى السلبية ، خوفاً من أن ينظر إليهم على أنهم غير وطنيين إذا ما أدلوا بصوت معارض . وترتب على هذا ، أن ثار عضو معين بعرض على « نيكياس » بسبب مراوغاته والتأجيلات غير المجازة ، ودعاه إلى أن يعلن مرة وأمام الجميع في هذه الجمعية من بنى وطنه ، أى تسليح يبنى على البلاد أن تصوت لنيكياس من أجله . وأجاب « نيكياس » ، على مضض ، بأن ذلك الموضوع في حاجة إلى مشاورات أكثر مع زملائه وإلى متسع من الوقت ، وكان تقديره الأولى للقوات المطلوبة لا يقل عن مائة سفينة حربية (حتى يتقرر فيما بعد رقم السفن الأثينية الصالحة فعلاً للاستخدام في النقل ، على أن تجلب البقية من الحلفاء) ، ويبلغ أقل مجموع للرجال خمسة آلاف أثيني ، وقوة من المشاة المتحالفة التي يبنى زيادة عددها ، إذا كان ذلك في الإمكان . أما بقية القوة الحربية التي تزود الحملة ، وتشتمل على رماة القلاع والنبال وهم من الوطنيين والكريتيين وأى سلاح آخر يلزم للحملة ، يبنى أن يكون بقدر مناسب ولم يكذب ينهى من الحديث حتى صوتت الجمعية على إعطاء الجزالات سلطة مطلقة ،

(١) الذين عملوا كجند في الأسطول (المحقق) .

وتفويضهم حق إقرار قوة القوات وكافة تفاصيل الحملة مع حرية التصرف. وبدأت الاستعدادات منذ هذا الوقت ، وطلبت الاستعدادات من الحلفاء ، وقد سجلت الفصائل في أثينا . وكانت البلاد قد شقيت لتوها من الطاعون والحرب الداعة ، واستمدت الهدنة قوتها البشرية من جيل جديد ؛ وتوافر احتياطي في الخزانة ، وعلى هذا كانت هناك صعوبة قليلة في الطرق والوسائل .

الانطلاق

كان الوقت صيفاً عندما أبحرت الحملة إلى صقلية . وقد حددت مواعيد غالبية القوات المتحالفة ، وسفن الحنطة ، والتجار وبقية الأسطول الصغير ، منذ تاريخ مبكر في (كورفو) Corfu ، بهدف أن يمر الأسطول كله البحر الأدرياتيكي من تلك النقطة عند عقب إيطاليا في قافلة واحدة . وقد توجه الأثينيون أنفسهم وسائر الأمم المتحالفة التي تصادف وجودها في أثينا ، إلى (بيرايوس) في اليوم المحدد ، وشرعوا في إعداد سفنهم للرحلة . وقد صهّبهم إلى الميناء سائر سكان المدينة فعلاً ، سواء المواطنين أو الأجانب . فقد كان المواطنون يودعون أصدقاءهم وأقاربهم وأبناءهم حسبما يقضى الحال ، بمزيج من إحساسات الأمل والأسف — الأمل في الانتصار الذي ينبغي أن يحرزوه ، والأسف بفعل أفكار تراودهم بأنهم قد لا يرون أصدقاءهم مرة أخرى ، واضعين في اعتبارهم بمد الشقة بين موطنهم والأهداف التي يقصدون إليها . وعند هذا الحد ، حين أشرفوا على الرحيل من هدف إلى هدف آخر في ظروف خطيرة ، تحققوا من الأخطار التي برزت بشكل أكثر مما كانت عليه في الوقت الذي صوتوا فيه للحملة . وأياً كان الأمر ، فإن ما شاهدوه بأعينهم قد شجعهم ، حيناً راوا قوة الحملة في مجموعها وتفصيلها . أما بالنسبة للأجانب وبقية الحشود فقد جاءوا يتفرجون على ما يمكن اعتباره تماماً مشروعاً مفروضاً وشاذاً ؛ لأن هذا الأسطول كان أكثر الأساطيل الهلينية إسرافاً وغفامة من القوات التي سبقته حتى ذلك الحين ، والتي تبخر من سواحل بلد واحد . والحملة والتي أبحرت مع « بركلييس » إلى (أيبيداروس) Epidaurus وبمدها مع

« هاجنون » Hagnon إلى (بوتيدايا) ^(١) Potidaea ، لم تكن أقل من الحملة الحالية بما فيها من مرآكب وفصائل . لقد اشتملت على أربعة آلاف من مشاة الوطنيين الأثينيين ومعهم ثلاثمائة فارس ، ومائة سفينة حربية ، وخمسون سفينة حربية لسبائية وحيثينية وقوات متحالفة إضافية كبيرة . وأبما كان الأمر ، فقد كانت أهدافهم قريبة النال وأجهزتهم ضعيفة ، بينما كان من المتوقع أن يعمل الأسطول الحربى الحالى طويلاً ، وعلى هذا زودت الحملة بكل التطلبات من الأسلحة اللازمة لكافة عمليات الفرق . لقد أصبح الأسطول كاملاً بتكاليف باهظة بالنسبة إلى الربانة ^(٢) والدولة على السواء . وقدمت الخزينة إلى كل بحار (دراخما) إضافية يومياً ، وأمدت السفن — وهى ستون سفينة كبيرة وأربعون ناقلة ببجارة مختارين وأعطى الربانة أجوراً إضافية من الدرجة الأولى للبحارة العادين علاوة على الأجر الرسمى ^(٣) ، وزودت السفن بشعارات ومعدات باهظة ، ولم يدخروا وسماً فى أية لحظة وأن يحملوا سفنهم تفوق سائر السفن الأخرى سرعة وخفة . وقد اختبرت القوات البرية بعملية دقيقة ، وكانت هناك منافسة بين الأفراد فى شئون الأسلحة والمعدات . وقد سادت روح المنافسة بين الفصائل نفسها فى أعمال كل منها ، واعتبرت الحملة بمثابة عملية استعراض لقوة أثينا وسلطانها ولصالح بقية هيلاس أكثر منها عملية حربية . ومجموع البالغ التى صدرت عن أثينا فى هذه المناسبة تصل إلى رقم ملفت للنظر إذا ما أخذت إحصائية لنفقات الدولة العامة ونفقات خدمات الأفراد الخاصة . وتشتمل النفقات العامة على الصندوق الحربى للقيادة العليا ، كما تشتمل على المصروفات التمهيدية ، بينما من المفروض أن تشتمل النفقات الخاصة على ثمن اللوازم الشخصية (وفى حالة الفباطنة ، تشتمل على ثمن ما صرفوه بالفعل ،

(١) فى ربيع وصيف عام ٤٣٠ ق : م على التوالي (المعلق) .

(٢) لا يشرف ربانة السفن الحربية الأثينية عليها مدة عثماتكون فى مهمة . وكانوا طرازاً خاصاً من المواطنين مجهزون السفن ويدعمون للبحارة من جيوبهم الخاصة كنوع من الضريبة الإضافية (المعلق) .

(٣) كانت الدرجة الأولى من البحارة تتكون من الأثينيين عادة ، أما الدرجات الأدنى فمن الأجانب المقيمين (المعلق) .

والتردد صرفه بعد ذلك على سفنهم) ، و تمن الخازن أيضاً . انتظاراً لاستمرار
الحملة فترة طويلة . ومن الطبيعي ، أن كل فرد سوف يزود نفسه بما يفوق
مصرفه . إن الإحساس الذي خلقه الأسطول الحربى بفعل جساته الهائلة
ومظهره البراق ليس أقل من سيادة قواته الساحقة على العدو المرتقب ، وإنما
يمزى أساساً إلى أن تلك الحملة كانت أعظم حملة وراء البحار عن أى حملة قاموا
بها من قبل .

وبعد أن جهزت السفن وكافة المعدات التى عزموا على أخذها معهم فى نهاية
الأمر على ظهر السفن ، ترددت صيحة السكينة فى البوق والصلاوات الماثوفة قبل
إلقاء الرساءة - لا فى كل سفينة على حدة ، وإنما فيها جميعاً كوحدة واحدة ،
بقيادة المفادى . وامتلات^(١) الكثوس من أقصى الأسطول الحربى إلى أقصاه ،
وانسكب النبذ من الأقداح الذهبية والفضية بواسطة الجنود^(٢) والضباط . وصلى
الحشد على الشاطئ ، وانضم إليه المواطنون مع متفرجين أجانب . وبعدئذ أديت
التحية العسكرية ، وتبعها الشعار الدينى ، ورفعت المراسى ، وسارت السفن فى
خط عمودى تجاه جزيرة (أيجينا) Aegina حيث انطلقت بأقصى سرعة إلى
(كورفو) التى كانت بمثابة (المياد) لبقية الأسطول الصغير .

الهجوم الأخير

قرر « ديموستينيس »^(٣) Demosthenes أنه من المستحيل الاقتراب من

(١) المعنى الحرق « امتزجت » لأن الهيلينيين اعتادوا أن يمزجوا النبيذ بالماء كما فعل فى
المشروبات الروحية (المحقق) ،

(٢) كان المشاة الراقين قد تقلوا على السفن الحربية التى تقيم طبقة أكثر ثراء من البحارة

(المحقق) ،

(٣) القائد الأثينى الثانى ، الذى كان قد وصل بالإمدادات إلى نيكياس عندما شارف
حصار سيراقوزة على الفشل من جانب قوات الحملة الأصلية . أما المرتضات التى كان ديموستينيس
يصدد الاستيلاء عليها فتشرف على سيراقوزة بنفس الطريقة التى تسيطر بها مرتضات أبراهام
على كوبيك (المحقق) .

(المرتفعات) وتسلفها في ضوء النهار دون أن يراهم أحد . وعلى هذا أصدر أوامره بأن تقدم الجراية إلى الفصائل طيلة خمسة أيام ، وأغرق كافة المهندسين بإمدادات الذخيرة والمواد المطلوبة لتحصين وضع جديد في حالة النجاح ، واستعرض الجيش كله في الساعات الأولى من الليل تحت قيادته . مع « يورميدون Eurymedona » و« ميناندر » باعتبارهما زميليه ، وتقدم نحو المرتفعات ، وبقي « نيكياس » في الاحتياطي داخل الخطوط الأثينية . وضربوا المرتفعات عند « يوريلوس » Euryelus ، حيث كانت الطلائع الأولى للحملة قد تسلفها أصلا ، وأخذوا حراس (سيرا كوزه) على غرة ، وهاجموا الركراكسيرا كوزي المقام عند هذه الحدود واستولوا عليه وتسببوا في مقتل عدد من رجال الحامية وأبما كان الأمر فإن غالبية الحامية تشتت على الفور في اتجاه محطات الجند الثلاث التي أقيمت على المرتفعات في معاقل الخط الرئيسي . والتي أقيمت على التوالي على أبدي السيرا كوزيين والهلينيين الصقليين الآخرين وحلفائهم غير الصقليين . وجلب الماربون معلومات عن الهجوم مهم وأبلغوها إلى الفصائل السيرا كوزية السبائة التي كانت في الخطوط الأولى على هذا القطاع من المرتفعات . وتحركت هذه الفصائل إلى الأمام على الفور وهي مدعمة ، ولكن رجال « ديموستينيس » والأثينيون تصدوا لها واضطروها إلى التراجع بعد أن أبدت مقاومة شديدة . وواصل الأثينيون تقدمهم على الفور ، كي ينطلقوا إلى أهدافهم قبل أن تنبذ الرغبة في الاندفاع ، بينما وزعت بعض الفرق الأخرى لهذا الغرض عندما بدأ الهجوم الأول وبدأوا في الاستيلاء على القوة المعترضة التي أقامها السيرا كوزيون من قبل وأوقفوا فيها الاضطراب ، وهي الحامية التي فشلت في أن تحافظ على قاعدتها ، وعندئذ بدأ السيرا كوزيون وحلفاؤهم والقوة التي يقودها « جليپوس »^(١) Gylippus في الحركة قدماً ممززين من غافرم ،

(١) اللقب العسكري الإسبرطي في سيرا كوزه والذي أعاد الوقت (المحقق) .

إلا أن جسارة هجوم الليل قد أخذتهم على غرة ، لقد كانوا فى حالة من الملح عندما اصطدموا بالأتينيين ، وكانوا فى بداية الأمر قد فاقوم قوة واضطروهم إلى التراجع . وأيما كان الأمر ، ففى خلال تقدمهم ، كان الأتينيون يهجرون مؤسساتهم ، فمن ناحية ، على افتراض أنهم قد كسبوا المعركة فعلا ، ومن ناحية أخرى يبدلون جهداً فى التخلص بأسرع ما يمكن من سائر قوات العدو التى لم تكن قد اشتركت فى المعركة بعد ، والتى قد تجد فرصة لتعيد تشكيلها إذا ما كان هناك أى تراخ فى الهجوم الأتيني . وعند هذه اللحظة الحرجة قام البيوتيون فى بادى الأمر بصد تقدم الأتينيين ؛ وواجهوا هجوماً مضاداً ، وأجبروهم على التراجع ، وعادوا أدرأجهم مهزومين .

وعندما حدث هذا ، اختل نظام الأتينيين كل الاختلال وفقدوا صوابهم إلى درجة أنه لم يكن من السهل أن تحصل على رواية متكاملة لما حدث بعد ذلك من الجانبين . حتى فى العمليات التى تمت نهائياً ، وهى أقل بلبلة ، فإن الأفراد القاتلين وجدوا أنه من الصعوبة أن يواصلوا تقدماً عاماً للعمل فيما وراء قطاعهم الخاص ، وعلى هذا فمن الصعب أن تتوقع معلومات عديدة من جانب المشتركين فى عمليات المساء فقط فى الحرب الأخيرة ، والتى استخدمت فيها قوات لا بأس بها . وعلى الرغم من ضوء القمر الساطع ، فلم تكن هناك سوى إمكانية الرؤية على مستوى منخفض وهى من خصائص ضوء القمر ، وتمكن العين من أن تميز هيئة الإنسان عندما يدخل فى نطاق الرؤية ولا تمكن من تمييز العدو من الصديق . إن جماهير جنود المشاة التى تنتمى إلى كلا الجيشين كانت تقوم بمناوراتها فى مكان محصور ، واستسلمت بعض الفصائل الأتينية بالفعل ، بينما كانت القوات الأخرى تتقدم ظافرة فى الاندفاع الأول من هجومها . وكان قسم لا بأس به من الاحتياطى الأتيني يتسلى أو فى سبيل أن يتسلى المرتفعات ، ولهذا لم يعرفوا أية نقاط يتخذونها كأهداف لهم . ومن لحظة بدء الانهزام ، فقدت القوات فى الجبهة أنظمتها تماماً ، وجعلت الضجة من الصعب أن تميز الصديق من العدو . وكان

السيراكوزيون وحلفائهم يهتف^(١) الواحد منهم للآخر حتى يتابعوا انتصارهم ، بينما يقاتلون كل من يصطدم بخطوطهم . وكان الأثينيون يمحاولون أن يتصل الواحد منهم بالآخر ، وكانوا يماثلون كافة القوات التي تأتي من الاتجاه المعادي على أنها قوات معادية ، في حين أن قوات جليفة فعلا قد تكون متراجعة من المؤخرة . وكانوا دائماً يتحدون أيضاً بعضهم البعض حول كلمة السر ، والتي كانت وسيلتهم الوحيدة التي يتحقق بها الواحد من شخصية الآخر ، وكان من شأنها أيضاً أن توقع صفوفهم في بلبلة عندما كانوا يواجهون بعضهم للمرة الأولى . وتصادف أن أدى هذا إلى أن انتقلت كلمة سر أثينا إلى العدو بينما لم يكن من السهل على الأثينيين أن يكتشفوا كلمة سر أعدائهم ، لأنهم أبقوا على تشكيلهم كمتصمرين ، وعلى هذا كانوا قادرين على أن يتحقق الواحد من الآخر بسهولة أكثر . وبالتالي ، عندما حاصروا جزءاً أضعف من العدو ، تمكن هذا الجزء من الهرب لأنه يعرف كلمة سر الأثينيين بينما حين فشل الأثينيون في أن يردوا على تحدى العدو ، أفضوا جميعاً . وأما كان الأمر ، فقد قاسوا من الصباح أكثر من أى شئ آخر ، الأمر الذي أوجد اضطراباً في كلا الجانبين . وعندما تملى صياح قوات الأرجيفين والسكريكورين *Corcyræans* وبعض الفرق الدورية^(٢) الأخرى التي عملت مع الأثينيين ، وقع الأثينيون في هلع ، وحدث الشئ نفسه بين صفوف العدو . وعندما حدث وفقد تنظيمهم ، اصطدم الأصدقاء وزملاؤهم بنى وطنهم الواحد مع الآخر في عدد من النقاط على الخط ، حتى إنهم في النهاية لم يفقدوا أعصابهم بحسب ، بل تضاربوا فعلاً واستطاعوا أن ينفصلوا بصعوبة . ومات الكثيرون أثناء فرارهم من الترات المطاردة لهم ، وذلك بإلقاء أنفسهم من أعلى الصخور ، بسبب ضيق الطريق المنحدر من المرتفعات ،

(١) لم تكن ثمة وسيلة اتصالات عملية في الظلام (المؤلف) .

(٢) « الدورية » كان اسم مجموعة من المجهات اليونانية في العالم الهليني ، التي قد تقابل بعض مجموعات (الرومانسية) و (البيوتونية) في أوروبا الحديثة (المحقق) .

وعلى الرغم من أن أغلبية الذين بقوا على قيد الحياة والذين وصلوا إلى السهل نجحوا في الهرب إلى المسكر^(١) ، فقد ضل الطريق عدد معين من القادمين الجدد^(٢) ، وهاموا في البلد حتى طلع عليهم النهار ، وهاجمهم فرسان السيرا كوزين وأفتونم .

الموقف الأخير

ومع عودة ضوء الشمس ، بدأ نيكياس بحرك قواته ، وهاجمه السيرا كوزيون وحلفاؤهم ، وكما حدث من قبل ، هاجموا بوابل من همم القذائف . واندفع الأثينيون إلى الأمام نحو نهر (أسيناروس) Assinarus ، من ناحية تحت تأثير وابل هجمات فرسان أفتونم تساندم أسلحة أخرى ، وتوقعوا من وراء هذا الاندفاع بعض الراحة إذا ما نجحوا في عبور المجرى ، ومن ناحية ثانية تحت ضغط الإنهاك وتأثير العطش . وعندما وصلوا إلى الشاطئ ألقوا بأنفسهم فيه وانتهى كل نظام . وقرر كل جندي على حدة أن يكون أول من يبر النهر ، في حين أن هجمات العدو جعلت العبور عسيراً تماماً . وقد أجبروا على أن يندفعوا على شكل كتلة متراكمة ، وتمثروا فداس الواحد على الآخر ، وقتل بعضهم للتو بأطراف أسلحتهم ، بينما توغل الآخرون وجرفهم التيار . واسطف السيرا كوزيون على الشاطئ المقابل للنهر وكان شديد الانحدار ، وأمطروا الأثينيين شواظاً من نار ، وكان معظمهم يشرب بشراهة واسطدم الواحد بالآخر في قاع النهر المخوف . وجاء البلوبونيزيون واتخذوا مراكز قريبة وبدأوا المذبحة ، ولا سيما أولئك الذين كانوا

(١) ولا سيما القمائل التي تقبع في الأصل قوات الحملة ، والتي كانت تلم بالطبوغرافيا جيداً (المؤلف).

(٢) أعضاء قوات حملة ديموستينيس الثانية، التي وصلت أخيراً فقط (المحقق) .

فى النهر . وتلوث المياه فى لحظة ، ومع ذلك استمرت الأغلبية فى شرب الماء ،
موحلة ودامية كما هى ، بل تقاتلوا أيضاً للوصول إليها . وبالتالى ، عندما تسكوت
الجثث فى النهر وقطعت القوات إلى أجزاء — الجزء الرئيسى فى مجرى النهر ،
والفارين على أبدى الفرسان — واستسلم « نيكياس » شخصياً إلى « جيلبيوس »
الذى وثق فيه أكثر مما فعل السيراكوزيون ، وتوسل إليه وإلى الأسبرطيين أن
يفعلوا ما يشاءون به شخصياً على أن يوقفوا المذبحة فى رجاله . وبمد هذا ، أمر
« جيلبيوس » بوجوب استسلام ذلك المركز ، وألا يخفى من كان قد بقى على قيد
الحياة وأخذوا أسرى وسجناء (وكانوا عدداً كبيراً) ، وكذلك الثلاثمائة رجل
الذين اقتحموا حصار الحرس أثناء الليل أسرهم القوات التى أرسلت لتطاردهم .
ولم تكن نسبة القوة الأثينية التى جمعت كسجناء رسمياً كبيرة ، بينما كان عدد
أولئك الذين فروا كبيراً لدرجة أن سفلية امتلأت بهم ، فلم يصبحوا مسجونين
نتيجة الأسر الرسمى . وقد قتلت نسبة كبيرة فعلاً بشكل غير رسمى ، ولم تردد
الأشلاء الرعية زيادة كبيرة كهذه فى أية مناسبة أخرى فى الحروب الأخيرة . وقد
قتلت أعداد لا بأس بها من قبل فى الحملات الداعمة التى صاحبت مسير الحملة .
وعلى أية حال ، فقد نجح الكثيرون فى النجاة بأنفسهم — وقد نجح بعضهم فور
أن وقع فى الرق ، وبعضهم بالفرار بمد ذلك . وكان من جراء هذه الأعمال
وجود مستشفى للمجاذيب فى (كاتانا) Catana .

وقد ركز الآن السيراكوزيون وحلفاؤهم قواتهم ، وأعدوها لنقل المواد
المستولى عليها وأكبر ما يمكن من الأسرى ، وكروا راجعين إلى المدينة . وقد أودع
جميع الآثينيين وحلفاؤهم المواطنين الذين وقعوا أسرى فى المحاجر على اعتبار أنها
أسلم طريقة لدفعهم ، فيما عدا « نيكياس » و « ديموستينيس » اللذين أعدما — على
غير إرادة « جيلبيوس » . وكان « جيلبيوس » يرغب فى إحضار قادة الأعداء إلى
إسبرطة على اعتبار أن هذا نصر شخصى له . على الرغم من أن أحدها وهو
« ديموستينيس » ، قد وضع ضمن مراتب أعظم أعداء إسبرطة بسبب أحداث

(ييلوس) Pylos وجزيرة (سفاكتيريا^(١)) Sphacteria بينما اعتبر الآخر كواحد من أعظم أسدقائها . وكان هذا بفضل جهاد نيكياس في حضن الأثينيين على السلام ، حتى إن الإسبرطيين الذين أسروا في الجزيرة ضمنوا إطلاق سراحهم . وفي مقابل هذه الخدمة تصرف الإسبرطيون بلطف معه ، ويعود استسلامه لـ « جيلييوس » لحد بعيد إلى ثقته في هذا الاعتبار . وأما كان الأمر ، فقد قيل إن بعض السيراكوزيين الذين كانوا على اتفاق معه ، خشوا أن يعترف تحت تأثير التمدب . وهذه الاعترافات من شأنها أن تمكر صفوفهم ، بينما الآخرون ، وعلى الأخص ، الكورينثيون ، كانوا يخشون أن يستخدم ثروته في أن يشتري هروبه لقاء رشوة . وبعدئذ يكدر سلامهم مرة أخرى ، فحقت هذه الأطراف الحلفاء على أن يلتقوا حول الاتفاق على اعدامه ، وأصبح الدافع على الجريمة هو الأساس كما أوضحت . إنه آخر واحد من الجيل الهليني يستحق مثل هذا المصير ، واضعاً في اعتباري الدقة التي انتظمت فيها حياته على أعلى المبادئ^{*} .

وقد عامل السيراكوزيون في البداية المسجونين معاملة بربرية . وعندما كانوا محشورين في بئر منجم ضيق ، ظلت الشمس والحرارة الخائقة تعذبهم في البداية ، وتعرضوا لها دون سقف يقيهم ، بينما هجمات ليالي الخريف الباردة ، مع تغير درجات حرارتها العنيفة ، أضرت أجهزتهم وتولد عنها المرض . واضطرتهم شدة الازدحام إلى أن يقضوا حاجاتهم في المكان نفسه ، أما جثث الضحايا الذين ماتوا متأثرين بجراحهم وبتغير درجة الحرارة والأسباب الأخرى ، فقد تكومت جثة على جثة ، ونشأت رائحة كريهة لا تطاق . وبالإضافة إلى ذلك ، تضايقوا من عضه الجوع والعطش^(٢) ، ولم يفلتوا من أجد الآلام التي تنتج لا محالة من السجن في مثل هذا الفخ المميت . وكان عليهم أن يتحملوا هذه المعيشة إلى سبعين يوماً ، مكومين معاً

(١) حيث كان قد أسر قوة بيبونيزيه عام ٤٢٥ ق. م . (الحقق) .

(٢) كان غذاءهم اليوم لفترة تزيد على أربعة أشهر أقل من نصف (بنو*) من الماء والمجرب (المؤلف) .

بشكل مختلط ، وسيقوا جميعاً في نهاية تلك الفترة إلى سوق النخاسة ، فيما عدا
الأتينيين وهليني سقلية وإيطاليا الذين انضموا إلى الحلة . ومن الصعب تقديم
رقم دقيق عن مجموع عدد الأسرى إلا أنه لا يقل بالتأكيد عن سبعة آلاف .

وهذه المأساة التي كانت أعظم مأساة حدثت في الحرب الأخيرة (وفي رأيي ،
في سائر التاريخ الهليني السجل) ، أضفت مجداً لا نظير له على الفزاة ، وجلبت
كارثة لا مثيل لها أيضاً على المغلوب . لقد هزموا تماماً في كل طريق ، لم يكن
هناك شيء في آلامهم على أسفر نطاق ، فالأسطول ، والجيش ، وكل شيء آخر اندثر
تماماً بكل معاني هذه الكلمة ، وعادت قلة إلى مواطنها من ذلك العدد الكبير
الذي غادرها .

عبد مقدونيا

(بوليبيوس : الكتاب التاسع والمثرون ، الفصل ٢١)

لقد أعاد مصير مقدونيا بشكل قوى إلى ذهني كلمات « ديمتريوس
الفاليري »^(٢) Demétrius of Phalerum . ففي مؤلفه عن الحظ ، الذي
كان يهدف فيه إلى أن يبين إلى زملائه بشكل لا لبس فيه تقلب هذا المبدأ ، يقطع
« ديمتريوس » روايته عن حقبة الإمبراطورية الفارسية التي أطاح بها الإسكندر ،
ليسجل الملاحظات التالية :

ولست في حاجة ، حتى تتأكد من الطابع المثير للحظ ، إلى أن تأخذ في
اعتبارك فترات كبيرة من الزمن تمتد إلى أجيال كثيرة . فإن نصف القرن الماضي
يقدم مثلاً كافياً . فلنفترض أن قوة إلمية منذ خمسين عاماً مضت ، أنبأت
الفرس وملك فارس بالمستقبل ، وضلت ذلك أيضاً للمقدونيين وملك مقدونيا ،
فهل تتصور أنهم في ذلك الحين كانوا يصدقون أن اسم فارس — وكانت وتحت

(١) بلوتوف وسياسي أثيني ، حكّم أثينا من عام ٣١٧ — ٣٠٧ ق.م .

(٢) محفوظ .

سيدة الممورة كلها — سوف يطلع تماماً ، وأن المقدونيين — ولم يكن اسمهم معروفاً من قبل ، سوف يركع العالم تحت أقدامهم ؟ وأيما كان الأمر ، فأني أعتقد ، أن هذه واجدة فقط من العلامات والمجانب التي يبين بها الحظ دائماً قوته للجنى البشرى ، إذ أنه عندما وضع مقدونيا مكان فارس القوية ، فهو يدلل بذلك على أنه عندما يقلد مقدونيا وسامات الإمبراطورية فإن هذا من أحكامه التي لا راد لها وتتفق مع حرية تصرفه .

وفي حالة « برسيوس ^(١) » Perseus فقد حدث هذا الطارىء فملاً . وأثبتت عبارات « ديمتريوس » أنها موحى بها وكلمات أنبياء ، والآن ، وقد وصلت في روايتي إلى تلك الحلقة التي أطيع فيها بملكه مقدونيا ، فأني أشعر بصفتي أول شاهد للحادث ، بأنه سوف لا يكون لي عذر في أن أمر عليها دون أن أحدد الغزى ونسبته إلى ديمتريوس ، والأمر عندي أن في قوله تنبؤاً خارقاً للعادة . لقد توقع بدقة مسار الأحداث قبل قرن ونصف تقريباً .

عبر روما

(بوليبوس : الكتاب السادس . الفصل ٥٧)

إن التفكك والتحول الذي يتعرض له كل شيء في العالم يمكن اعتباره في الحقيقة قضية مسلماً بها من حيث إنه وضع يتفق في ذاته مع وحدة الطبيعة . وأيما كن الأمر ، فهناك عمليتان ممكنتان قد يتم عن طريقهما تفكك أى شكل من أشكال الكومونوك — إحداهما خارجية والآخرى داخلية ؛ وبينما تكون العملية الخارجية غير مطلوب جداسها علماً ، فإن العملية الداخلية تخضع لقوانين ثابتة . ولقد فرغت من وصف الأنوار المتتابعة لتتطور السياسي ، والانتقال من طور إلى طور ،

(١) آخر ملوك مقدونيا التي هزمه وعزله روما عام ١٦٨ ق. م. (المحقق) .

بما يمكنه لتكوين الفأري* ليستخلص الاستدلالات المنطقية من البحث الحالي بحيث يتوقع مستقبل نفسه . وفي رأيه ، أن المستقبل واضح . ففي حالة أي كومونولث يصد سلسلة من الأخطار الحادة ، ومن ثم يبلغ إلى مراكز من السيادة والتفوق لا منازع له ، فمن الجلي أن الفيض الغزير من الرخاء من شأنه أن يوجد مستوى معيشة أكثر بذخاً ، و يوجد منافسة حادة للغاية بين الأفراد من أجل المنصب ومظاهر طموح أخرى . وإذا تقوى مثل هذه الميول ، تبدأ عملية انحلال عن طريق التعطش إلى المنصب والسلوك في حياة لا ميزة لها ، كما هو الأمر في مظهر التزور والبذخ في مستوى المعيشة . ويقع عبء هذا التحول على الجماهير ، عندما تمتلئ شموراً بالظلم من جراء الجشع المادي لدى بعض سادتهم ، وعندما تنشام خيلاء زائفة من جراء عدم إخلاص الآخرين طمعاً في مستقبل سياسي . عند هذا الحد ، تشعر الجماهير بالحقن البالغ من هذا كله ، وتستحيل إلى أداة طيعة في أيدي العاطفة ، فإذا هم يطرحون عنهم كل تبعية للطبقات العليا ، بل وحتى المساواة معهم ، ولا يلبثون أن يبرأوا المصلحة العامة على أنها مصلحتهم . وإذا بلغ الأمر هذا الحد ، فإن الكومونولث يكتسب لقباً زائفة من الحرية والديموقراطية ، بينما هو في حقيقة الأمر يرزح تحت عبء (استبداد الجمهور) .

مصدق الكتاب المقدس

(بوليبوس الكتاب الثامن والستون : الفصل الثاني والعشرون^(١) ، بروكوبيوس : الكتاب الخامس . الفصل الثاني والعشرون ١٢ — ٢٢) .

قرطاجنة : ١٤٦ ق . م

لقد ازدهرت قرطاجنة طيلة سبعة قرون منذ تأسيسها الأول ، وكانت سيمة أراض واسعة وجزر وبحار ، وناقست أعظم إمبراطوريات العالم في قوتها الحربية

(١) بعد سياسته مرة أخرى ، من الشرع لدى قدمه آيلان (دراسات رومانية — كتاب أفريقيا الفصل ١٢٢) للنض ،

ودخلها وعدد أفيالها وسفنها ؛ وقاتت تلك الإمبراطوريات في الطاقة والشجاعة لأنها ، حتى بعد أن جردت من السلاح تماما ، صمدت لمدة ثلاثة أعوام في حرب مروعة وحصار قاس . وعندما شاهد « سكيبيو » Scipio هذه المدينة القديمة العظيمة تواجه القضاء الكامل إلى الأبد يقال إنه ذرف الدمع ولم يخف أنه يبكي على المدو . لأنه ظل لمدة طويلة متمسكا بأفكاره الخاصة ، ومحقق من إن المدن والأمم والإمبراطوريات كتبت لها الإرادة الإلهية أن تزول ، وتذكر أن هذا مصير (إليون) Ilion التي كانت مدينة مزدهرة في عصرها ، وأن هذا كان مصير الإمبراطوريات الآشورية والميدية والفارسية ، وكانت كل إمبراطورية منها أعظم إمبراطورية في العالم في دورها ، وهو مصير الإمبراطورية المقدونية ، آخر الإمبراطوريات وأكثرها تألقا . وبدت ذكر بصوت عال سواء عن قصد أو بلا وعي هذه السطور :

سوف يبرز يوم الدينونة ، وفي ذلك اليوم

سوف تزول مدينة إليون المقدسة ،

وزول بربام الرماح العظيم ، ورب

شعب بربام في نظامه الأبى .

وقد سأله « بوليبيوس » وكان تلميذا له ، في عبارات كثيرة عما يقصده

بالسطور السابقة. وقال إن « سكيبيو » طرح كل تحفظ. ونطق باسم بلده ، التي كان ينظر إليه بنشأوم كبير بسبب رأيه في مصير الإنسان^(١) .

روما : ٥٣٧ م

وفي هذه الأثناء شن القوط حملة ثانية ، سوف أشرع في وصفها ، وهي الحملة

مد بوابة (أورليان) Aurelian ويقوم هناك ، خارج هذه البوابة ، وعلى بعد

(١) كان بوليبيوس أول من سجل هذا (آريان) .

رمية حجر ، ضريح الإمبراطور « هادريان » Hadrian ، وهو أحد عجائب الدنيا . وشيد من رخام من نوع جيسد وصبت المابد دون ثغرات بين كتل الأخشاب أو عن طريق سد المادة السفلى بين الأوجه الخارجية والداخلية . وله أربعة جوانب متماثلة يبلغ طول كل جانب مسافة رمية حجر ويرتفع إلى أعلى من سور المدينة . وعلى القمة هناك تماثيل لرجال وخيول ، منحوتة من الرخام نفسه وبصناعة نفيسة . وكان هذا الضريح يعتبر بمثابة معقل للمدينة وعلى هذا أحاط به القداماء واعتبروا مضمن التحصينات ، وذلك ببناء جدارين حاجزين يمتدان إلى الضريح من السور . والحق أن الضريح يشبه رجاً شاهقاً إلى جانب البوابة في هذا القطاع

وبادر القوط بشن هجومهم على بوابة أورليان ورج هادريان . دون أن يستخدموا المدفعية ، ولكنهم أحضروا عدداً من السلام المتحركة ، على أمل أن يشلوا حركة العدو بشكل أكثر فعالية بتركيز إطلاق نيران الأسلحة الصغيرة وذلك كي يقهروا الحامية الضعيفة دون صعوبة . وتقدموا متسترين وراء تروسهم ، التي كانت كبيرة كذلك التي تستخدم بين صفوف الفرسان ونجحوا في الوصول إلى مدى قريب لمقاومة القوة قبل أن يكتشف أمرهم ، وذلك بالاحياء بالدير الذي يمتد إلى معبد « بطرس الرسول » Peter the Apostle . لقد كشفوا الفطاء وأطلقوا هجومهم فجأة حتى إن المدافعين لم يكونوا غير قادرين على أن يجعلوا (مقاتليهم)^(١) تقوم بدورها (وهي أسلحة تصيب فقط أهدافها على مستوى يرتفع) أو حتى أن يردوا على المهاجمين بأسلحتهم الصغيرة إذ أن تروسهم أبطلت مفعول هذه الأسلحة وشدد القوط من هجومهم ، واكتسحوا الماقل بقذائفهم ، وكانوا عند الحدود التي يضمنونها السلام على الجدران . إن المدافعين عن الضريح وجدوا أنفسهم محاصرين تقريباً ، ولا يعرفون أى طريق يسلكون ، وواجهتهم القذائف من الجناح والمؤخرة ؛ وظلوا لحظات حائرين

(١) مثل ... المدفعية الثقيلة التي ترمى كتلا كبيرة من الأخشاب . (المحقق).

لا يدرون كيف ينقذون أنفسهم من وضمهم المحفوف بالخطر دون كوارث ، وإنما كان الأمر ، فلم يلبثوا طويلا ، قبل أن يفتقوا بدرجة تكفى لتحطيم غالبية التماثيل التى كانت ذات حجم كبير ، ورفضوا قطع الرخام الكبيرة فى كلتا اليدين ، وأسقطوها بشكل عمودى على رؤوس المدو التى تهشت فرد الاسطدام بالأحجار .

الموت ينهى المشكلة

(بلوتارك الخيرونى Plutarch of Chaeronea ٤٦-١٢٥م- حيوات متوازية نص. توينتر تحقيق ك. سنتينس C. Sintenis المجلد الثالث ص ٢٧٠ - ٤ حياة بومبيوس ماجنوس الفصول ٧٧ - ٨٠) .

عندما استنفدت خطة البحث عن مأوى فى مصر طوال اليوم ، أبحر « بومبيوس » وزوجته من قبرص فى سفينة حربية سليوفية Seleucian ، وكان جزء من الحاشية يصحبه على سفن حربية أخرى وجزء آخر على سفن تجارية . وبعد رحلة هائلة عبر البحر الكشوف ، تلقى تعليمات تقول بأن الملك « بطليموس » يسكر فى (الفرما) Pelusium مع القوات المسلحة ويباشر عمليات حربية ضد أخته. فأقام هو أيضاً (بالفرما) ، بعد أن كان قد أرسل مبعوثاً إلى الملك سلفاً ليشرح مركزه ويسأله المعونة . وكان « بطليموس » نفسه لم يزل طفلاً ، إلا أن وزيره « بوثنوس » Pothinus الذى كانت فى يده كل السلطات ، استدعى مجلس الدولة ، وكان به مستشار خاص يمثل صورة أخرى من « بوثنوس » ، وأعلن فتح باب المناقشة لكافة الأعضاء الحاضرين. وإنها لإهانة بالغة أن يصبح مصير بومبيوس ماجنوس موضع جدل بين خصى مثل « بوثنوس » وأستاذ بلاغة أجير مثل « ثيودوتس الخيوسى » Theodotus of Chios ومصرى مثل « أخيلاس » Achilles الذين كانوا المستشارين الأساسيين فى هذه المجموعة النبيلة من رؤساء الحجاب والخدم الخصوصيين؛ وبينما هو ينتظر هذه المحكمة حتى يتلقى حكماً اضطر « بومبيوس » الذى أبت عليه كرامته أن يهب حياته لقيصر ، إلى أن يرسو على مرأى من الشاطئ . وقد

انقسم المجلس فى مجموعه إلى رأيين ، أحدهما إلى جانب رفض التجاء بومبيوس والآخر إلى جانب دعوته واستضافته . وأيما كان الأمر ، فإن « ثيودوتس » Theodotus ، آثر أن يعلن قدرته الجدليلة والقانونية فأدان الاقتراحين على اعتبار أنهما يتغلوان على غمطر بالغة . فإذا ما استضافوا بومبيوس ، فلهم يجلبون على أنفسهم عداة قيصر وبصير بومبيوس بمثابة السيد لهم ؛ وإذا ما رفضوا إيواؤه ، فسوف يصبحون مسئولين أمام بومبيوس نفسه لأنهم طردوه ، ومسئولين أيضاً أمام قيصر لأنهم فشلوا فى القبض عليه . فأفضل مسلك هو استدعاؤه للمحاكمة وبدئذ يتخلصون منه — وهو حل من شأنه أن يستميل إليهم أحد الجانبين ويريمهم من كافة مخاوف الجانب الآخر . ويقال إن الخطيب أضاف قائلاً وهو يتسم « إن الوقت لا يمضون » .

وتبنى المجلس اقتراح « ثيودوتوس » وأوكل تنفيذه إلى « أخيلاس » . فأخذ « أخيلاس » معه أحد ضباط بومبيوس القدامى ويدعى « سبتيموس » Septimu. وضابطاً على الاستبداد يدعى « سلفيوس » Salvius وثلاثة أو أربعة جنود اتصال ، وأبحروا نحو سفينة بومبيوس . والذي حدث ، أن جميع الأعضاء الرموفين تقريباً من حاشية بومبيوس سعدوا إلى ظهر السفينة ليمرؤا ماذا يجب أن يعملوا ، وعندما لم يروا شيئاً يتم عن الاستقبال اللائق بالتقاليد الملكية والتي علق عليها « ثيوفان »^(١) Theophanes آماله ، ولم يجدوا سوى نفر قليل يجذفون فى قارب صيد ، أحسوا بأن عدم المجاملة لها دلالتها ، فنصحوا « بومبيوس » بأن يجذف عائداً وأن يقف ليرام وهم بعيداً عن متناول أيديهم . وأيما كان الأمر ، فقد اقترب القارب وقتئذ بدرجة مكنت « سبتيموس » أن ينفرد من دونهم ويرتفع على قدميه ويحى بومبيوس باللغة اللاتينية ويناديه بلقب (الجنرال) . وحياء « أخيلاس » أيضاً باليونانية ودعا إلى أن ينتقل من السفينة إلى قارب الصيد . وأوصح أن هناك مسافة طويلة من الماء الضحل مليئة برمال مترسبة بحيث إن سفينة لها مثل قوة

(١) سكرتير بومبيوس اليتيمى (اللحق) .

السفينة الحربية لا يتيسر لها أن تعبرها . وعند هذا الحد ، لاحظ أن بحارة بعض سفن الأسطول المصرى يتحركون إلى مراكزهم ، والمشاة يحتلون الشاطئ ، وعلى هذا لم يكن هناك وقت للهرب ، حتى لا يفيروا رأيهم ، وكان هناك اعتبار آخر وهو أن أى محاولة لعدم التزام الهدوء قد يكون من شأنها أن تعطى أى راعب فى القتل عدراً لتنفيذ خطته الرميّة . وعلى هذا طلب بومبيوس أن يودع « كورنيليا » Cornelia ، التى شاركت زوجها نهايته متأسبة ، وأمر اثنين من ضباطه على الاستيلاء على واحد رجاله وكان قد أعتقه ويدعى « فيليب » Philip وأحد أتباعه « ثكيثس » Scythes ، أمرهم أن يسبقوه إلى القارب . وكان أخيلاس وصحبه يحمونه من القارب ، وعندما استدار إلى زوجته وابنه كرر آيات « سوفوكليس Sophocles » :

من يتعامل مع الطاغية ، فهو
عنده دائماً ، أيا كانت درجة حرته

وكانت هذه آخر عبارات نطق بها إلى أسرته قبل أن يرحل .

وعلى الرغم من أن المسافة من السفينة إلى الشاطئ كانت لا بأس بها ، إلا أنه لم توجه إليه بادرة واحدة ثم على صداقة من معه ، فنظر بومبيوس إلى سبتيموس قائلاً : « لعلنى بالتأكد غير مخطئ . فى أنك رفيق قديم فى السلاح ؟ » واكتفى سبتيموس بأن أوماً بالإيجاب دون أن يضيف كلمة أو يبدر منه ما ينم عن الصداقة . وأعقب ذلك فترة صمت أخرى ، كان يدرس فيها « بومبيوس » حديثاً باللفة اليونانية كان قد أعدّه فى مفكرة صغيرة واعتزم أن يلقيه أمام بطليموس . وعندما اقتربوا من الشاطئ ، بدأت « كورنيليا » التى كانت مع أصدقائها على ظهر السفينة الحربية ، تترنخ وهى ترتب باضطراب بالغ تطور الأحداث ، بدأت تشجع عندما رأت عدداً ضخماً من الحرس الملكى يتجمع فى مكان الرسمى وكأنهم يشكلون حرس شرف . وفى تلك اللحظة ، تلقى بومبيوس ، الذى كان يستند إلى يد فيليب لتساعده على الخطو ، أول طعنة فى ظهره من سيف سبتيموس ، التى كانت بمثابة

إشارة إلى سالفيوس وأخيلاس بأن يمتشقا أسلحتهما . فدفع بومبيوس عبائته بكلتا يديه إلى وجهه ، وزفر أنه واحدة وتلقى الضربات المستمرة ، دون أن يقول كلمة أو يأتي عملاً لا يتفق مع شخصيته وكان في عامه الستين ، ومات في اليوم التالي لعيد ميلاده .

وعندما رأى الفريق الذى كان على ظهر السفينة جريعة القتل ، أطلق ولولة سمّت من الشاطئ . ورفعوا المرساة بسرعة ليضمنوا نجاحهم . وأنعشتهم نسمة باردة عندما أصبحوا في عرض البحر وأعافوا المصريين من الباعث الأول لطاردتهم . وقطع القتلة رأس بومبيوس وألقوا بالجثمان عارياً خارج قارب الصيد على الشاطئ . حيث تركوه ليشاهده الحشد الفضولى للرؤية . وظل فيليب يحرسه حتى شبع عيونهم من رؤيته . وغسله في البحر ولفه في بعض ثيابه الداخلية . وما أن وجد نفسه دون أى مطالب أخرى ، فقد بحث حول الشاطئ فوجد بقايا قارب صيد صغير ، وعلى رغم تأكله ، كان يكفي ليكون الوقود اللازم لهاية جثة عارية معطبة . وبينما هو يصنع هذا كله في كومة ، اقترب منه رجل عجوز له جنسية رومانية ، كان قد خدم في صدر شبابه في حملة بومبيوس الأولى ، وقال له « سيدى ، أرى أنك تتأهب لدفن بومبيوس ماجنوس ، فهل لى أن أسألك من أنت ؟ وعندما أخبره فيليب بأنه كان عبداً وأعتقه بومبيوس ، استطرد الرجل المعجوز قائلاً : « ولكن عليك ألا تنفرد بهذا الشرف ، وأتوسل إليك أن تقبل معونتي فهذا ليس واجباً مقدساً لحسب ولكنه ثواب لم أكن أتوقمه ، ومن شأنه أن يميزني بعض الشيء في منفاى عن وطنى . وإن التجارب التى مرت بها قد ردت لى الجزاء الوحيد الذى أشترك مع هذه الأيدي فى المراسم الأخيرة لأعظم جنرال خدم الرومانيون تحت إمرته . . . » وهكذا لقي بومبيوس شعائر الدفن ووصل في اليوم التالى « لوكيوس لنتولوس » Lucius Lentulus من قبرص وهو يجهل ماحدث ، وكان يحوم حول الشاطئ ، عندما رأى جثتان يحترق على عرقة ويقف فيليب إلى جواره . وقبل أن يتمكن من التعرف عليه ، صاح « من داك الذى أوى مصيره ووجد راحته في هذا المكان البائس ؟ » واستطرد بدهشة

قصيرة بآنة مؤلة: « لعلك أنل باومببوس ماآنوس » . وذهب بعد دقائق قليلة إلى انشاعى ، وألقى القبض عله ، وواجه مصبر قائده .

وهكذا كانت نهاية بومببوس . وعندما وصل قيصر بعد ذلك بفترة ليست طويلة إلى مصر يفوح منه دنس هذه الجريمة النكراء استدار فى اشتراز من الشخص الذى جاء يقدم له رأس بومببوس وبكى عندما وضع فى يده خاتم بومببوس . وكان الشعار على الخاتم هو أسير يحمل سيفاً . فأعدم قيصر أخلاص وبوثنوس ، بينما هزم الملك فى البلاد المجاورة للنيل ولم يعد يشاهد مرة أخرى . أما « ثيودوس » (مصلح العقول) فقد أفلت من عذالة قيصر بالمهرب من مصر وأصبح منبورا مشرداً . وبعد ذلك ، فإن « ماركوس بروتس » Marcus Brutus الذى قتل قيصر وتولى زمام السلطة اكتشف ثيودوس فى آسيا الصغرى وأعدمه بالتعذيب المتواصل . ووضعت بقايا بومببوس تحت تصرف « كورنيليا » وقامت بدفنها فى ألبانو Albano .

ختال الزمن

(بولببوس : الكتاب السادس : الفصول ١٠٢ - ١٠٤)

ملك الإطالون تفوقاً فطرياً على الفينيقين والبرابرة سواء فى القوة البدنية والشجاعة النفسية ؛ إلا أنهم أيضاً يستثرون بشكل كبير نحو شبابهم فى هذا الاتجاه بالترديبات التى يقدمونها لهم . ووصف نظام واحد يكفى كثال على الجهود التى تبذلها مجموعة الكومونوك الرومانى لتربى الرجال الذين تقدم لتحمل كافة الأمور من أجل اكتساب الشرف والمجد فى نظر مواطنهم .

فمنما يرل أحد رجالهم البارزين عن هذه الحياة ، يشتمل احتفال الجنائزة على مركب يكون فيه الجثمان - وغالباً ما يكون متصبباً ومكشوقاً ، ونادراً

ما يكون مضجماً - معمولاً على ما يسمى عندهم (بالرس) ^(١) Rams (الساحة) . ويتجمع حوله كل الناس ، ويستل الخطيب ^(٢) النصرة ويلقى خطاباً عن شخصية الفقيد وحياته . وهو بهذا السرد يثير ذكرى حية عن الماضي في أذهان الجمهور ، بما فيهم أولئك الذين لا تربطهم صلة بالتوفى ومن شاركه أعماله ، ويخلق مثل هذا التماطف قوة لدرجة أنهم يشمرون بأن المصاب خسارة عامة ليست مقصورة على النائحين . وعندما تنفض الجنازة بسد ذلك ، تقام الشعائر المعتادة ، ويضعون (نظيراً) للتوفى ، داخل تابوت صغير من الخشب ، ويضعونه في مكان الشرف بين الأسلاف . وهذا النظر عبارة عن النصف الأعلى وقد تم تسميته بطريقة واقعية دقيقة وصادقة في الخطوط الخارجية والنمط . وكانت هذه السلسلة من (النظائر) يرفع عنها الستار في مناسبة الأعياد العامة التي تزدان بمباراة رقيقة ، وعندما يتوفى عضو بارز من المجلس النيابي ، يستعرضون هذه (النظائر) في الكوكب الجنائزي ، ويختارون أشخاصاً من أكثر الناس شبيهاً بالتوفى الأصلي ، في الطول والهيئة ، ويحظى هؤلاء بشرف ارتداء هذه (النظائر) . ويتقلد هؤلاء المشخصون الأزياء المناسبة - فإذا ما كان الشخص الأصلي فصيلاً أو قاضياً كانت الملابس بيضاء ذات أطراف قرمزية ، وإذا ما كان رقيباً فهي قرمزية كاملة وإذا ما كان التوفى قد اشتهر بنصر رسمي أو حصل على أوسمة الشرف فيرتدى الشخص نيشاناً أبيض مذهباً . ويركب المشخصون أنفسهم في عربات ، تسبقها الصولجانات والفئوس والشعارات الأخرى التي هي من لوازم مناصب الدولة العليا ، بما يتفق مع المرتبة الرسمية التي حصل عليها في حياته الشخصية التي يقومون بتمثيلها . وعندما يصلون إلى النصرة يأخذ الجميع أما كنهم حسب الأولوية على عروش عاجية ، وليس من اليسير أن نتصور مشهداً يدخل السرور على الشاب ذي الأخلاق الطيبة والطموح السليم أكثر من هذا المشهد . ومن ذا الذي لا يتأثر

(١) هي منصة مزينة بمناجيق سفن الفريسيين الحربية المستولى عليها . (المحقق) .

(٢) عادة ما يكون ابن الفقيد إذا ما كان على قيد الحياة وتصادف وجوده في روما ،

أو ينوب عن الابن ، أي قريب آخر . (المؤلف) .

برؤية نظائر الرجال موضع التبجيل والحفاوة في الماضي ، تتجمع أمام عينيه بكل أنفاس الحياة الفعلية ؟ وأي مشهد يمكن أن يكون أكثر تأثيراً من هذا المشهد؟ وبعد ذلك ، فإن الخطيب الموكول إليه أن يلقي الخطاب الحنازري لا يقصر حديثه على الفقيد ، وإنما يتمدها ، بعد أن يوقى الفقيد حقه ، إلى سرد النجاحات وأعمال الأسلاف الأول ، بادئاً بالأولين ، الذين يخدم هذا التذكير الدائم لمجد التوفى ، وشهرة جميع الذين امتازوا بأى عمل نبيل ، وأما قصة أولئك الذين استأهلوا خير بلدهم فإنهم يصبحون كلمة وطنية تتلقاها الأجيال المقبلة . وأما هذا كله ، أنهم يستثيرون الشباب إلى تحمل كل الأشياء من أجل الصالح العام ، على أمل اكتساب الشهرة التي لا تفشل في أن تلحق بأولئك الذين يستحقونها .

القسم الثاني

الكبرياء والقصاص والحسد عند الآلهة

(Hybris, Ate, Phthonos)

(هويريس وآت وفثونوس)

(الرواية المعتمدة)

(هيرودوت : الكتاب السابع . الفصل العاشر) .

من « أرتابانوس » Artabanus إلى « كركسيس » Xerxes :

« إن الحكم الحق ، حسب خبرتي ، أكثر قيمة من أى عمل آخر . فإذا ما طرأ عمة خطأ ، فإن صواب الحكم الأصيل يظل دون أن يتأثر ، ويعزى فساد مسماء إلى الخطأ . وعلى النقيض ، فإن الحكم السيئ . قد يعنى ثمرة غير متوقعة إذا ما أثر الخطأ أن يكون فى صالح النتيجة ، إلا أنه لا يعدوا أن يكون حكماً سيئاً . فأنت ترى كيف أن الرب يقصف بمساعته الحيوانات التي تفوق زميلاتها وكيف أنه لا يتحمل أن يراها تبرز على السطح ، بينما الحيوانات الصغيرة ، لا تثير اهتمامه أبداً ، وأنت ترى أيضاً كيف أنه يوجه سهامه بشكل ثابت إلى أعلى المنازل وأطول الأشجار . فإن الرب يحب أن يقصف

كل شيء يستعمل على نوعه . وبهذه الطريقة ، فإن جيشاً كبيراً يدمره جيش صغير في ظروف معينة — على سبيل المثال عندما يرسل الرب ، في حالة تقمته ، الهلع أو البرق إليهم . عندئذ يهلكون ، ولا تكون نهايتهم متفقة مع بدايتهم . إن الله لا يقبل أن يرى أحداً متكبراً سواء .

حكمة سولون Solon

(هيرودوت : الكتاب الأول . الفصول ٣٢ — ٣٤)

كان « كرويسوس » Croesus حاكماً للناية من ملاحظات « سولون » التي تتعلق بالسعادة الإنسانية حتى إنه قال : « سيدى العزيز ، هل سعادتي تافهة بهذا الشكل الحقيقى بالنسبة إلى عقلك الآتيى إلى حد أنك تضنى بالفعل في درجة أقل من أفراد بذاتهم ؟ فأجاب سولون « مولاي ، إننى أعلم بحقيقة أن الطبيعة الإلهية تنتقم بشكل ثابت وهي مدمرة أيضاً ، وبعدئذ فأنت نسألنى عن الحياة الإنسانية ، إن مرور الزمن يجلب مناظر كثيرة غير سارة وخيرات كثيرة غير سارة إننى أقدر فترة الحياة الإنسانية المادية بسبعين عاماً : وتبلغ هذه السنوات السبعون (بعد احتساب الشهور جيماً بثلاثين يوماً) إلى ٢٥٠ و ٢٥٠ يوماً ، أو بدلاً من ذلك ، إذا ما احسبت كل سنة ثانية على أن بها شهراً أطول ، من أجل أن تنتهى السنة التقويمية متطابقة مع السنة الفلكية ، وأن عدد الشهور الكبيسة ، خلال فترة سبعين عاماً تبلغ ٣٥ شهراً ، تحتوى على ١٠٥٠ يوماً . ومن بين هذه الأيام كلها التى تكون السبعين عاماً والتي تبلغ في مجموعها ٢٦٠ و ٢٥٠ يوماً ليس هناك يوم واحد ينتج عنه أى شيء يشبه تماماً نتاج يوم آخر ، وعلى هذا ، يا مولاي ، فإن الإنسان ليس شيئاً سوى البلاء . وإننى أتصور أنك شخصياً غنى جداً وأن لديك عدداً كبيراً من الرعايا ، إلا إننى لا أستطيع أن أمنحك بعد اللقب الذى تهدف إليه من تساؤلك ، قبل أن أسمع أنك محظوظ في نهايتك . إن المليونير ليس أكثر سعادة بأية حال من جاؤه الذى يعيش من يده إلى فمه مالم يحالفه الحظ ويقوده إلى نهاية سعيدة دون ظل على أفقته . وكثير ممن تترام لهم

لللايين غير سعداء ، وكثير من متوسطى الحال محظوظين . إن المليونير غير السعيد له ميزتان ، وميزتان فقط أكثر من الرجل المحظوظ حقيقة . حيث إن الأخير ميزات لا تخصى على المليونير غير السعيد . وأمام المليونير فرصة لإرضاء رغباته وتحمل ضربات الكارثة الكبرى ، إلا أن الميزات التالية يتمتع بها الآخر . فالكوارث والرغبات التى لا يكون الأخير مهيباً لها مثل المليونير تتحول عنه بفعل قالة الحسن . يضاف إلى ذلك قم البدن الكامل ، والمناعة من المرض ، والبعد عن المتاعب ، وأسرة ذات أطفال لطاف ؛ وحسن العشر . وإذا مانجى فى تنويع هذه النعم بأن يصادف نهاية طيبة ، عندئذ ياملأى ، فإنه هدف لبحثك أو بعبارة أخرى ، يحق أن يقال عن هذا الرجل إنه سعيد . وأما كان الأمر ، فملى أن أحتفظ بحكمى حتى أرى نهايته ، وأن أطلق عليه لقب (محظوظ) لا (سعيد) . إن قائمة النعم كلها المذكورة آنفا لا يمكن أن تتجمع بالطبع لدى كائن بمفرده كما أن أى قطعة من الأرض لا يمكن أن تحقوى على كل أنواع الإنتاج . إن قطعة الأرض قد يكون بها أحد الضروريات وتفتقر إلى الأخرى . وأفضل قطعة أرض يبساطة هى تلك التى يكون بها أكبر عدد من الميزات . وكذلك فإن الفرد الإنسانى ليس وحدة ذات اكتفاء ذاتى ، بل قد يملك إحدى القوازم ويفتقر إلى الأخرى ، والإنسان الذى يحوز أكبر عدد من الضروريات لأطول فترة ، وبالتالي يصادف نهاية طيبة ، سوف يكون له ، ياملأى ، حسب تقديرى الحق فى لقب السعادة . ولكى تقيم أى ظاهرة ، يجب أن توجه الانتباه إلى الظروف التى نصادفها فى نهايتها . ولقد أعطى الله ، أناساً كثيرين قبس السعادة كى يحطمهم أصلاً ونوعاً .

ولم تلق ملاحظات سولون ميولا على الإطلاق من جانب كرويسوس الذى طرد الفليسوف بازدراء ، باعتباره رجلاً ليس لديه أية فطنة ، بسبب مبدأ ، فى عدم اعتبار القيم الحالية ومدح كل ظاهرة حسب نهايتها . وأما كان الأمر ، فبمدرجىل سولون ، أخذ الله كرويسوس بعقاب شديد — ويحتمل أن يكون ذلك لأنه جازف فاعبر نفسه أسعد أبناء الجنس البشرى .

درس بوليقراط Polycrates

(هيرودوت : الكتاب الثالث : الفصول ٣٩ - ٤٣ و ١٢٢ - ١٢٥)

فرض « بوليقراط » بن « أيكس » Aeaces نفسه سيداً على (ساموس) Samos نتيجة انقلاب . وفي البداية قسم البلاد إلى ثلاثة أقسام وأعطى منها قسمين إلى أخويه « بانتاجنوتوس Pantagnotus » و « سيلوسون » Syloson ، ولكنه بعد ذلك قتل الأول ، ونمى « سيلوسون » ، أخاه الأصغر ، وفرض نفسه سيداً على (ساموس) بأسرها ، وشرع عن طريق تبادل الهدايا في عقد (اتفاق) مع « أمازيس » Amasis ملك مصر . وفي فترة صغيرة لا تذكر أقام بوليقراط دولة امتدت رهبتها على كل (أيونيا) Ionis وبقية هيلاس . وأياً كانت الأهداف التي اختارها لملكانه فقد كانت ناجحة بشكل ثابت . ونظم مائة سفينة من ذات (الخمين مجدافاً) وألفاً من رماة السهام ، ونهب جميع القادمين دون تمييز ، ولعل من العلامات الصالحة لهذا ، أنه كان يقدم منعمة أكثر إلى الصديق بأن يرجع له ما أخذ منه بدلاً من أخذه إلى النهاية . لقد استولى على جزر عديدة ومدن برية كثيرة . وكان أحد مفاعه أنه هزم وأسر كل أسطول (لسبيا) ، الذي جاء لمساعدة (ميلتوس) Miletus . وقام هؤلاء السجونون ، وهم في القيود ، بحفر الخندق كله الذي يحيط بمدار مدينة (ساموس) . وأبما كان الأمر ، فإن نجاح بوليقراط الكبير لم يخف تماماً عن أعين « أمازيس » ، ولكن المجلس الهب اتبناه ، وعندما استطرد النجاح يزداد بوثباته وقدراته كتب « أمازيس » في النهاية إليه الخطاب التالي ، الذي أرسله إلى (ساموس) :

« يقدم أمازيس الملاحظات التالية إلى بوليقراط . إن نجاح صديق وحليف يعتبر خيراً ساراً ، إلا أن نجاحاتك الكبيرة لا تسرنى ، إذ أننى أعلم بحقيقة ، أن الرب له طبع حسود ، إن الوضع كما أنصوره ، بالنسبة لنفسى كما هو بالنسبة لأولئك الذين أهتم بهم ، هو أن تنجح في بعض الأمور وتقتل في الأخرى ، وأن تمر في تقلبات الخط خلال الحياة أكثر من أن تستمتع بسلسلة لا تنتقطع من النجاح .

ولم أسمع بعد عن أى واحد تتمتع بنجاح غير منقطع دون أن يأتى بسد ذلك إلى نهاية سيئة وأنه اقتلع من جذوره وفروعه فغذ نصيحتي وأمن نجاحك بالطريقة التالية. « ابحث في أفكارك حتى تثر على الشيء الذى ادخرت له أعظم الأمور والذى إذا خسرت به سبب لك كربة حادة ، وبعدئذ تخلص من ذلك الموضوع بطريقة فالة حتى لا تراه بعد ذلك عيون البشر . وإذا لم تجد أن نجاحك قد تبدل بسد ذلك إلى فشل ، فاستمر في البحث عن علاج في الحدود التى اقترحها عليك » .

وعند قراءة هذا ، أيقن « بوليقراط » أن « لامازيس » يقدم له نصيحة حقة ، وبدأ يبحث في أفكاره حتى يكتشف فيما يكتنز ، عما يحزنه إذا ما فقد . وقاده بحثه إلى أن يتوقف . عند خاتم ذهبي مطعم بالزمرد ، يرتديه عادة ، وصنمه « تيودور » بن « تلسكيس » الساموسى . وقرر أن يتخلص من هذا الخاتم ، وفى النهاية اتخذ الخطوات التالية . أعد سفينة ذات خمسين مجدافاً بالجند ، وركب السفينة ، وأمر بأن تقف به فى أعظم مكان من البحر . وعندما وجد نفسه بعيداً عن الجزيرة ، خلع الخاتم وألقى به فى البحر العميق على مرأى من حاشية السفينة كلها . وبعد هذه العملية عاد إلى الميناء ، وإلى البيت ، وكان أسفاً جداً على نفسه . على أية حال فبعد خمسة أيام أو ستة حدث أن جاء صياد كان قد التقط سمكة لطيفة كبيرة ، واعتقد أنها هدية تليق لبوليقراط . وعلى هذا حضر بها إلى الباب ، والتبس أن يقابل بوليقراط شخصياً ، وعندما تم له هذا ، قدم السمكة لبوليقراط قائلاً : « مولاي ، على الرغم من أنني أعيش على الصيد ، حرفتى ، فإننى لا أشعر بأننى الحق فى أن آخذ هذه السمكة التى اصطدتها إلى السوق . وهى جديرة بجلائلك يامولاي ، ولهذا فقد أحضرتها هدية إليك » . وأبتهج بوليقراط بالحديث وقال « لقد أتيت أمراً طيباً فعلاً ، وأنا مدين لك مرتين ، مرة على هديتك وأخرى على بلاغتك . فأدعوك للقاء معى » . وغداً . إلى بته ممنوناً جداً ، إلا أن الخدم عندما فتحو بطن السمكة ، وجدوا اتفاقاً فيمدها — وهو خاتم بوليقراط — فدمروه له وشرحوا كيف وجدوه . وأذهل الحديث لبوليقراط على اعتبار أنه عمل

للطبيعة ، ولذا فقد كتب كل ما فعله وما حدث بعد ذلك في خطاب ، أرسله إلى مصر . وعندما قرأ « أمازيس » خطاب « بوليقرات » ، تأكد أنه من المستحيل على كائن بشرى أن ينقذ كائناً آخر من مصير يرتقبه ، وأن بوليقرات تنتظره نهاية غير سارة ، فتجاهه متصل ووجد ما ألقى به بعيداً . وعلى ضوء هذا ، أرسل مذكرة إلى ساموس ينقض الاتفاقية ، وكان يهدف من هذا التصرف أن يبرأ مشاعره من الأشجان ، إزاء صديق وحليف ، عندما تعيب بوليقرات كارثة ماحقة .

وأرسل « أورويتيس »^(١) Oroetes ، وكان قد اتخذ مراكزه في مدينة (ماجنيزيا) Magnesia على (مايندر) Maeander ، أرسل « مرسيس اليلدي Lydian Myrsus » بن « جيغيس » Gyges في بثة إلى ساموس . وكان « أورويتيس » قد قرأ أفكار « بوليقرات » ، إذ إن « بوليقرات » كان أول هيلينى في الأزمنة التاريخية يتطلع إلى السيطرة على البحر^(٢) . وبارك « أورويس » هذا التطلع وجعل مبعوثه يحمل المذكرة التالية :

« يقدم أورويتيس الملاحظات التالية إلى بوليقرات . لقد نما إلى على أن لديك مشروعات هامة في تناول اليد ، إلا أن مواردك المالية لا تتناسب مع مطامحك وعندى اقتراح ، في قبوله كافة وسائل النجاح لك والخلاص لى . ولدى معلومات تفيد بأن الملك « قبيز » Cambyses يتأمر على إعدائى . ويمكنك أن تنفذ شخصى وكنزى من هذا المصير ، وسوف يكون لك جزءاً من هذا الكنز إذا ما تركت جزءاً لى ، وعندما يتوفر المال سوف تكون سيد هيلاس بأسرها . وإذا كنت غير واثق بمجدئى عن الكنز ، فأرسل أكثر مستشاريك ثقة ، وسوف أقدم له بهائناً غنياً . وأهيجت محتويات هذا الخطاب بوليقرات ، والهبت عزيمته . . وقد كان

(١) الوالى الفارسى ، أو باشا ليديا ، حاكم (ايدن) Aidin الحال . (المحقق)

(٢) وإذا ما تركنا جانباً « مينوس من كنوسوس » وكافة الآخرين الذين قد يكونون قد سيطروا على البحر من قبله . وفي الفترة غير الأسطورية فإن بوليقرات كان هو الأول ، وكانت لديه آمال جادة لإقامة سيطرته على أيونيا والجزر . (المؤلف) .

يستويه المال جداً ، فأرسل سكرتيره ، الساميانى « ما يندروس » Macandrus ابن « ما يندريوس » فى بعثة تمهيدية للتفتيش^(١). وما إن سمع « أوروپتيس » بأن المستطلع فى الطريق، حتى أعد عدته ليخذه فلا تخافه سناديق بالحجارة ، فيما عدا مسافة قليلة أسفل جوانبها ، غطاها بطبقة من الذهب . وأغلقت السناديق بمد ذلك ، ووضعت مهياة لاستخدام « ما يندروس » ، الذى حفر على التو وغص السناديق وأعد تقريره إلى بوليقرات .

وتها « بوليقرات » ليقوم فوراً بالرحلة بنفسه ، متجاهلاً تحذيرات كهنته^(٢) وأصدقائه ، وكذلك الرؤيا التى رآها ابنته ، ومؤداها أنها حلت أنها رأت والدها معلقاً فى الفضاء ، وزبوس يسله والشمس تدهنه . وجعلتها هذه الرؤيا تفعل كل شئ مستطاع حتى تمنع أباه من الذهاب لزيارة أوروپتيس ، وذهبت إلى أبدمن ذلك فقهرت ببارات سيئة الطالع^(٣) عندما كان والدها فى طريقه إلى سفينته (ذات الخسفين مجدافاً) فزجرها بوليقرات مهدداً ، بأنه إذا ما عاد آمناً وسليماً ، فلن تتوقع زواجاً مبكراً — فأثرت الفتاة أن تصدق هذه المبارات ، لأنها كانت تود بسرور أن تؤجل زواجها مقابل عدم فقدان والدها . وأيا كان الأمر ، فإن بوليقرات أصر على الإبحار إلى بلد أوروپتيس على الرغم من كل نصيحة ، وأخذ معه طاقاً كبيراً ، ضم الطبيب « ديموكاديس » Democades بن كاليون الكروتونى Calliphon of Croton ، أحسن طبيب فى عصره . وعند وصوله إلى (منيزيا) ، لقي بوليقرات مصيراً رهيباً لا يتفق مع شخصيته وآماله^(٤)

(١) انه مايندروس ، الذى قام بعد فترة ليست بعيدة بعد ذلك ، بإهداء الجهاز التفتيشى لمجلس دولة ولقرات لى ميد (هيرا) (المؤلف) .

(٢) اعتادوا أن يجنبوا بالمستقبل بنفس هيئة الطام وأماء الذبايح . (الحق)

(٣) (تمس) بالمسئ القى (سى) - الطالع) وكان اعتقاداً حليماً شائماً ، أنه فى الأوقات المرحجة ، تكون الكلمة المنطوقة لها تأثير خارق للطبيعة أو تدخل فى تقرير مجرى الأحداث بشكل آلى . (الحق) .

(٤) مع استثناء وحيد لطناة سيرا كوز ، فلا يمكن مقارنة أحد من الطناة الهلينيين ببوليقرات فى فضامته . (المؤلف) .

ويعد أن تم إعدامه^(١) (وهذه تفاصيل تخطيطها) صلب «أورويثيس» جثاته ، وإذ هو معلق على الصليب ، تمت رؤيا ابنته بمخافاتها . لقد غسله «زيوس» عندما أمطرت الدنيا ، ودهنته الشمس عندما أفرز الندى من جسده . وكانت هذه نهاية نجاح بوليقرات الذي لا يمكن حصره .

الرواية المنقحة

ايسخولوس الأثيني Aeschylus of Athens

٥٢٤/٥٢٥ - ٤٥٦/٤٥٥ ق.م . الأعمال . نص

أ كسفورد ، تحقيق سرجوك A. Sidgwick أجامموني

أبيات ٧٥٠ - ٧٨١

كلمة شياء تعيش على السنة البشر

منذ صباح زمن غابر

سوف تذوب ثروة الإنسان لأنها من الشمع الخالص

وهي لا تأخذ ممها الأطفال لحسب وإنما الأبناء أيضاً

والدموع القلقة والقلب الكبير

تولد بمادة بالنة

وفكرت بمفردى وبأفكار أخرى غير خادعة ؛

وها هو ذا العقل غير المقدس ، متولد طفل على طفل ،

وخطيئة على خطيئة ، كمن ولدها - وستكون كما كانوا .

(١) أعتق أورويثيس الأعضاء السامين في حاشية بوليقرات وأمرهم بأن يشكروه على تحريرهم ، إلا أنه أبى على حيازته للثرياء والأرقاء ، الذين عاملهم على اعتبار أنهم من الأمتة . (لؤلؤة) .

ولكن مجدوا الإنسان المستقيم ، وبيته وحياته
مجدوه أيضا ... فأطفاله عادلون
وعندما تأتي الساعة مرة أخرى ، فإن الخطيئة القديمة تود أن تأتي مجدداً .

حيث يضحك القوي بين جموع الناس
وحيث لاحتان يا صديقي ، ولا أحد
ينذف ولا يهلك ، ويتجراً أكثر فأكثر
مسدداً أنه لا يخشى أى شيء مقدس
ونيران الغلة في البيت تلد الحقيقة
مثل ربيما القديم

غير أن السدل يشع في بيت متواضع
والدخان يطلع الجدر
والشرف يأخذ مكانه

إلا أن اليد القذرة على النجم القمى
والسيون تهرب نافرة تبحث
عن أمور غير بريئة ولا تمناً تماماً
بثروة الرجال غير الأعماد . وتسوق
الجميع إلى ساعتها المحتومة

(ترجمة جليبرت مري)

يوم الدينونة

(كسينوفون الأثيني Xenophon ٤٣٠ - ٣٥٤ ق.م - تاريخ الشئون
الهيلينية نصر أ كسفورد تحقيق ك. مارشانت E.C. Marabant . الكتاب
الثاني - الفصل الثاني ٣ - ٤) .

كان وصول (بارالوس) ^(١) Paralus إيذاناً بإعلان الكارثة ^(٢) في أثينا
وانتشر عويل من (البيرابوس) Peirreus خلال الجدران الطويلة في المدينة ،
بانتقال الخبر من شخص إلى آخر . ولم ينم أحد في تلك الليلة . فكانوا ينوحون
على أنفسهم بمرارة أشد ، إلى جانب نحيبهم على الموت ، لأنهم توقعوا أن يحل بهم
الضيق الذي آتاهم بالميلين Melians (الذين كانوا يستمرون الإسرطيين) عندما
حاصروا مدينتهم واستولوا عليها ، وآتاهم بالهستائين Histiaeans والسيكونيين
Sicionians والطورنيين Toronians والأيجيينيين Aeginetans وشعوب
هيلية أخرى كثيرة . وفي الصباح التالي عقدوا اجتماعاً ، قرروا فيه إغلاق كافة
اللوام ، ما عدا ميناء واحدة ، وليتركوا للتحصينات فرصة العمل ، وتوزيع الفرق
وتزويدها بالرجال ، وجعل المدينة في حالة دفاع تام للحصار المنتظر .

الجبار في السرج

(بوليبوس : الكتاب السادس الفصل ٥٦)

أعتقد أن المسألة التي يظهر فيها الدستور الروماني تفوقه العظيم هي الموقف
الذي يتخذه إزاء الدين . وفي اعتقادي أن الطبع السهجن في البلدان الأخرى هو
بافتتاح النظام الروماني ، وأعني به الخرافة . ففي روما بولغ في هذه السمة

(١) (بارالوس) و (سلاجنيا) كانتا أسرع باخرتين في الأسطول الأثيني ، وكانتا
مستعملتان في نقل الإمدادات . (المحقق) .

(٢) معركة (إيجوسبوتاي) ، في الدردنيل وفيها سحق البليونيزيون آخر أسطول
أثيني في عام ٤٠٥ ق.م .

استطاعياً وأدخلت إلى الحياة الخاصة كما هو الحال في الشئون العامة إلى أقصى حد ممكن إدراكه . وبما لاشك فيه أن قرأني سوف يجدون أن هذا غريب ، إلا أن الرومانيين ، في رأيي ، قد فعلوا هذا عن قصد بسبب النظرة إلى الجماهير فإذا ما كان مجتمع يتكون إلى أقصى حد ممكن من المثقفين ، فإن سياسة كهذه تبدو إلا ضرورة لها ؛ إلا أن الجماهير في الواقع متقلبة في كل مكان وتتأثر بشكل هوائي يمثل هذه المواطن غير الاجتماعية على اعتبار أنها مزاج لا عقل وغضب قاتل ، وعلى هذا ، ليست هناك وسائل يمكن أن تقيّمها سوى الرعب الخفي وبجون الخرافة . ومن هذه الزاوية ، أشر أنه ليس هناك شيء اعتباطي أو عدم مسئولية في سياسة آبائنا السالفين عندما قدموا للجماهير مفاهيم الدين ومفاهيم (المجيم) ، ومن غير العقول وغير مطلوب من الجيل الراهن أن يراجع هذه الأفكار . ويمكن إدراك إحدى النتائج السيئة لهذه الخطوة الزائفة في حقيقة مؤداها أنه في البلدان الهلينية ، يوكل إلى ذمة أشخاص في مناصب رئيسية ، مبلغ طفيف من النقود ، وهؤلاء يلتزمون بمشرة توقيعات وأختام كثيرة وضعت هذا العدد من الشهود ، ومع كل ذلك فهم جديرين بالثقة ؛ بينما في روما ، فإن الناس الماديين لديهم مقادير كبيرة من المال في الإدارات أو البعثات الدبلوماسية لجرد ضمان قسمهم الخاص ، وما زالوا موضع ثقة . وفي بلدان أخرى ، من النادر أن نجد فرد ينفذ يديه من الخزينة العمومية وأن يظهر سجلاً نظيفاً بهذا الخصوص وكذلك ، من النادر في روما ، أن ترى أمراً رهين مثل هذه الإجراءات السيئة .

الاتجاه العقلي

(بروكوبيوس : الكتاب الخامس الفصل الثالث ٥ - ٨)

وعند هذا الحد زارت بمشة من (بيزنطة) Byzantium كاهن^(١) روما

(١) ... رئيس الأساقفة . (المعق) .

المسيحي الأكبر، وتتكون البثة من « هياتيوس » Hypatius كاهن^(١) (إفسوس) Ephesus و « ديميتريوس » Demetrius كاهن (فيلبي) Philippi في مقدونيا . وقد أشارت البثة إلى نقطة عقيدية يختلف حولها المسيحيون ويتنازع الواحد مع الآخر ، إلا أنه ، على الرغم من أنني أحطت علماً بالمجادلة ، فليس في نيتي المناقشة . إن محاولة البحث في طبيعة الله تبدو لي على أنها نوع من الضلال والخلل العقلي . والذهن الإنساني ليس كذلك ، فإني أصل عن طريقه إلى المفهوم الدقيق حتى في الشئون الإنسانية ، وعلى هذا ، فبالأحرى ، تلك المشاكل المتعلقة بطبيعة الله . وفي مثل هذه المسائل أقترح أن اتحفظ احتياطياً ، وسوف أشير فقط إلى أنني لست كافراً بالمبادئ السلم بها . وأياً ما كان الأمر ، فإني أتردد شخصياً في أن أقول أى عبارة عن الله فيما عدا أنه كامل الخلق وكلّ القدرة مادياً .

وأتارك هذا الأمر للآخرين ، الكهنة والعلمانيين ليصوغوا في عبارات ، المعرفة اللاهوتية التي يمتقدون بأنهم يملكون ناصيتها ..

القسم الثالث التطور

الاضمحلال

(هسيود الإسكاري Hesiod of Ascara. نص توينر تحقيق ا. رزاخ A. Rzach)

(الأعمال والأيام، الأبيات ١٠٩ — ٢٠١)^(٢)

في البدء ، صنع الآلهة الخالهُون الذين يسكنون على جبل أوليمبوس ، جنساً ذهبياً من أناس فانيين . وعاش هؤلاء الرجال في أيام « كرونوس » Cronus ، عندما كان ملكاً في السماء . عاشوا على نحو ما يعيش الأرباب . وقد خلت قلوبهم

(١) ... أسقف .

(٢) إن ترجمة المتر ف . م كورنورد أعقبها بعض التعديلات ، معظمها في ترتيب العبارات ، وهي تميل بشكل عام إلى مستوى أسوأ . (المحقق) .

من الهموم والأشجان ، دون قليل أو كثير من العمل والأسى . ولم يتطرق إليهم غل من شيخوخة ، فسوعدم وأرجلهم في قوة دائمة ، يجدون متعتهم في الولائم ، بعيداً عن كل الشرور . فإذا ما ماتوا ، فكأنما قد غلب عليهم النوم . وسأثر الأشياء الطيبة موفورة لهم ، والثمار الطيبة تغلها الأرض السخية من تلقاء نفسها ، فكون ثماراً طيبة في غير ما حقد أو ضغينة — بينما عاشوا هم في بطاحهم هائتين ساليين وقد توافرت لهم الطيبات . فالآن ، وقد طوى الثرى هذا الجنس ، تحولوا إلى أرواح طيبة بفعل إرادته « زيوس » Zeus العظيم — أرواح على الأرض تحرس البشر ، وتهب الثروة (إذا كانوا قد منحوا ذلك الشرف للملكي) .

ثم ، صنع بعد ذلك ، ساكو جبل أوليمبوس ، جنساً من الفضة ، أقل نبلا — جنساً لا يماثل الجنس الذهبي جسماً وروحاً . كان الطفل يشب في كنف أمه الحنون لمائة سنة ، طفل ، لاهول له ، يلهو في بيته ، بيد أنهم ما كانوا يصلون إلى ريمان الشباب ، واقربوا من الشيخوخة ، كان الزمن الذي يعيشونه مقيداً ، يحبونه في آلام بسبب حماقتهم . إذا لم يكن في مقدورهم كبح جماح أنفسهم عن أذى بعضهم بعضاً ، بل امتنموا عن خدمة الآلهة الخالدين ، وأهملوا تقديم المحرفات فوق مذابح الآلهة الباركين كما كان يقضى الواجب في كل مكان يقيم فيه البشر . ولكن ذلك الحال لم يطل ، إذ إن « زيوس » بن « كرونوس » بما أُرهم أخيراً ، في سورة غضبه ، لأنهم ما كانوا يؤدون فرائض الولاء للآرباب الباركين الساكنين في جبل أوليمبوس . والآن ، بعد أن طوى الثرى هذا الجنس كسابقه ، وأطلق عليهم البشر لقب أرواح العالم السفلي الباركين — كان الشرف يلزمه رغم كونه في المرتبة الثانية من المجد .

حتى خلق الأب زيوس جنساً بشرياً ثالثاً — جنساً بروترياً ، لايت إلى الجنس الفضي بأية صلة ، صنعه من (الردار)^(١) قوياً ومرعباً . وكانت ملذاتهم في أعمال « آريس » Ares المحزنة وفي أخطاء الكبرياء . لم يدخل إلى شفاهم

(١) شجر الردار ، الخشب الذي كانت تصنع منه نبال المراهب . (المحقق) .

شره غير أن أفئدتهم في صدورهم كانت قوية وكأنها قدت من الصخر ، وهابهم الجميع . كانت قوتهم هائلة كما كانت أذرعهم التي تنمو من أكتافهم فوق قوائم المشوق لا تهزم . وكان النحاس معدنهم يصنعون منه منازلهم ، وبالبروز كانوا يفلحون الأرض (إذ لم يكن قد عرف الحديد القاتم حتى ذلك الوقت) وقد دمروا هذه المعدات بأيديهم حتى انتقلوا إلى زمهرير هاديس Hades الوطيس غير تاركين ما يخلد اسمهم . وعلى الرغم من جرأة خارقة أمسك الردى بهم بقبضته السوداء ، وتركوا نور الشمس الساطع .

والآن ، وقد غطى الثرى هذا الجنس أيضاً ، مالبث أن خلق جنساً رابعاً مرة أخرى ، على الأرض الخصبية ، صنعه زيوس بن كرونوس — جنساً أفضل وأكثر استقامة ، ليثبه جنس أبطال الآلهة ، الملقين بأنصاف الآلهة ، الجنس السابق لجنسنا على الأرض الترامية الأطراف . وهؤلاء قضت عليهم الحرب الضروس والمركة الخفيفة — بعض قرب طيبة Thebes ذات الأبواب السبعة في أرض كادموس Cadmus وهم إذا كانوا يقاتلون من أجل قطع أوديبوس Oedipus ، بينما نقلت السفن الآخرين عبر خليج البحر الكبير — ليقاتلوا في طرواده ، من أجل « هيلينا » Helen ذات الشمر الأشقر . وهناك لقوا نهايتهم وطوام الموت ، وبعدئذ بعيداً عن الجنس البشرى منحوا حياة وإقامة إلى جانب زيوس بن كرونوس ، الذي جعلهم يكتفون عند نهاية الأرض . ومن ثم فهم يكتفون هناك ، بقلوب تملو من المغموم ، في جزر الباركين بجوار دوامات مجرى المحيط العميقة — أبطالاً سعداء ، تنل لهم الأرض السخية فاكهتها حصاداً من شهر العسل ، ثلاث مرات في العام .

والآن ، ليتنى ماتلكأت لأعيش مع الجنس الخامس ، بل وباليقنى مت قبل ذلك ، أو باليتنى ماولدت إلا بعد ذلك الجيل ، لأننا الآن في الأيام المتأخرة زمن الجنس الحديدي . ولن يكف البشر عن العمل قط ولن تفارقهم المغموم بالنهار ، ولا من قبضة المهلك بالليل ؛ وما أقسى الهجوم الذي سوف تلوم به الآلهة . ويوم ينفر الأب من ابنته والابن من أبيه ، والضعيف من ضيفه ، والصاحب من صاحبه ،

ولا يشد الأخ إزر أخيه كسابق عهده . وسرعان ما يشيخ الوالدان وتقل قدرتهما ،
 إذ ينهرهم بنوم وقرعونهم بنليظ الكلم . يؤساء من لا يعرفون انتقادات الآلهة !
 مثل هؤلاء ما كانوا يردون جميل أبائهم لسابق أطعامهم . إذ الرجل المستقيم أو
 الصالح والذي يحفظ عهده لن يجد لقاء حسناً ، إذ إنهم يكرمونه المخطئ والمتعرج
 الوقح . سوف يكون الحق في القوة وتذهب الرحمة من الوجود . وسوف يفعل
 الشرير أقصى ما يمكنه من أذى وبكلمات ملتوية يتوجها بأغلف القسم . وسائر
 بني الإنسان المهوم سوف يمدون من يمينهم على خصامهم - وبصوت لارفق
 فيه ووجه كربه يلذ له الشر !

ثم ، في خاتمة المطاف ، سوف تذهب تلك الأرواح في طريقها إلى أوليمبوس ،
 الأرض ذات الناكب الفسيحة ، وقد ستر وجوههم الجيلة لباس أبيض ، لتتضم
 إلى مصاف الآلهة الخالدة ، مخلفة وراءها البشر — حتى أرواح الرحمة والقصاص .
 إن الألم والحزن من نصيب البشر ، حيث لادفاع أمام يوم السوء .

عمل

(سوفوكليس الأثيني ٤٩٥/٤٩٤ — ٤٠٦/٤٠٥ ق . م . نص كبرج
 تحقيق ر . ك . جيب R. C. Gebb أنتيجونا Antigonal أيات ٣٣٢ — ٣٧٥)

كثيرة تلك المعائب ، ولكن ليس أغرب
 وأشد وطأة ، من ابن الإنسان
 فهو يطوف على بحر متقلب
 ويرسم خطته من رياح الشتاء
 وحول مسيره تنبسط الأعماق
 ويكتاث النعام ، إلا أنه يسير بوصوح
 آه ، إن الأرض عليه ، والأرض عجوز
 وهي أم الآلهة ، ولكنه يروضها
 نهاباً وجية مع مواكب الحرث

عزق الأرض عاماً بعد عام .
 خفيفة تلك الطيور ، وتسرع بأجنحتها
 إلا أن يده تحوطها وتجذبها إلى أسفل
 إنه يأسر فصائل حيوانات الغابات البرية
 والذين يعمون في البحار الملحة يندفون ويتأججون
 ويلق بشباك نسجه سيذاً
 ويدور فكره في وسطها
 حتى تسود أدوائه سائر الوحوش
 حيث تشرب الخيول من البركة الهجورة
 ويهتز عرقه بحثاً عن الخلاص
 والكثف الذي لا يتعب لعجل الجبل
 لقد علمه الحديد والفكر السريع
 والطبع الذي بنى جدار المدينة
 حتى أقواس الشتاء أطلقها إلى لاشيء
 والثلج الذي لا ينفو والمطر يهطل دائماً
 إنه مسلح وغير مسلح
 يواجه الخطر في تجواله
 نعم ، إن مهنته تهدي طبايع كل وحش تأر
 ويتغلب على كل شيء ماعدا الموت
 لقد خطرت مهنة آلاته في الحلم
 في سرعة إلى هدف الخير أو الشر
 وأمسك واحد بقانون المدينة السامى

وقسم الله في أعماق روحه
لنا المدن العالية ، والآخر لأمم له
الذى يكبد ، ويمسك بالدم
على الطريق المنوع . أخف منه
النار المريحة وضوء الفكر.

(دجلبرت رى)

عجلة الوجود

(أفلاطون الأثيني ٤٢٧ - ٣٤٧/٣٤٨ ق. م - مجموعة الأعمال نص
أ كسفورد تحقيق ج. بيرت G. Burnet المجلد الأول . . السياسة ص ٢٦٩
و ٤ - ١٢٧٠ - ٢٧١ و ٤ - ٢٧٢ - ١ - ٢٧٢ د ٦ - ٢٧٣ م ٤ ، ٢٧٤
ب - د) .

شخصيات التمثيلية : النريب وسقراط الصغير

النريب : ها هي الحكاية . إن هذا الكون يسيره الرب في طريقه أحيانا
ويوجهه في مداره ، بينما في أحيان أخرى ، عندما تصل دورات زمانه الممين إلى
تمامها ، فإنه يفلت من قبضة الله ويبدأ في الدوران في اتجاه مضاد من تلقاء نفسه
(وهذا يمكن حدوثه لأنه مخلوق حي وحيه الكائن الذى أنشأه في الأصل الذكاء)
إن الميل تجاه هذه الحركة المضادة ميل فطرى لا محالة في الكون . . بموجب البدء
الذى يقضى بأن له قوامه الذاتى وهويته الخاصة وهي خواص مقصورة على نظام
الوجود الإلهي ، والمادة التى لا تتصل به بحكم طبيعتها . وإن ما نسميه بالسموات
والأرض قد اختصها موجدها بنعم كثيرة ، إلا أن هذه البركات لا تشتمل على
حرية ذات جوهر مادي .

ولهذا السبب فن السطحيل على الكون أن يستثنى دائما من التغير ، على رغم
أنه يفعل أقصى ما يمكنه في حدود قدراته على أن يتحرك بإيقاع دائم وغير متغير

في المكان نفسه ؟ وعلى هذا سمح له (عندما يتغير) أن يدور في الاتجاه المضاد ، على اعتبار أنه أقل انحراف ممكن عن حركته الصحيحة . وأياً ما كان الأمر ، فإن الدوران الذاتي الدائم ، فوق طاقة كل كائن فيما عدا الكائن الذي يحرك به كل الأشياء ويسيرها . وأحياناً يكون هذا الكائن محروماً من تحريكها في اتجاه واحد وأحياناً في اتجاه مضاد . ويتبع عن هذه المقدمات المختلفة أن الأرض لا تدور هي ذاتها دائماً ولا تتحرك تماماً ودواماً من جانب الله في دورتين متضادتين ، وكذلك فليس هناك إلهان يديران الأرض لأغراض متضاربة ، ولكنها تسير (كما ينأ وهو البديل الوحيد الباقي) في بعض الأحيان بفعل سبب إلهي خارج عنها ، وتتلقى في أطوارها لسة من الحيوية وتجديد للخلود من خالقها ، بينما في أوقات أخرى تفلت من التحكم وتتحرك من تلقاء ذاتها . وهي تتحرر عند نقطة تمكنها من أن تمر خلال مئات الألوف من الدورات المتضادة — وعمل باهر أمكن تحقيقه من الحجم الدقيق للقاعدة التي يتحرك عليها جرمها المائل على توازن دقيق .

سقراط الصغير : أخبرني عن الحياة التي تزوها إلى حكم « كرونوس » . في أى من الحقتين تقع ؟ إذ إنه من الواضح طبعاً أن التغيرات في مسار النجوم والشمس تحدث في كلتا الحقتين .

الغريب : لقد تابعت عما جئني بشكل يدعو للإعجاب ؛ إلا أن التوالد التلقائي لكل الأشياء لفائدة الإنسان ، تعنى ما تسألني عنه ، هي غريبة تماماً على الحركة السائدة الآن ، وهي إحدى ظواهر الفترة السابقة . ففي الفترة السابقة كانت الحركة الدائرية نفسها ، بالدرجة الأولى ، كانت تخضع لإشراف الله ، وهذا الموضوع للإشراف نفسه قد نتج عملياً عن تفويض كافة أجزاء الكون للإلهة التحكمة الأخرى وكذلك فإن المخلوقات الحية ، حسب أنواعها ، قد أخذتها الأرواح الإلهية بعين الاعتبار ، وكان كل من هؤلاء الرعاة الطيبين ، جديراً بأن يعمى بالمخلوقات التي تحت رعايته الخاصة ، وعلى هذا ليس هناك استرقاق أو ميزة لأحد على آخر ، وليست هناك حروب فيما بينها على الإطلاق . والتسمات الأخرى لهذا التقسيم أكثر من أن تحصى ، إلا أن مسار القصة بين الجنس البشري فيما يتعلق بالإنتاج

التلقائى لوسائل المعيشة قد نشأ للسبب التالى . إن الله ذاته ، فى ذلك الوقت ، رعى الجنس البشرى وراقبه ، كما يفعل الإنسان الآن ، الذى يشبهه بالله ، بين زملائه من مخلوقات ، ويعمل راعياً للأجناس الأخرى التى هى أدنى منه فى الدرجة . وعندما كان الله راعياً ، لم تكن هناك دولة ولا مالكة للنساء والأطفال . إذ جاءت كافة الكائنات البشرية مرة أخرى من الأرض ، دون أن تسترجع خبراتها السابقة مرة أخرى . ولم تكن سائر ظروف الحياة موجودة ، بينما استمتع البشر من جهة أخرى ببار ، دون أن تكون هناك أشجار ونباتات أخرى ولم تكن هذه نتاج زراعة ، وإنما نبتت تلقائياً من الأرض ذاتها . وقد عسكروا أغلب الأزمنة فى المراء دون ملابس أو فراش ، وكان المناخ لطيفاً فلم يسبب لهم إصابات ، ووجدوا مثوى طرياً فى الحشائش التى أنبتتها الأرض كيفما اتفق .

وأياماً كان الأمر ، فإنه عندما اكتملت فترة التجزئة وكان من الضرورى أن يحدث تغير ، أو بعبارة أخرى ، عندما أستنفذ كل نتاج الأرض ، لأن كل نفس قد آتت قصة مولدها وغرست فى الأرض عدد المرات الفروضة على كل منها ، عندئذ أهمل القائم على إدارة دفة الكون التحكم فيها وانصرف إلى موقف المتفرج وترك العالم يتحرك فى الاتجاه المضاد بفعل القدر والرغبة الكامنة . ومنذ ذلك الحين والآلهة المحلية التى شاركت الروح العظيم فى المسئولية تأكدت مما كان يحدث وأهملت على التوالى الإشراف على هذه الأجزاء من الكون التى كانت تحت رعايتها المباشرة . وبمسد أن قلب الكون حركته ، عرف هزة أحدثتها قوة جسمين متحركين فى اتجاه متعاكس ، وكانا يبدآن وينتهيان فى وقت واحد . لقد هزته برجة عميقة فى باطنه وأحدث خراباً جديداً بين كل أجناس المخلوقات الحية . وبعد ذلك ، بدأ الكون باتقضاء الزمن ، يخرج من هذه الجلبة والاضطراب ليحصل على فترة راحة من هذه العواصف الزلزالية ، وأن يستقر فى رتبته المعتادة ، والتى مارس فيها إشرافه وسلطته ، على نفسه وعلى كل شيء هناك ، واتباع تعليمات خالقه وأبيه وعلى أفضل وجه يتذكرها به . وقد مارس وظائفه فى البداية بشكل دقيق نسبياً ، وبعدئذ بخشونة متزايدة . كلما اقتربت من الطور الأخير وكان سبب هذا التحلل المنصر المادى فى تركيبه ، والنزى كان واحداً

من جواهر طبيعته وفي حالة فوضى تامة ، قبل أن يفرض عليه النظام الراهن للكون . ولقد وهبه الذى سواه صفات طيبة . ومن جهة أخرى أودع نفسه من الحالة السابقة وأوجد في مخلوقاته الحية كل ما هو شر وغير مستقيم . وطالما كان الكون يستمتع بتعاون مدير الدفة في تغذية مخلوقاته الحية ، فقد زرع فيهم نقائص تافهة فقط مع استملاء بالخير ، وعندما يرحل في صحبته ، فإنه يقوم بوظيفته خير قيام خلال الطور الذى أفلتت من تحكمه . وأياما كان الأمر ، فيميزوها النسيان ، بمضى الزمن ، وتبدأ علة عدم تناسقه الأصيل في اكتساب اليد الطولى حتى ينفجر بشكل صريح في الطور الأخير . وعندئذ يتلقى الكون في تركيبه فقط عنصراً طفيفاً من الخير ومزيجاً كبيراً من الشر حتى إنه يصبح في خطر أن يطوى نفسه وكل الأشياء فيه في دمار شامل . وعلى هذا ، فإن الله الذى نظمته في الأصل ، يدرك عند هذا الحد ، المثرات التى تردى فيها الكون — وخشية أن ينفجر تحت ضغط الضربات الوحشية للاضطراب وقد يستقر في هاوية لا يدرك غورها حيث كل الأشياء لاقيمة لها فباشر مرة أخرى تحكمه في دفة الأمور ، وحول الميول تجاه المرض والتحلل التى ظهرت في الفترة السابقة عندما ترك الكون يتولى أمور نفسه ، ونظمه وصحح الخطأ ووهب العالم المخلود والشباب الدائم . . .

وقد وصلنا الآن إلى الهدف الذى نسمى إليه قصتي منذ البداية . وسوف أنحطى الحيوانات ، لأنها تستغرق مئى الكثير في إحصائها وعددها بسبب تنقلاتها وسوف أقصر على الإنسان ، الذى يمكن أن تكون حالته واضحة بإيجاز وأكثر ملامة للموضوع . وعندما حرم الجنس البشرى من عناية الروح الذى كان راعينا فإن غالبية الحيوانات الوحشية التى كانت كذلك بطبيعتها تحولت إلى أسلها ، بينما أصبح الإنسان ضعيفاً ولا حول له ونتيجة لهذا روعته الحيوانات الوحشية ، وكان في الطور الأول مجرداً من الأدوات والموارد ، طالما كان مورد طعامه التلقائى قد فشل في أن يزود نفسه ، قبل أن يتعلم تحت ضغط الحاجة . ولجميع هذه الأسباب ، وجد الإنسان نفسه في مأزق مروع ، وهذا هو أصل كل الهبات الأسطورية للآلهة

والتي قدمت إلينا ، ممّا مع تعليم وتدريب لازمين لاستخدامها — فالنار من «بروميثيوس» Prometheus والفنون والحرب من «هيفايستوس» Hephaestus وزوجته والبذور والنباتات من أصحاب فضل آخرين . وكل حجر في أساس الحياة الإنسانية قد نحت من محجره . إن الحراسة (التي ذكرت من قبل) والتي وضمتها الآلهة على الإنسان قد فشلت الآن على حين غرة ، وكان عليه أن يعيش بجهوده الذاتية وأن يحرس نفسه ، تماماً كالكون جميعه ، الذي قلده وتبع خطاه في أطوار حياتنا ونمونا المتبدلة .

دورات الحضارة

(أفلاطون : مجموعة الأعمال ، نص اكسفورد ، المجلد الرابع : تيمائوس Timaeus ص ٢١ هـ — ٢٣ د)

كريتياس يتحدث :

في الدلتا المصرية ، وحول الرأس التي يتفرع عندها مجرى النيل ، هناك إقليم يطلق عليه (سايس) Sais ، وله عاصمة إقليمية تحمل الاسم نفسه ^(١) . وشعب هذه المدينة له ربة تسميه واسمها في اللغة المصرية « نيث » Neith — وهي تقابل فيا يجزمون ، الربة الهلينية أثينا . ويزعم أهل سايس بشدة أن لهم أصلاً أثينياً ، وإلى حد ما فهم ينتمون خاصة إلى الأمة الأثينية . وقد رحل « سولون » (حسب روايته هو) إلى سايس وقوبل هناك بتكريم ممتاز . وإبان إقامته وافته فرصة استشارة الخبراء البرزين بين الكهنة حول التاريخ القديم ، واكتشف أنه هو نفسه وزملاءه الهلنيين في حالة يجهلون فيها الموضوع تماماً . وفي إحدى المناسبات فكر أن يقدم إلى مناقشة حول التاريخ القديم وذلك بمرض أكثر روايات هيلاس قديماً والتي تتعلق بما يطلق عليه « فاروينيوس » Pharoeneus و« نيوب » Niobe الأول ، وعندما وصل إلى مرحلة ما قبل الطوفان ؛ قص التاريخ الأسطوري ل « دوكاليون » Deucalion و« بيرها » Pyrrha فسر أدناس سلاتهم وحاول

(١) موطن الملك أمازيس . (المؤلف) .

أن يوجد أساساً تقويمية للتأريخ الأحداث في قصته . وقد استخلص الكلمات التالية من كلهن طالعن في السن من بين محدثي سولون : « سولون ، سولون ! أنتم معشر الهلنيين أطفال دائماً . لا يوجد شيء ما يعرف بالهلنيين القديس » . فأضاف سولون « ماذا تعني ؟ » فاستطرد الكاهن المعجوز « إنكم جميعاً سفار القول . ليس في أذهانكم تراث قديم ولا معرفة تشيخ مع العمر . وثمة سبب لهذا ، سوف أوضحه . فقد حلت سلسلة من المصائب في أشكال مختلفة ، وسوف يستمر حدوثها ، والجنس البشرى ، أعظم كائن تأثر بفعل النار والماء ، بينما الكائنات الأخرى ، التي هي أقل عنفاً ، قد وجدت بفعل أسباب مختلفة لانهية لها . وثمة رواية لديكم في هيلاس وهي أن « فايثون » Phaethon ، ابن الشمس ، حدث أن أعددت مرة عربية والده وأثبت أنه غير كفؤ لقيادتها بأسلوب والده . فأحرق كل شيء على وجه الأرض قبل أن ينتهي مصيره إلى الأبد بواسطة الصاعقة . وعلى الرغم من أن هذا التراث يروى بشكل أسطوري ، فإنه يحفظ الحقيقة العلمية التي تقضى بأن مدة طويلة من الزمن ، حدث فيها انحطاط في مدار الأجرام السماوية التي تدور حول الأرض وأن كارثة لحقت بالحياة في هذا الكوكب في صورة احتراق هائل . وعند هذا الحد فإن سكان الأقاليم ذات التضاريس الجبلية ، دفعوا عيثاً أثقل من سكان المناطق النهرية أو البحرية ، وفي هذه المناسبات فقد أخذنا النيل في مصر ، غلغلنا الوفي ، من حالة عصية هو محصن منها . وهناك مناسبات أخرى طهر الآلهة فيها الأرض بطوفان من المياه ، وبقي الرعاة في هذه الظروف على الجبال ، بينما اكتسحت الأنهار سكان مدنكم في هيلاس إلى البحار . وأيما كان الأمر ، فإن الماء لم يهبط أبداً ، في مصر على الحقول من فوق — ليس هذا في فترات الطوفان هذه فقط — وإنما ارتفع من أسفل بقانون [الطبيعة] الذي لا يتنبر . وهكذا ، فإن التراث المحفوظ في مصر ، للأسباب السابقة ، هو أقدم تراث في العالم ، والحقيقة العلمية أنه في كل مكان لا توجد فيه درجات تتطرف من الحرارة والبرودة ، فإن السكان البشر يمرضون لزيادة وهبوط موسمين . وهناك أحداث مجيدة . أو هامة أو على درجة مرموقة في تاريخ هيلاس أو مصر ذاتها أو

فى أى منطقة أخرى فى نطاق معرفتنا ، قد سجلت وحفظت هنا فى مصر منذ الماضى
 السحيق . ومن جهة أخرى ، فإن المجتمع الإنسانى فى هيلاس أو أى مكان آخر
 قد وصل دائماً إلى حد إعداد نفسه بسجلات مكتوبة ومتطلبات الحضارة الأخرى
 عندما تهبط المياه ، بعد الفترة المنتظمة ، التى كانت أعلى الجو ، تهبط عليك وكأنها
 مرض دافق وهى تسمح فقط لعناصر غير المتعلمين والثقفين من مجتمعنا أن تظل
 على قيد الحياة . وينتج عن ذلك أن نصبح كالأطفال الصغار ونبدأ مرة أخرى من
 البداية دون معرفة للتاريخ القديم فى مصر أو فى عالمكم . دعنى أخبرك ، ياسيدى
 أن الأنساب التى أوردتها فى روايتك عن ماضيكم الهلبنى إنما لا تكاد تصل إلى
 مستوى حكايات الأطفال . وبالدرجة الأولى ، فقد احتفظت فقط بذكر طوفان
 واحد فى سلسلة ضويلة ، وبالدرجة الثانية ، فأنت تجهل حقيقة أن بلادكم كانت
 موطن الجنس النبيل السامى والذى تتمثل فيه (العبقريّة الإنسانية) . وأنت تفسك
 وأمتك كلها قد تزعم أن هذا العنصر بعد أن أصبح جزءاً من المجموع الذى بقى
 على قيد الحياة بعد كارثة مبكرة ، تزعمون أنه أسلافكم ، إلا أنك تجهل هذا ،
 حسب حقيقة مؤداها أنه لعدة أجيال متعاقبة كثيرة ، فإن الذين بقوا على قيد الحياة
 عاشوا وماتوا أميين . »

تتابع التاريخ

(بوليبيوس : الكتاب الثالث . الفصول ٣١ - ٣٢) .

ما من شك فى أن هناك بعض المعجبين غير الناقدين سوف يشعرون أننى مضيت
 فى تفاصيل غير ضرورية فى مناقشة أصول الحرب الهانيبالية . وسوف يكون ردى
 أنه إذا ما افترض أى ناقد فى نفسه أنه أهل لتناول أى موقف دون معونة ، فإن
 معرفة السلف فى تلك الحالة ، قد لا تكون ضرورة وإن ظلت مثلاً مقبولا . وأياً
 ما كان الأمر ، فإذا ما أحجم أى كائن بشرى عن ربط هذه الدعوة بشأن ما من
 انشئون ، سواء كان خاصاً أو عاماً ، واعياً بأنه إذا ما كان ناجحاً نجاحاً مؤقتاً ،
 فلا يسمع أى شخص مقلول أن يكون له العذر فى أن يتخذ الظروف الراهنة كأسس

لا يتوقعه في المستقبل - وإذا ما كانت هذه هي الوقائع الحقيقية ، عندئذ أؤكد أن الإلزام بالماضي ليس مثالا مقبولا وإنما ضرورة مطلقة . كيف تسيء لأى واحد انتهكت حقوقه الشخصية أو حقوق بلاده أن يجد أبطالا أو حلفاء ، أو كيف يقضى لأى أحد كان يتوق إلى أن يؤمن هدفاً أو يتوقع منافساً يشجع معاونه ، أن يشرع في العمل ؟ وكذلك ، في حالة الاكتفاء بالأهداف موضع النظر كيف يكون له المذر في استشارة أولئك الذين كان يدرج جهودهم لتأييد سياسته الخاصة ولتأمين نتائجها ، وعلى أية حال ، إذا لم يعرف شيئاً من السجل السابق عن الأفراد الذين يشتمل عليهم ؟ ومن الطبيعي أن يوائم كل واحد عباراته وأمثاله من المواقف التي تواجهه ويقوم بالدور المناسب بعمارة تكفي لجمل سياسة الفرد المعين ، من الصعب التنبؤ بها ، وتخفى الحقيقة في عدد مرعب من الحالات . وأياً ما كان الأمر فإن أفعال الماضي ، توضع موضع الاختبار خلال الأحداث الفعلية ، وعلى هذا تلقى ضوءاً حقيقياً على أهداف الأفراد ومواقفهم ، وتكشف في بعضها عن وجود إرادة الخير ، والنوايا الطيبة والمساعدة العملية من وجهة نظرنا ، وإجراءات عكسية في الأخرى . ومن الممكن دائماً ، أن نكتشف ، من أمثلة كبهده ، من يتناطح مع أسفنا وأشجاننا ، ومن سوف يركب لنا - إمكانيات تضاف بشكل متماظم إلى موارد الحياة الإنسانية في كل من الشؤون العامة والخاصة . ولهذا السبب ، فإن كتاب التاريخ وقراءه ينبغي عليهم أن يركزوا اهتماماً أقل على الرواية الركيكة للإجراءات أكثر من الملاحظات التي تسمى وتصاحب وتعقب أى عمل آخر. فإذا ما استخلصت من التاريخ (لماذا) و (كيف) و (لذلك) من العمل المعين والاتجاه العقلي أو تأمل نتيجته ، فإن ما تبقى من حالاته يكون علماً أو يصبح علماً من أعمال البطولة ، من شأنه أن يقدم منحة مؤقتة ، إلا أنه بلا فائدة على أية حال للبحث في المستقبل .

وهذا يعني أن هؤلاء الذين يبتغون أن عملى صلب الإدارك وعسير القراءة يسبب عدد مجلداته وحجمها ، فإنهم يقعون في مفهوم خاطئ . ومن السهل بشكل كبير أن ندركه ونقرأه من الغلاف إلى الغلاف ، على نطاق أربعين مجلداً مجمعة و .

جزء واحد وأن تتابع بوضوح إجراءات إيطاليا ، وصقلية ، وشمال أفريقيا منذ فترة « بيرهوس » Pyrrhus حتى سقوط (قرطاجنه) Carthage ، وأعمال بقية العالم منذ هروب « كليومينيس » Cleomenes ملك اسبرطة ، دون انقطاع حتى المركة بين الرومانيين والآخيين عند برزخ كورثا ، هذا أيسر من أن ندرك مؤلفات الإخصائيين ونقرأها . وبمغزل عن حقيقة أنهم كانوا لمدة مرات أكثر ضخامة من سجلي ، من المستحيل فعلا على القراء أن يخرجوا منها بأية معلومات معينة — أولا ، لأن غالبية هؤلاء الكتاب يقدمون أقوالا مغايرة عن أحداث بذاتها ، وثانياً لأنهم يهتمون الأعمال المعاصرة في مجالات أخرى ، على الرغم من أن المنهج المقارن للدراسة والتحليل يتغير في بحث كافة تفاصيله كلما قورنت بالنتائج التي يحصل عليها بمنهج التفصيل إلى أبواب . وسبب آخر هو أنهم غير أكفاء لتناول المسائل الرئيسية . لأن العناصر الجوهرية في التاريخ ، كما قلت ، نتائج ولوازم للعقل وفضلا عن ذلك هي أسبابها . إننا نلاحظ أن حرب « انتيوخس » Antiochus قد نشأت من حرب فليب ، وحرب فليب من حرب هانيبال ، والحرب الهانيبالية من الحرب الصقلية ، بينما الأحداث التي تتخللها عديدة ومتشابهة على الرغم من مظاهرها المختلفة ، وهي جميعاً تتجه إلى الموضوع الرئيسي نفسه . ويمكن تمل هذه الحقائق وإدراكها من كتاب التاريخ العام ، وليس من هؤلاء الذين يكتبون تاريخ حروب خاصة ، مثل حروب (پرسوس) Perseus أو حرب فليب منفردة ما لم يتصور أى واحد ، في كتابة حكايات المارك المجردة أنه اكتسب أيضا من أعمال هؤلاء الكتاب مفهوما واضحا من مورفولوجيا الحرب ككل . وأياً ما كان الأمر فإن هذا بدهلوسة كلمة ، وإننى أدرك أن تاريخي يختلف عن أعمال المتخصصين بشكل عميق اختلاف ما يعلمه العقل عما تسمعه الأذن .

شمول التاريخ

(بوليبوس . الكتاب الخامس . الفصول ٣١ - ٣٣)

لقد أوضحت ، فيما أعتقد ، أنني تكلفت بأن أسجل ، لا مجموعة معينة من الأحداث وإنما ما حدث على نطاق العالم ، وأكاد أبالغ فأقول إنني قد أعددت عمل التاريخي على نطاق أوسع وأكثر من أيّ ممن سبقوني . وإنه من واجبي أن أبذل أقصى ما يمكن من تبصر حول تناولي وتربيتي ، كما يأتي تأليف واضح لمعلمي في كل من خطوطه المربضة أو تفصيلاته . وعندما أعسود الآن إلى ممالك « أنتيوخس » و « بطليموس » سوف أرجع إلى مسافة قصيرة محاولاً أن أجد نقطة بدء معروفة ومألوفة للقصة التي أنا بصدد تقديمها - وهي محاولة تعتبر أكثر واجباتي ضرورة كثرخ . ويقولون في أمثلتهم « إن نقطة البدء هي نصف العمل » وأوصي القدماء ببذل أقصى انتباه لإنجاز بداية طيبة في أي حالة معينة ، وأن ما يعتبرونه بدورهم ، أنه رواية مبالغ فيها ، في رأي قصور عن الحق . وينبغي أن تؤكد باطمئنان أن نقطة البدء ليست (نصف السجل) ولكنها تمضي قدماً إلى النهاية ومن المستحيل تماماً أن تقيم بداية طيبة في أي شيء بدون ، أن تتوقع سلفاً ، الإحاطة الذهنية بتكلمة الشروع أو التأكد من جسر وغرض الشروع وسببه . وإنه من المستحيل أيضاً أن نوجز بشكل مناسب ، في العملية - أي مسار أحداث معينة - دون الإشارة إلى نقطة البدء وبيان أين وكيف ولماذا تؤدي هذه الإجراءات العقلية في الوقت المعين ، وينبغي أن تعتبر نقطة البدء بالتالي على أنها لا تمتد إلى مجرد الوسط حسب وإنما تمتد إلى النهاية ، ونتيجة لذلك ، ينبغي أن يولي أكبر اهتمام إلى نقط البدء سواء من كتاب أو قراء التاريخ الكوني . وأنا لست غافلاً بالطبع ، عن أن عدداً لا بأس به من الكتاب التاريخيين قد تقدموا بالنزعة نفسها كما فعلت أنا ، وقبلت ، شأني ، شأن كتاب التاريخ الكوني ، أن أحاول تناول عمل على مدى أكبر من أي عمل سابق . وأنا شخصياً سوف أتوق إلى تسامح « ايفوروس » Ephorus (المؤرخ الأول والوحيد الذي حاول أن يكتب

بأسالة على نطق عالمي) . إلا أنني سوف أرفض بحزم متابعة الموضوع أو ذكر أي « من المدعين الآخرين بأسمائهم ، وسوف ألزم بإشارة إلى أن بعض الكتاب المعاصرين ، يطالبون — بسبب قيامهم بوصف الحرب الرومانية القرطاجنية في ثلاثة أعمدة أو أربعة — بلقب المؤرخين العالميين . والآن ، ليس من أحد يجهل — بدرجة ينقل معها — ما حدث في تلك الفترة من عدد كبير من العمليات ذات الأهمية القصوى في أسبانيا وشمال أفريقيا وبالمثل في صقلية وإيطاليا ، وأن الحرب الهاننيالية أكثر شهرة وأطول أمداً من أية حرب حدثت من قبل ، فيما عدا ما يتعلق بالحرب الصقلية^(١) ، وقد اضطرنا اتساع أبعادها جميعاً إلى أن نركز انتباهنا عليها . وعلى الرغم من هذا ، هناك كتاب تكون مراجعهم أقصر كثيراً من تدوينات تلك السجلات الرسمية المدونة في أماكن عامة بنظام تقويمي وشكل جدولي ، والتي تؤكد بعد ذلك أنها تتضمن في عرفها كافة إجراءات العائم الهليني وغير الهليني والسبب هو أنه من اليسير تماماً أن تقيم دعوى شفعية إلى كافة الأعمال المفروضة ولكن ليس من اليسير في التطبيق أن تنجز أي شيء يستحق الإنجاز . إن التمعرف مادة شائعة وهي دائماً من أعمال كل إنسان لا يملك سوى ادعاء الوقاحة ، بينما النادر جداً هو بلوغ الشيء عملياً ، وهذا نجده عند أفراد معدودين في الحياة الفعلية لقد دفعت إلى عمل مثل هذه الملاحظات بفعل أضاليل الكتاب الذين يرضخون أنفسهم ويضخمون ما يكتبونه ، إلا أنني سوف أعود الآن إلى نقطة بدء الأحداث التي أقترح هنا تسجيلها .

وحدة التاريخ

(بوليبيوس : الكتاب الثامن . الفصل الثاني)

إنني أغبط نفسي لأن التسجيل الفعلي للواقع قد أثبت الآن صدق مبدأ أكدته مراراً في مستهل عملي — وهذا المبدأ هو أنه من المستحيل أن ندرك المقالات ذات

(١) مثلاً ... الحرب البونية الأولى (المحقق) .

الموضوع الواحد للإخصائيين التاريخيين وأن ندرك وجهة نظر عن مودفولوجيا التاريخ العالمى . وعند قراءة رواية جامدة ومعزولة من أعمال صقلية وأسبانيا ، فن المستحيل جداً أن نتحقق أو ندرك ضخامة الأحداث محل البحث أو وحدتها ، وأعنى بها الوسائل والأنظمة التى أفاد منها التاريخ حتى يكمل ما كان أكثر أعماله شذوذاً فى جيلنا . وهذه التهمة ليست سوى إيقاع سائر العالم المعروف تحت نير إمبراطورية واحدة . وهى ظاهرة ليس لها مثيل من قبل فى التاريخ المسجل . ويمكن إدراك معرفة محددة عن العمليات التى استولت بها روما على سيراكوز وهزمت بها أسبانيا ، دون شك ، من كتابات الإخصائيين ، إلا أنه من الصعير بدون دراسة التاريخ العالمى ، أن ندرك كيف بلغت روما التفوق الشامل ، وأية أحداث محلية وخاصة عاقبها عن تنفيذ مشروعاتها العامة ، وكذلك ، ماهى الأحداث والأزمات التى تمرى إلى نجاحها . لأنه من السهل على أية حال للأسباب ذاتها ، أن ندرك عظمة جهود روما أو قوة أنظمتها . ولا يسدو زراع روما لما تستحوذ عليه أسبانيا وصقلية أيضاً ، ومباشرتها حملات إلى كلا المنصرين ، لا يبدو أنها مسألة ذات شأن إذا ما نظر على حدة . وهذا يحدث فقط عندما نأخذ فى اعتبارنا أن الحكومة نفسها ومجموعة الدول توجد نتائج فى مجالات أخرى متباينة بذات الوقت مع مباشرة هذه العمليات ، وعندما ندخل فى المرض ذاته الأزمات الداخلية وأنواع النضال التى تمرقل أولئك المسئولين عن كافة أنواع النشاط المذكورة آنفاً بشكل موسع ، وهو أن الخواص الواضحة للأحداث تتضح جيداً وتولى الانتباه الذى تستحقه . وهذا هو ردى على أولئك الذين يتصورون أن عمل المختصين سوف يدخلهم زمرة التاريخ العالمى والشامل .

القسم الرابع القانون والتعليل

الختمية

(هيردوت : متفرقات)

١ - كان على الشر أن يلحق ب « كاندولس » Candaules ، وعلى هذا لم يمض وقت طويل .. (الكتاب الأول . فصل ٨) .

٢ - كان الشر على وشك ، أيأ ما كان الأمر ، أن يحلب (سكيليس) Scyle ، وبالتالي أفاد من الفرصة التالية .. (الكتاب الرابع ، فصل ٧٩)

٣ - ولم يكن مقدرا أن تدمر هذه الحملة ناكسوس Naxos . وعلى هذا وقعت الحادثة التالية ... (الكتاب الخامس ، الفصل ٣٣)

٤ - كان على (كورتا) أن تجنب حصول الشر من بنور « اتيون » ، لأن ... (الكتاب الخامس ، الفصل ٩٢) .

• - كان لابد وأن تكشف هذه القصة بشكل واضح حتى يحرم « داماراتوس » Damaratus من عرشه ... (الكتاب السادس ، الفصل ٦٤)

٦ - وسوف لا تسمح راعية معبد دلفي بعقاب « تيمو » Timo وأعلنت أنها غير مسئولة ، إلا أن « ميليتادس » Miltiades أتى إلى نهاية سيئة ، وقد تميمو أن يتسوق قديمه إلى طريق الدمار .. (الكتاب السادس . الفصل ١٣٥)

٧ - من « كسر كيس » إلى « ارتابانوس »
« من الاستحيل على أى فريق أن يخلص نفسه ، ووضعت قوائم المتصربين والضحايا ، كي تقع كل أملاكنا إلى الهلنيين أو الفرس . وفي هذا الشأن لا يمكن أن تكون هناك مساومة .. (الكتاب السابع الفصل ١١) .

٨ - ارتابانوس .. وقد ارتدى ملابس كسر كسيس ، وجلس على المرش الملكي وبعد ذلك ذهب لينام ، حيث ظهر له وقتئذ في نومه الحلم نفسه الذي راود كسر كسيس كثيراً . وخيم الطيف على ارتابانوس وقال : « هل أنت الرجل الذي يبط همه كسر كسيس من اللحاق بالحملة ضد هيلاس ، على غير مصالحه إنني أحذرك بأنك سوف لاتكون ملزماً بمحاولة تغيير ماهوكائن ، سواء مباشرة أو بعد ذلك . أما بالنسبة لكسر كسيس ، فإن العقوبة التي تعرض لها من جراء عصيان ما كلف له شخصياً » وفي تنفيذ هذه التهديدات الشفوية ، طهر الطيف إلى ارتابانوس حتى يكون على استعداد أن يكوى عينيه بالحديد الساخن ، عندما رحل بصرخة شديدة .٠٠ (الكتاب السابع ، الفصول ١٧ - ١٨)

٩ - وعندما تمحروا ، اكتشف الشرقيون وسائل اقتحام القلعة ، لأن البنية أخبرتهم أن كل أرض أتيكا الأصلية ، سقطت في قبضة الفرس (الكتاب الثامن الفصل ٥٣)

١٠ - وكان من المحتم أن يحصل الشر ب « ارتايات » Artaynte وسائر بيته ، وتبما لهذا أجاب كسر كسيس .٠٠ (الكتاب التاسع الفصل ١٠٩)

نذير

(هيرودوت : الكتاب السادس الفصل ٩٨)

وبعدئذ أبحر « داتيس » Datis بحملته إلى قبلته الأولى ، (ارتريا) Eretria ... وبعد رحيله من (ديلوس) Delos اهتزت الجزيرة بفعل زلزال -- وهي الحادثة الأولى والأخيرة حتى الآن ، كما يجزم السكان . ولعل هذا الحادث كان من علاقات الشؤم التي كشفها الله للبشر كنذير بالكوارث القادمة . وفي الأجيال الثلاثة المتتالية التي اشتمل عليها حكم « داريوس » بن « هستاسبس » Hystaspes ، وحكم « كسر كسيس » بن « داريوس » و « ارتا كسر كسيس » ابن « كسر كسيس » ، قاسى الهلينيون من أكبر عدد من الكوارث أكثر مما

حدث للأجيال الشريرة السابقة على « داريوس » — ووقع البعض في أيدي
الفرس ووقع الآخرون في أيدي الدول الهلنستية الرئيسية نفسها في نضالها من أجل
السيادة. وعلى هذا ، ليس هناك شيء شاذ في أن تهتز ديلوس بالزلازل بعد تسجيل
سابق غير منقطع من الناعة .

القانون القدير

(هيرودوت : الكتاب الثالث . الفصل ٣٨)

توضح لي كل الظروف أن « قمبيز » كان قد فقد عقله تماماً . وإلا فما كان
يحاول على الإطلاق أن يصب السخرية على عادات دينية كانت أودنيوية . ولو
كان الجنس البشري كله قد أعطى مجالا حراً وتعلم اختيار أفضل القوانين من
بين سائر قوانين الوجود لكان قد اختار قوانينه بعد تبصر مناسب — وهو
مقتنع بأنه لديه بالذات تفوق لاحدله . وعلى هذا فمن غير الموثوق به أن أى أحد
لم يفقد عقله من شأنه أن يسر من مثل هذه الأنظمة . وتأكيدي هو أن كل الجنس
البشري الذى يدرك هذا الاعتقاد فيما يتعلق بالقوانين قد يختلف بعدد من الأدلة ، التى
من بينها أقدم الأدلة التالية . عندما كان « داريوس » على العرش جمع في
حضرتة الهلنستين في بلاطه وسألمهم بأى ثمن يرضون بأن يبيدوا آباءهم عندما يموتون؟
فأجاب الهلنستيون بأن كل النقود في العالم ليس من شأنها أن ترغبهم في مثل هذا
المعمل ، وبعد هذا جمع « داريوس » الهنود الجلائيين الذين يأكلون آباءهم ،
وسألمهم (في حضور الهلنستين ، الذين كانوا يحاطون علماً ، عن طريق مترجم) بأى
ثمن يرغبون في حرق آباءهم عندما يموتون . فصرخ الهنود عالياً والتصموا منه
ألا يواصل هذا الموضوع الذى لا يمكن ذكره — وهى قصة توضح الموقف الطبيعى
للجنس البشرى إزاء هذه المسألة ، والتى ، في رأى . تبرر حكمة « بندار »
Pindar الشعرية التى تقول إن « القانون سيد الجميع »

القانون الطبيعى

(مدرسة هيپوقراط القوسى Hippocrates of Cos ٤٦٠/٤٥٩ - ٣٦٨ ق . م .

مجموعة الأعمال ، نص توييز تحقيق كيويهلن Hr. Kuchlewein
المجلد الأول ص ٦٤ - ٦٦ = مؤثرات الجو والماء والموقع (الفصل ٢٢) .

ينسب الأهلون تحليل هذا للرض^(١) إلى الله ، وهم ييجلون ضحاياهم ويمدونها خوفاً من أن يصرعهم هم أنفسهم . وأنا بالمثل ، أقول بأن هذه الظواهر مردها إلى الله ، ولكننى أأخذ النظرة ذاتها إزاء جميع الظواهر ولا أنظر إلى ظاهرة بعينها على أنها رابانية أو فوق الإنسان من أى ظاهرة أخرى . فجميعها ، فى نظرى واحدة وربانية ، إلا أن كل ظاهرة تخضع لقانونها الخاص ، والقوانين الطبيعية لاتعترض الاستثناء وسوف أشرع الآن فى شرح نظريتى عن هذا المرض . .

[يأتى بمسد ذلك تحليل علمى]

وضحايا هذا المرض ليسوا من طبقة (المرتحلة) الدنيا ، ولكنهم أعضاء أفضل الأسر التى توفر لها أقوى بنيان جسمانى . وأسبابهم المرض بسبب الركوب . والفقراء محصنون نسبياً لأنهم لا يركبون . وأيا كان الأمر ، فملى أساس افتراض أن هذا المرض فى صورة ماربانى أكثر من غيره ، فإنه ينبغى ألا يهاجم بصفة خاصة خيرة (المرتحلين) نسباً وحسباً ، ولكن كل الطبقات سواء ، أو إذا كانت هناك تفرقة ، لكان علينا أن نحدث ضد أولئك الذين لا يملكون سوى القليل - هذا إذا كانت الأرباب يسرها حقيقة أن تحظى بالثشريف والإعجاب من جانب الأثمين ويردون مثل هذه العناية بمعروف من لثنهم ولتفرض أن الأغنياء بما أوتوا من ثراء طائل هم الذين يقدمون الذبايح للأرباب دائماً ويؤدون مظاهر الولاء والتكريم ، بينما يختلف الفقراء عنهم فى هذا المجال ، بسبب ضيق ذات اليد أو

(١) يناقش المؤلف مرضاً خاصاً بالكان الرحالة فى أقاليم الإستبس إلى شمال الحر الأسود . (الحق) .

للثورة على الأرباب لأنهم منعموا عنهم خير الدنيا . وعلى هذا الأساس ظاهرياً
ينبئ أن يلقى أولئك الفقراء القصاص على مثل هذا التخلف أكثر من الأغنياء
وأياً ما كان الأمر ، ففي الحقيقة على نحو ما بينت سلفاً ، فإن هذه الظاهرة ربانية
فحسب بقدر ما تكون أى ظاهرة أخرى ، وكل ظاهرة تخضع للقانون الطبيعي .
البيئة والطبع

(هيرودوت : الكتاب التاسع الفصل ١٢٢)

« أرنايكس » Artayctes هذا الشخص الذى أمات شهواته كما بينت كان
له جد يدعى « ارتيمبارس » Artembares ، وكان أول من اقترح على زملائه
بنى وطنه الفرس الرأى الذى تبنيه وطرحوه أمام « قورش » Cyrus وهو على
الوجه التالى :

« الآن » وقد أزل زيوس استياجس Astyages من كرسيه وفتح السيطرة
لك ولأمة الفرس ، يامولاى ، نسألك شخصياً ، لماذا لا يبنى أن نهاجر من
الإقليم المحصور والصخرى الذى نملكه حالياً ، ونحتل إقليم أفضل ، هناك أقاليم
كثيرة قريبة وفى متناول اليد وكثير منها على بعد مسافة ، وما علينا إلا أن نختار
حتى نقيم نفوذاً على العالم أكبر مما عليه نفوذنا الآن . وهذه سياسة تتفق مع
شعب يسمى إلى التوسع ، ولن تكون لنا فرصة لتحقيق ذلك خيراً من الآن
عندما تقوم إمبراطوريتنا على سكان أوسع وعلى سائر قارة آسيا .

أما « قورش » الذى استمع ولم يتأثر ، فأمر الذين طلبوا منه هذا أن يفعلوا
ما يترأى لهم ، إلا أنه شفع نصيحته بأن أخبرهم بذات الوقت أن يمدوا أذهانهم
لتغيير المراكز مع رعاياهم الحاليين . وأخبرهم أن البلاد المستوية تربي رجالاً مسلمين
بشكل ثابت ، ومن المستحيل على الفرد والبلد ذاته أن ينتج محاصيل جيدة ،
وجنوداً حقيقين . وسلم الفرس بذلك قورش المفرط ، واعترفوا بمخطئهم ، وتنازلوا
عن اقتراحهم وآثروا أن يعيشوا كشمب امبريالى فى بلدوعرة عن أن يزرعوا الأراضى
الواطئة كما يفعل عبيد الأمم الأخرى .

البيئة والسياسة

(هيبو كراتس : تأثير الجو والماء والموقع الفصل ١٦)

لقد ناقشنا الآن الاختلافات المضوية والبنائية بين سكان آسيا وأوروبا ، إلا أننا مازلنا نضع في اعتبارنا المشكلة الخاصة بسبب كون الآسيويين أقل نزوعاً للحرب ، ولماذا يستكينون للطنان أكثر من الأوروبيين : إن النقص الملحوظ في روح سكان آسيا وشجاعتهم يعود بشكل رئيسي إلى التغير الموسمي في درجة حرارة تلك القارة ، التي هي ثابتة تقريباً على مدار السنة . ومناخ كهذا ليس من شأنه أن يوجد تلك الصدمات العقلية والتفسخ الجسدي الذي يجعل المزاج ضارياً من الناحية الطبيعية ويقدم تياراً أقوى من اللاعقلية والانفعال الذي لا يحدث في ظل ظروف مستقرة . إن التغيرات الثابتة تنبه عقل الإنسان وتغنه من البقاء سلبياً : وهذه هي الأسباب ، في رأبي ، لعدم كون المنصر الآسيوي ميالاً للحرب ، إلا أنه يبنى إلا أغفل عامل الأنظمة . فإن الجزء الأعظم من آسيات تحت حكومات ملكية ، وحيثما لا يكون الناس سادة أنفسهم وعناصرهم حرة وإنما تحت حكم طغيانى ، فإنهم لا يمتنون بأن يكونوا عناصر حرية فعالة ، وإنما على العكس ، يتجنبون اعتبارهم مادة حربية جيدة — السبب الذي من أجله لا يظهرون على أنهم كفتين متوازيتين . فنن الفروض ، أن يخدموا ويناضلوا ويموتوا في ظل إكراه سادتهم بعيدين عن أعين زوجاتهم وأطفالهم وأصدقائهم . وعندما يدعون السلاح ، فإن سادتهم هم الذين يسيرون الجهد ويكبرون بفعل أعمالهم ، بينما يكون نصيبهم من النافع هو المخاطرة وفقدان حياتهم . وليس هذا غريب ، ولكن في حالة شعب في مثل هذه الظروف ، فما لامناص منه أيضاً أن العاقبة من عدم النشاط على غياب الحرب لا بد وأن يكون لها تأثير أليف على الزواج ، ولهذا حتى الفرد الشجاع والنشيط بطبعه من شأنه أن يكون رادعة على الجانب الذهني بفعل الأنظمة المنتشرة . وثمة حجة قوية في صالح رأى أن الهلنبيين وغير الهلنبيين في آسيا الذين لا يقعون تحت حكم الطغاة ، ولكنها عناصر حرة تناضل من أجل مصالحها الخاصة . وهي تنزع للحرب كل

شعوب أخرى في العالم — السبب ينبع من كونهم يراهنون بحياتهم في سبيل قضيتهم الخاصة ويمجنون ثمار شجاعتهم الخاصة (ويماقبون على جبنهم في الساومة) . وسوف نجد أيضاً أن الآسيويين يختلفون فيما بينهم الواحد عن الآخر ، فيكون البعض رقيقاً ويفتقر الآخر إلى هذه الصفات ، وهذه الاختلافات لها سبيلها أيضاً في التغيرات الجوية الموسمية ، كما قررت من قبل .

البيئة والعنصر

(هيبوكراتس : تأثيرات الجو والماء والموقع الفصل ٢٤)

أصبح عرضنا المقارن لأوروبا وآسيا الآن ، كاملاً في الخطوط العامة . وأياً ما كان الأمر فهناك في أوروبا ذاتها ، عدد من كليات متميزة توضح اختلافاتها النماء والتناسب والصفات الخلقية إن العوامل المتميزة هي بذاتها التي وصفت في الملاحظات السابقة ، إلا أنني سوف أوضحها مرة ثانية بتحديد أكثر . ويميل سكان البلدان الجبلية الصخرية والروية جيداً على علو مرتفع ^(١) ، حيث يتسع هامش التغيرات المناخية الموسمية ، يميلون لأن يكون لديهم أجسام ضخمة جبلت مزاجياً على الشجاعة والتحمل ، وفي مثل هذه الطبيعة سوف يكون هناك عنصر لا بأس به من الضراوة والوحشية . وسكان التجاويف الحارة المنطاة بمروج الماء ^(٢) المعرضة بشكل عام للرياح الحارة أكثر من الباردة والذين يشربون النياه الفاترة — فهم على النقيض — ليست أجسادهم ضخمة أو بحيفة ، إلا أنها أكثر سمكا ممتلئة ، وذات شعر أسود ، مع بشرة فاتحة أكثر منها بياضاً مع فتور أكثر من الاصفرار في بنيتهم . وسوف لا تكون الشجاعة والتمحل فطرية في طباعهم بالدرجة نفسها ، ولكنها سوف تكون جديرة بأن توجد فيها بفعل عناصر الأنظمة . فإذا ما كانت هناك أنهار في البلد التي تتمتع منها المياه الراكدة ومياه الأمطار ، فإن السكان سوف يتمتعون بالصحة والأحوال الجيدة ، بينما إذا لم تكن هناك أنهار وتأتي إليهم مياه الشرب من البحار

(١) (إيتوليا) Aetolia (المحقق) .

(٢) « قلب اسبرطه » (المحقق) .

الراكدة والستنقعات ، فإن أجسادهم تتلف طحالمهم وتميل إلى أن تصبح أوعية شرمة . أما سكان البلاد المدرجة ، والتي تكتسحها الرياح ، وجيدة المياه لدرجة عالية ^(١) ، تكون أجسادهم جيدة ، ويكونون غير قرويين ، مع مسحقة من الخوف والآفة في طباعهم . أما سكان البلاد ذات التربة الرقيقة ، وقليلة المياه وعدية الخضراوات ، حيث التغيرات المناخية الموسمية ، فيكونون غلاظاً ويمتازون بالعنف ^(٢) ، ويميلون إلى أن يكون لهم أجساد كبيرة العظام وعضلية ، وتميل بشرتهم إلى البياض أكثر منها قاتمة ، ورأس عنيد ، وطباع ذات إرادة ، حيث التغيرات الموسمية دأعة في الغالب ويتضح الهامش الأكبر في التغير ، وسوف نجد هناك الفرق الأكبر في الجسد الإنساني والطباع والحيوية .

وهذه هي أكثر التغيرات أهمية في الأجهزة ، وهناك إذن تأثير البلد والماء التي تشكل البيئة الإنسانية . وفي أغلب الحالات ، سوف تجد أن الجسد الإنساني والطبع تختلف طبقاً لطبيعة البلاد . وحيث تكون التربة خصبة ولينة وجيدة الإرواء ، وحيث تبقى المياه لدرجة كبيرة قرب السطح ، ولهذا نجدها راكدة صيفاً ومضحلة شتاء ، وحيث تكون الظروف المناخية سالحة أيضاً ، فيكون السكان ممتلئين ومفاصلهم رخوة ومترهلين ولا طاقة لهم وغير نشطين في الاتجاه العام : وسوف يكون الكسل والنوم شائناً بين مميزاتهم ، وسوف يكونون غلاظاً بدلاً من الرقة أو سريمين في الأشغال ^(٣) . وحيث تكون البلاد صخرية وقليلة المياه وبلاخضر ، ويقاسون من شتاء قارس وشمس حارقة ^(٤) سوف نجد السكان بارزى العظام وبلا لحم فائض وذوى مفاسل وعضلات جيدة ، وأجساد خشنة . ومثل هذه البنية مطبوعة على الطاقة والنشاط ، وأصحابها شديدي المراس ، وذوو إرادة صلبة ، ويميلون للبطلش بدلاً من الآفة ، وسرعة

(١) داخل شبه جزيرة أناتوليا (المحقق) .

(٢) استبس جنوب روسيا (المحقق) .

(٣) نجد وضماً لسان (كوليس) أو غرب جورجيا في الفصل ١٥ من هذا البحث .

(المحقق) .

(٤) أتيكا .

فائقة وذكاء في الأعمال الدقيقة واستعداد فائق للحرب . وسوف تجد فيما بعد أن النباتات تختلف أيضا حسب نوعية تلك التربة . ولقد وصفت الآن التناقضات الصارخة للبيئة وأعضائها ، وسوف لا تجانب الصواب إذا ما قمت بتحليل البقية بنفسك .

تعرية أتيسكا

(أثلاطون : مجموعة الأعمال ، نص أ كسفورد ، المجلد الرابع : كريكياس Critias ١٣ - د) .

يمكن أن توصف أتيسكا الماصرة على وجه الدقة بأنها مجرد بقايا البلاد الأصلية ، وهو ما سوف أشرع في إيضاحه . ومن ناحية الشكل ، تتكون أتيسكا كلها من شبه جزيرة مستطيلة ناتئة من اليابسة في البحر . ويميل الحوض البحري الدائري بأنحدار حول كل الشريط الساحلي . ونتيجة للطوفانات العنيفة المتتالية التي حدثت خلال تسعة الآلاف عام الماضية ^(١) ، كانت هناك حركة دائمة من التربة بعيدة عن العلو المرتفع ، وتبعاً ، لبروز الساحل المنحدر ، فإن هذه التربة بدلا من أن تطرح العلوى ، كما تفعل دائماً ، إلى درجة ذات إال ، غرقت بشكل متناوب في البحر العميق الذي يحيط بالبلاد ، بسارة أخرى ، ضاعت هذه التربة ، وعلى هذا تعرضت أتيسكا للعملية التي تلحظها في جزر صغيرة ، وما بقي من أرضها يشبه هيكل جسد أضناء المرض ، إذا ما قورن بتضاريسها القديمة : وقد ذابت التربة الخسبة واللينه كلها ، تاركة بلداً من جلد وعظام . وأياما كان الأمر ، في الفترة التي نحن بصدد تناولها ، عندما كانت أتيسكا ما تزال في حالة سليمة ، فإن جبالها التي هي شاهقة حالياً ، وتلالها المترية ، وما يعرف لسيولها الحصباء في الأيام الراهنة ، كانت مليئة بترية خصيبة ، وكانت جبالها غابات كثيفة - وهي حقيقة ما يزال لها آثار يمكن تمييزها . لقد كانت هناك جبال

(٣) هي الفترة التي تفصل عصرنا عن الفترة التي نحن بصدد تناولها . (المؤلف) .

في أتيكا ، ليس منها الآن سوى النمل ، كانت مكسوة ، لا من زمن بعيد جداً بأشجار جميلة تنتج أخشاباً تصلح لسقف أكبر الباني ، وما زالت الأسقف من الأخشاب موجودة . وكانت هناك أيضاً أشجار باسقة ، بينما أنتجت البلاد مراعى لا حدود لها للماشية . ولم تنقطع الكمية السنوية من الأمطار ، كما يحدث الآن بسبب فيضاناتها على سطح عادى إلى البحر ، إلا أن البلاد قبلتها ، على وفرتها ، في باطنها ، حيث تختزنها في فخارها الأرضي الذي لا ينضب ، وعلى هذا كانت قادرة على أن تخزن مصارف المرتفعات في الفجوات في شكل الينابيع والأنهار مع كثرة غزيرة ومع توزيع إقليمي واسع . وتعتبر الصهاريج الباقية حتى يومنا هذا على مواقع إمدادات المياه المفترضة دليلاً على صواب افتراضى الراهن .

التعليل جوهر التاريخ

(بوليبيوس : الكتاب الحادى عشر ، الفصل التاسع عشر ٣)

ماذا يفيد القارئ أن يخوض في حروب ومعارك وحصار واسترقاق الشعوب ما لم يكن يقصد إلى أن يذهب إلى ما وراء ذلك فيقف على الأسباب التي أدت إلى انتصار فريق وهزيمة الفريق الآخر في موقف بذاته كل على حدة ؟ إن نتائج العمليات تتمتع القارئ فقط ، بينما البحث في المواقف السابقة إنما يفيد الدارس الجاد . إن تحليل حادث بعينه بغير تفاصيل ميكانيكية ، خير ثقافة من بين سائر الثقافات للقراء الذين لهم صبر على متابعة العملية .

أسباب بعيدة وأسباب قريبة

(بوليبيوس : الكتاب الثانى والمثرون ، الفصل ١٨)

يمكن تتبع بداية المصائب التي لا علاج لها والتي لحقت بالبيت المالكي في (مقدونيا) منذ هذه الفترة . وأدرك بالطبع ، أن مؤرخين عديدين للحرب بين روما وپرسوس « Perseus » ، سردوا أول ما سردوا ، في مسمام ، لتفسير أسباب النزاع ، طرد « هاروباليس » Habrupalis من ولايته ثاراً منه انارته على منطقة

الناجم في (بانجاميم) بعد وفاة فيليب (عندما خف برسوس لنجدته . هزم الأمير السابق ذكره هزيمة تامة ، وطرده من أملاكه) . وبعد ذلك ، أوردوا غزو « برسوس » لـ (دولوبيا) Dolopia وزيارته لداني ، وأوردوا كذلك المؤامرة التي أُرمت في داني ضد الملك « يومينيس » Eumenes ملك (برجاموم) Pergamum واغتيال مبعوث بروتيا - وهي أحداث كان من شأنها ، طبقاً لرواية بعض الكتاب ، أن نشبت الحرب بين برسوس وروما . وفي رأيي ، ليس هناك شيء ضروري للكتاب أو لدارسي التاريخ مثل إدراك تلك الأسباب التي تفسر تكوين أية سلسلة من الأحداث وتطورها . إلا أن المشكلة قد حدثت حولها بلبلة في كتابة معظم المؤرخين بسبب الفشل في إدراك الاختلاف بين المناسبة وسببها ، وكذلك بين بداية الحرب ومناسبتها . وعند هذا الموقف الراهن ، أجد نفسي مدفوعاً بشكل واضح من جانب مادة الموضوع التي أُمأى إلى أن أعود لمناقشة المسألة .

ومن بين الأحداث المذكورة آنفاً ، تعتبر الأحداث الأولى أسباباً ، بينما تشكل المجموعة التالية (بما فيها المؤامرة ضد الملك يومينيس ، ومذبحة السفارة وأحداث أخرى ذات طابع مماثل حدثت في الوقت نفسه) تشكل ، بدرجة لا يخطئها أحد بداية الحرب بين روما وبرسوس والإطاحة بالإمبراطورية المقدونية . وأياً ما كان الأمر ، فمن الناحية الحرفية ، ليس هناك حادثة من هذه الأحداث تعتبر السبب الرئيسي ، كما سوف أوضح الآن . لقد أكدت من قبل أن فيليب بن أمينتاس Amyntas هو الذي تصور وأقترح أن يقوم بتنفيذ خطة الحرب ضد فارس ، بينما كان الإسكندر عاملاً قام بتدبير الإجراءات مترسماً قرارات والده السابقة . وأعود بالطريقة ذاتها لأؤكد أن فيليب بن ديميتريوس هو الذي تصور أصلاً مشروع التكفل بالحرب النهائية ضد روما ، وأنه هو الذي أعد الأسلحة على أهبة الاستعداد لهذا الغرض ، بينما « برسوس » كان مجرد عميل قام بتنفيذ الأعمال عندما أطلق والده يده . فإذا ما كان هذا صحيحاً ، فإن رأيي يحمل في طياته صحته ، لأن أسباب الحرب لا يمكن أن تكون لاحقة تاريخياً بوفاة

الشخص الذى قرر هذه الحرب ورسم خطتها . وأياً ما كان الأمر ، فهذا هو مضمون الرواية التى يقدمها المؤرخون الآخرون ، لا بد أن كافة الأحداث التى وردت فى أعمالهم بهذا الصدد لاحقة لوفاة فيليب .

سلوى الفلسفة

(ماركوس أوريليوس أنطونيوس الإمبراطور: رسائل ذاتية ، نص أ كسفورد تحقيق ١ . هـ . نيوبولد I. H. Leopold الكتاب الثانى : الفصل ١٧^(١)).

الحياة الإنسانية ! أجلها موقوت ، قوامها رخو دائماً ، وإحساساتها قاعة ، وبنائها البدنى قابل للهلاك ، ووجدانها دوامة ، ومصيرها مظلم ، وشهرتها فى واقع الأمر زائفة ، وعنصرها المادى مجسرى منحدر ، وأما عناصرها الروحية فأضغاث أحلام ، والحياة سجال ، والإقامة فيها مؤقتة فى بلد نا ، والشهرة نسيان . فما الذى يمكن أن يهدينا خلال هذه الحياة ؟ إنه شيء واحد لا غير - الفلسفة ، وهذا يعنى أن تبقى روحنا غير تالفة وغير ملوثة .. ، وأن تسمع باللذة أو الألم ، وألا نعمل دون أن نفكر وألا نعمل بنفس أو بغير إخلاص ، ويعنى ألا نكون معتمدين على مساندة الآخرين المعنوية . ويعنى أيضاً تقبل ما يحدث برضاء شأنه شأن كافة أجزاء العملية التى يرجع إليها وجودنا ؛ ويعنى - فوق هذا كله - مواجهة الموت بهدوء ، وتقبله ببساطة على أنه تحلل ذرات كل عضو حتى يتركب منها . إن تحولها الدائم لا يؤذى الثروات ، وعلى هذا لماذا يبنى على المرء أن يفكر فى كافة الأعضاء التى تتحول وتتحلل ؟ ^١ ^٢ ^٣ ^٤ ^٥ ^٦ ^٧ ^٨ ^٩ ^{١٠} ^{١١} ^{١٢} ^{١٣} ^{١٤} ^{١٥} ^{١٦} ^{١٧} ^{١٨} ^{١٩} ^{٢٠} ^{٢١} ^{٢٢} ^{٢٣} ^{٢٤} ^{٢٥} ^{٢٦} ^{٢٧} ^{٢٨} ^{٢٩} ^{٣٠} ^{٣١} ^{٣٢} ^{٣٣} ^{٣٤} ^{٣٥} ^{٣٦} ^{٣٧} ^{٣٨} ^{٣٩} ^{٤٠} ^{٤١} ^{٤٢} ^{٤٣} ^{٤٤} ^{٤٥} ^{٤٦} ^{٤٧} ^{٤٨} ^{٤٩} ^{٥٠} ^{٥١} ^{٥٢} ^{٥٣} ^{٥٤} ^{٥٥} ^{٥٦} ^{٥٧} ^{٥٨} ^{٥٩} ^{٦٠} ^{٦١} ^{٦٢} ^{٦٣} ^{٦٤} ^{٦٥} ^{٦٦} ^{٦٧} ^{٦٨} ^{٦٩} ^{٧٠} ^{٧١} ^{٧٢} ^{٧٣} ^{٧٤} ^{٧٥} ^{٧٦} ^{٧٧} ^{٧٨} ^{٧٩} ^{٨٠} ^{٨١} ^{٨٢} ^{٨٣} ^{٨٤} ^{٨٥} ^{٨٦} ^{٨٧} ^{٨٨} ^{٨٩} ^{٩٠} ^{٩١} ^{٩٢} ^{٩٣} ^{٩٤} ^{٩٥} ^{٩٦} ^{٩٧} ^{٩٨} ^{٩٩} ^{١٠٠} ^{١٠١} ^{١٠٢} ^{١٠٣} ^{١٠٤} ^{١٠٥} ^{١٠٦} ^{١٠٧} ^{١٠٨} ^{١٠٩} ^{١١٠} ^{١١١} ^{١١٢} ^{١١٣} ^{١١٤} ^{١١٥} ^{١١٦} ^{١١٧} ^{١١٨} ^{١١٩} ^{١٢٠} ^{١٢١} ^{١٢٢} ^{١٢٣} ^{١٢٤} ^{١٢٥} ^{١٢٦} ^{١٢٧} ^{١٢٨} ^{١٢٩} ^{١٣٠} ^{١٣١} ^{١٣٢} ^{١٣٣} ^{١٣٤} ^{١٣٥} ^{١٣٦} ^{١٣٧} ^{١٣٨} ^{١٣٩} ^{١٤٠} ^{١٤١} ^{١٤٢} ^{١٤٣} ^{١٤٤} ^{١٤٥} ^{١٤٦} ^{١٤٧} ^{١٤٨} ^{١٤٩} ^{١٥٠} ^{١٥١} ^{١٥٢} ^{١٥٣} ^{١٥٤} ^{١٥٥} ^{١٥٦} ^{١٥٧} ^{١٥٨} ^{١٥٩} ^{١٦٠} ^{١٦١} ^{١٦٢} ^{١٦٣} ^{١٦٤} ^{١٦٥} ^{١٦٦} ^{١٦٧} ^{١٦٨} ^{١٦٩} ^{١٧٠} ^{١٧١} ^{١٧٢} ^{١٧٣} ^{١٧٤} ^{١٧٥} ^{١٧٦} ^{١٧٧} ^{١٧٨} ^{١٧٩} ^{١٨٠} ^{١٨١} ^{١٨٢} ^{١٨٣} ^{١٨٤} ^{١٨٥} ^{١٨٦} ^{١٨٧} ^{١٨٨} ^{١٨٩} ^{١٩٠} ^{١٩١} ^{١٩٢} ^{١٩٣} ^{١٩٤} ^{١٩٥} ^{١٩٦} ^{١٩٧} ^{١٩٨} ^{١٩٩} ^{٢٠٠} ^{٢٠١} ^{٢٠٢} ^{٢٠٣} ^{٢٠٤} ^{٢٠٥} ^{٢٠٦} ^{٢٠٧} ^{٢٠٨} ^{٢٠٩} ^{٢١٠} ^{٢١١} ^{٢١٢} ^{٢١٣} ^{٢١٤} ^{٢١٥} ^{٢١٦} ^{٢١٧} ^{٢١٨} ^{٢١٩} ^{٢٢٠} ^{٢٢١} ^{٢٢٢} ^{٢٢٣} ^{٢٢٤} ^{٢٢٥} ^{٢٢٦} ^{٢٢٧} ^{٢٢٨} ^{٢٢٩} ^{٢٣٠} ^{٢٣١} ^{٢٣٢} ^{٢٣٣} ^{٢٣٤} ^{٢٣٥} ^{٢٣٦} ^{٢٣٧} ^{٢٣٨} ^{٢٣٩} ^{٢٤٠} ^{٢٤١} ^{٢٤٢} ^{٢٤٣} ^{٢٤٤} ^{٢٤٥} ^{٢٤٦} ^{٢٤٧} ^{٢٤٨} ^{٢٤٩} ^{٢٥٠} ^{٢٥١} ^{٢٥٢} ^{٢٥٣} ^{٢٥٤} ^{٢٥٥} ^{٢٥٦} ^{٢٥٧} ^{٢٥٨} ^{٢٥٩} ^{٢٦٠} ^{٢٦١} ^{٢٦٢} ^{٢٦٣} ^{٢٦٤} ^{٢٦٥} ^{٢٦٦} ^{٢٦٧} ^{٢٦٨} ^{٢٦٩} ^{٢٧٠} ^{٢٧١} ^{٢٧٢} ^{٢٧٣} ^{٢٧٤} ^{٢٧٥} ^{٢٧٦} ^{٢٧٧} ^{٢٧٨} ^{٢٧٩} ^{٢٨٠} ^{٢٨١} ^{٢٨٢} ^{٢٨٣} ^{٢٨٤} ^{٢٨٥} ^{٢٨٦} ^{٢٨٧} ^{٢٨٨} ^{٢٨٩} ^{٢٩٠} ^{٢٩١} ^{٢٩٢} ^{٢٩٣} ^{٢٩٤} ^{٢٩٥} ^{٢٩٦} ^{٢٩٧} ^{٢٩٨} ^{٢٩٩} ^{٣٠٠} ^{٣٠١} ^{٣٠٢} ^{٣٠٣} ^{٣٠٤} ^{٣٠٥} ^{٣٠٦} ^{٣٠٧} ^{٣٠٨} ^{٣٠٩} ^{٣١٠} ^{٣١١} ^{٣١٢} ^{٣١٣} ^{٣١٤} ^{٣١٥} ^{٣١٦} ^{٣١٧} ^{٣١٨} ^{٣١٩} ^{٣٢٠} ^{٣٢١} ^{٣٢٢} ^{٣٢٣} ^{٣٢٤} ^{٣٢٥} ^{٣٢٦} ^{٣٢٧} ^{٣٢٨} ^{٣٢٩} ^{٣٣٠} ^{٣٣١} ^{٣٣٢} ^{٣٣٣} ^{٣٣٤} ^{٣٣٥} ^{٣٣٦} ^{٣٣٧} ^{٣٣٨} ^{٣٣٩} ^{٣٤٠} ^{٣٤١} ^{٣٤٢} ^{٣٤٣} ^{٣٤٤} ^{٣٤٥} ^{٣٤٦} ^{٣٤٧} ^{٣٤٨} ^{٣٤٩} ^{٣٥٠} ^{٣٥١} ^{٣٥٢} ^{٣٥٣} ^{٣٥٤} ^{٣٥٥} ^{٣٥٦} ^{٣٥٧} ^{٣٥٨} ^{٣٥٩} ^{٣٦٠} ^{٣٦١} ^{٣٦٢} ^{٣٦٣} ^{٣٦٤} ^{٣٦٥} ^{٣٦٦} ^{٣٦٧} ^{٣٦٨} ^{٣٦٩} ^{٣٧٠} ^{٣٧١} ^{٣٧٢} ^{٣٧٣} ^{٣٧٤} ^{٣٧٥} ^{٣٧٦} ^{٣٧٧} ^{٣٧٨} ^{٣٧٩} ^{٣٨٠} ^{٣٨١} ^{٣٨٢} ^{٣٨٣} ^{٣٨٤} ^{٣٨٥} ^{٣٨٦} ^{٣٨٧} ^{٣٨٨} ^{٣٨٩} ^{٣٩٠} ^{٣٩١} ^{٣٩٢} ^{٣٩٣} ^{٣٩٤} ^{٣٩٥} ^{٣٩٦} ^{٣٩٧} ^{٣٩٨} ^{٣٩٩} ^{٤٠٠} ^{٤٠١} ^{٤٠٢} ^{٤٠٣} ^{٤٠٤} ^{٤٠٥} ^{٤٠٦} ^{٤٠٧} ^{٤٠٨} ^{٤٠٩} ^{٤١٠} ^{٤١١} ^{٤١٢} ^{٤١٣} ^{٤١٤} ^{٤١٥} ^{٤١٦} ^{٤١٧} ^{٤١٨} ^{٤١٩} ^{٤٢٠} ^{٤٢١} ^{٤٢٢} ^{٤٢٣} ^{٤٢٤} ^{٤٢٥} ^{٤٢٦} ^{٤٢٧} ^{٤٢٨} ^{٤٢٩} ^{٤٣٠} ^{٤٣١} ^{٤٣٢} ^{٤٣٣} ^{٤٣٤} ^{٤٣٥} ^{٤٣٦} ^{٤٣٧} ^{٤٣٨} ^{٤٣٩} ^{٤٤٠} ^{٤٤١} ^{٤٤٢} ^{٤٤٣} ^{٤٤٤} ^{٤٤٥} ^{٤٤٦} ^{٤٤٧} ^{٤٤٨} ^{٤٤٩} ^{٤٥٠} ^{٤٥١} ^{٤٥٢} ^{٤٥٣} ^{٤٥٤} ^{٤٥٥} ^{٤٥٦} ^{٤٥٧} ^{٤٥٨} ^{٤٥٩} ^{٤٦٠} ^{٤٦١} ^{٤٦٢} ^{٤٦٣} ^{٤٦٤} ^{٤٦٥} ^{٤٦٦} ^{٤٦٧} ^{٤٦٨} ^{٤٦٩} ^{٤٧٠} ^{٤٧١} ^{٤٧٢} ^{٤٧٣} ^{٤٧٤} ^{٤٧٥} ^{٤٧٦} ^{٤٧٧} ^{٤٧٨} ^{٤٧٩} ^{٤٨٠} ^{٤٨١} ^{٤٨٢} ^{٤٨٣} ^{٤٨٤} ^{٤٨٥} ^{٤٨٦} ^{٤٨٧} ^{٤٨٨} ^{٤٨٩} ^{٤٩٠} ^{٤٩١} ^{٤٩٢} ^{٤٩٣} ^{٤٩٤} ^{٤٩٥} ^{٤٩٦} ^{٤٩٧} ^{٤٩٨} ^{٤٩٩} ^{٥٠٠} ^{٥٠١} ^{٥٠٢} ^{٥٠٣} ^{٥٠٤} ^{٥٠٥} ^{٥٠٦} ^{٥٠٧} ^{٥٠٨} ^{٥٠٩} ^{٥١٠} ^{٥١١} ^{٥١٢} ^{٥١٣} ^{٥١٤} ^{٥١٥} ^{٥١٦} ^{٥١٧} ^{٥١٨} ^{٥١٩} ^{٥٢٠} ^{٥٢١} ^{٥٢٢} ^{٥٢٣} ^{٥٢٤} ^{٥٢٥} ^{٥٢٦} ^{٥٢٧} ^{٥٢٨} ^{٥٢٩} ^{٥٣٠} ^{٥٣١} ^{٥٣٢} ^{٥٣٣} ^{٥٣٤} ^{٥٣٥} ^{٥٣٦} ^{٥٣٧} ^{٥٣٨} ^{٥٣٩} ^{٥٤٠} ^{٥٤١} ^{٥٤٢} ^{٥٤٣} ^{٥٤٤} ^{٥٤٥} ^{٥٤٦} ^{٥٤٧} ^{٥٤٨} ^{٥٤٩} ^{٥٥٠} ^{٥٥١} ^{٥٥٢} ^{٥٥٣} ^{٥٥٤} ^{٥٥٥} ^{٥٥٦} ^{٥٥٧} ^{٥٥٨} ^{٥٥٩} ^{٥٦٠} ^{٥٦١} ^{٥٦٢} ^{٥٦٣} ^{٥٦٤} ^{٥٦٥} ^{٥٦٦} ^{٥٦٧} ^{٥٦٨} ^{٥٦٩} ^{٥٧٠} ^{٥٧١} ^{٥٧٢} ^{٥٧٣} ^{٥٧٤} ^{٥٧٥} ^{٥٧٦} ^{٥٧٧} ^{٥٧٨} ^{٥٧٩} ^{٥٨٠} ^{٥٨١} ^{٥٨٢} ^{٥٨٣} ^{٥٨٤} ^{٥٨٥} ^{٥٨٦} ^{٥٨٧} ^{٥٨٨} ^{٥٨٩} ^{٥٩٠} ^{٥٩١} ^{٥٩٢} ^{٥٩٣} ^{٥٩٤} ^{٥٩٥} ^{٥٩٦} ^{٥٩٧} ^{٥٩٨} ^{٥٩٩} ^{٦٠٠} ^{٦٠١} ^{٦٠٢} ^{٦٠٣} ^{٦٠٤} ^{٦٠٥} ^{٦٠٦} ^{٦٠٧} ^{٦٠٨} ^{٦٠٩} ^{٦١٠} ^{٦١١} ^{٦١٢} ^{٦١٣} ^{٦١٤} ^{٦١٥} ^{٦١٦} ^{٦١٧} ^{٦١٨} ^{٦١٩} ^{٦٢٠} ^{٦٢١} ^{٦٢٢} ^{٦٢٣} ^{٦٢٤} ^{٦٢٥} ^{٦٢٦} ^{٦٢٧} ^{٦٢٨} ^{٦٢٩} ^{٦٣٠} ^{٦٣١} ^{٦٣٢} ^{٦٣٣} ^{٦٣٤} ^{٦٣٥} ^{٦٣٦} ^{٦٣٧} ^{٦٣٨} ^{٦٣٩} ^{٦٤٠} ^{٦٤١} ^{٦٤٢} ^{٦٤٣} ^{٦٤٤} ^{٦٤٥} ^{٦٤٦} ^{٦٤٧} ^{٦٤٨} ^{٦٤٩} ^{٦٥٠} ^{٦٥١} ^{٦٥٢} ^{٦٥٣} ^{٦٥٤} ^{٦٥٥} ^{٦٥٦} ^{٦٥٧} ^{٦٥٨} ^{٦٥٩} ^{٦٦٠} ^{٦٦١} ^{٦٦٢} ^{٦٦٣} ^{٦٦٤} ^{٦٦٥} ^{٦٦٦} ^{٦٦٧} ^{٦٦٨} ^{٦٦٩} ^{٦٧٠} ^{٦٧١} ^{٦٧٢} ^{٦٧٣} ^{٦٧٤} ^{٦٧٥} ^{٦٧٦} ^{٦٧٧} ^{٦٧٨} ^{٦٧٩} ^{٦٨٠} ^{٦٨١} ^{٦٨٢} ^{٦٨٣} ^{٦٨٤} ^{٦٨٥} ^{٦٨٦} ^{٦٨٧} ^{٦٨٨} ^{٦٨٩} ^{٦٩٠} ^{٦٩١} ^{٦٩٢} ^{٦٩٣} ^{٦٩٤} ^{٦٩٥} ^{٦٩٦} ^{٦٩٧} ^{٦٩٨} ^{٦٩٩} ^{٧٠٠} ^{٧٠١} ^{٧٠٢} ^{٧٠٣} ^{٧٠٤} ^{٧٠٥} ^{٧٠٦} ^{٧٠٧} ^{٧٠٨} ^{٧٠٩} ^{٧١٠} ^{٧١١} ^{٧١٢} ^{٧١٣} ^{٧١٤} ^{٧١٥} ^{٧١٦} ^{٧١٧} ^{٧١٨} ^{٧١٩} ^{٧٢٠} ^{٧٢١} ^{٧٢٢} ^{٧٢٣} ^{٧٢٤} ^{٧٢٥} ^{٧٢٦} ^{٧٢٧} ^{٧٢٨} ^{٧٢٩} ^{٧٣٠} ^{٧٣١} ^{٧٣٢} ^{٧٣٣} ^{٧٣٤} ^{٧٣٥} ^{٧٣٦} ^{٧٣٧} ^{٧٣٨} ^{٧٣٩} ^{٧٤٠} ^{٧٤١} ^{٧٤٢} ^{٧٤٣} ^{٧٤٤} ^{٧٤٥} ^{٧٤٦} ^{٧٤٧} ^{٧٤٨} ^{٧٤٩} ^{٧٥٠} ^{٧٥١} ^{٧٥٢} ^{٧٥٣} ^{٧٥٤} ^{٧٥٥} ^{٧٥٦} ^{٧٥٧} ^{٧٥٨} ^{٧٥٩} ^{٧٦٠} ^{٧٦١} ^{٧٦٢} ^{٧٦٣} ^{٧٦٤} ^{٧٦٥} ^{٧٦٦} ^{٧٦٧} ^{٧٦٨} ^{٧٦٩} ^{٧٧٠} ^{٧٧١} ^{٧٧٢} ^{٧٧٣} ^{٧٧٤} ^{٧٧٥} ^{٧٧٦} ^{٧٧٧} ^{٧٧٨} ^{٧٧٩} ^{٧٨٠} ^{٧٨١} ^{٧٨٢} ^{٧٨٣} ^{٧٨٤} ^{٧٨٥} ^{٧٨٦} ^{٧٨٧} ^{٧٨٨} ^{٧٨٩} ^{٧٩٠} ^{٧٩١} ^{٧٩٢} ^{٧٩٣} ^{٧٩٤} ^{٧٩٥} ^{٧٩٦} ^{٧٩٧} ^{٧٩٨} ^{٧٩٩} ^{٨٠٠} ^{٨٠١} ^{٨٠٢} ^{٨٠٣} ^{٨٠٤} ^{٨٠٥} ^{٨٠٦} ^{٨٠٧} ^{٨٠٨} ^{٨٠٩} ^{٨١٠} ^{٨١١} ^{٨١٢} ^{٨١٣} ^{٨١٤} ^{٨١٥} ^{٨١٦} ^{٨١٧} ^{٨١٨} ^{٨١٩} ^{٨٢٠} ^{٨٢١} ^{٨٢٢} ^{٨٢٣} ^{٨٢٤} ^{٨٢٥} ^{٨٢٦} ^{٨٢٧} ^{٨٢٨} ^{٨٢٩} ^{٨٣٠} ^{٨٣١} ^{٨٣٢} ^{٨٣٣} ^{٨٣٤} ^{٨٣٥} ^{٨٣٦} ^{٨٣٧} ^{٨٣٨} ^{٨٣٩} ^{٨٤٠} ^{٨٤١} ^{٨٤٢} ^{٨٤٣} ^{٨٤٤} ^{٨٤٥} ^{٨٤٦} ^{٨٤٧} ^{٨٤٨} ^{٨٤٩} ^{٨٥٠} ^{٨٥١} ^{٨٥٢} ^{٨٥٣} ^{٨٥٤} ^{٨٥٥} ^{٨٥٦} ^{٨٥٧} ^{٨٥٨} ^{٨٥٩} ^{٨٦٠} ^{٨٦١} ^{٨٦٢} ^{٨٦٣} ^{٨٦٤} ^{٨٦٥} ^{٨٦٦} ^{٨٦٧} ^{٨٦٨} ^{٨٦٩} ^{٨٧٠} ^{٨٧١} ^{٨٧٢} ^{٨٧٣} ^{٨٧٤} ^{٨٧٥} ^{٨٧٦} ^{٨٧٧} ^{٨٧٨} ^{٨٧٩} ^{٨٨٠} ^{٨٨١} ^{٨٨٢} ^{٨٨٣} ^{٨٨٤} ^{٨٨٥} ^{٨٨٦} ^{٨٨٧} ^{٨٨٨} ^{٨٨٩} ^{٨٩٠} ^{٨٩١} ^{٨٩٢} ^{٨٩٣} ^{٨٩٤} ^{٨٩٥} ^{٨٩٦} ^{٨٩٧} ^{٨٩٨} ^{٨٩٩} ^{٩٠٠} ^{٩٠١} ^{٩٠٢} ^{٩٠٣} ^{٩٠٤} ^{٩٠٥} ^{٩٠٦} ^{٩٠٧} ^{٩٠٨} ^{٩٠٩} ^{٩١٠} ^{٩١١} ^{٩١٢} ^{٩١٣} ^{٩١٤} ^{٩١٥} ^{٩١٦} ^{٩١٧} ^{٩١٨} ^{٩١٩} ^{٩٢٠} ^{٩٢١} ^{٩٢٢} ^{٩٢٣} ^{٩٢٤} ^{٩٢٥} ^{٩٢٦} ^{٩٢٧} ^{٩٢٨} ^{٩٢٩} ^{٩٣٠} ^{٩٣١} ^{٩٣٢} ^{٩٣٣} ^{٩٣٤} ^{٩٣٥} ^{٩٣٦} ^{٩٣٧} ^{٩٣٨} ^{٩٣٩} ^{٩٤٠} ^{٩٤١} ^{٩٤٢} ^{٩٤٣} ^{٩٤٤} ^{٩٤٥} ^{٩٤٦} ^{٩٤٧} ^{٩٤٨} ^{٩٤٩} ^{٩٥٠} ^{٩٥١} ^{٩٥٢} ^{٩٥٣} ^{٩٥٤} ^{٩٥٥} ^{٩٥٦} ^{٩٥٧} ^{٩٥٨} ^{٩٥٩} ^{٩٦٠} ^{٩٦١} ^{٩٦٢} ^{٩٦٣} ^{٩٦٤} ^{٩٦٥} ^{٩٦٦} ^{٩٦٧} ^{٩٦٨} ^{٩٦٩} ^{٩٧٠} ^{٩٧١} ^{٩٧٢} ^{٩٧٣} ^{٩٧٤} ^{٩٧٥} ^{٩٧٦} ^{٩٧٧} ^{٩٧٨} ^{٩٧٩} ^{٩٨٠} ^{٩٨١} ^{٩٨٢} ^{٩٨٣} ^{٩٨٤} ^{٩٨٥} ^{٩٨٦} ^{٩٨٧} ^{٩٨٨} ^{٩٨٩} ^{٩٩٠} ^{٩٩١} ^{٩٩٢} ^{٩٩٣} ^{٩٩٤} ^{٩٩٥} ^{٩٩٦} ^{٩٩٧} ^{٩٩٨} ^{٩٩٩} ^{١٠٠٠} ^{١٠٠١} ^{١٠٠٢} ^{١٠٠٣} ^{١٠٠٤} ^{١٠٠٥} ^{١٠٠}

القسم الخامس

حجة وملاحظة

أصول العنصر الهليني

(هيرودوت : الكتاب الأول ، فصول ٥٦-٥٨)
أجرى « كرويسوس » تحقيقاً عن أية دول هي الأعظم في هيلاس ، بفرض ، أن يضمن تأييدها الودى ، ونتيجة لهذه الأبحاث ، وجد أن الإسرطيين والأثينيين يبرزون من بين الشعوب الدورية والأيونية على التوالى . ومن بين هذه الشعوب التي تركت أثارها ، الأيونيون وهم أسلا بلازجيون والدوريون ذوو أرومة هلينية وفى حين أن المنصر الأخير لم يرح موطنه ، كان المنصر الأول يهاجر بشكل مطرد وفى زمن الملك « ديوكاليون » احتلت القومية الأولى إقليم (ميثوتس) ، وفى زمن (دورس) Dorus بن « هيلين » أطلق على البلاد اسم (هستيايوتس) Histiaeotis عند سفح جبال (أوسا) Ossa والأوليمب . وبعد أن تم طردهم من هستيايوتس على أيدي الكادميين Cadmeians ، استقروا فى (بندس) Pindus واكتسبوا اسم (مقديني) Macedni . ونحركوا مرة أخرى (من بندس) إلى (دريوبس) Dryopis ومن دريوبس عبروا مباشرة إلى (بليونيزيا) حيث عرفوا باسم (الدوريين) . أما فيما يختص باللغات التى تكلمها البلازجيون ، فليس لدى معلومات دقيقة ، إلا أنه من الممكن أن نستشهد بدلالة البلازجيين^(١) الذين مازالوا موجودين ، والذين يشغلون مدينه (كريستون)^(٢) Creston فى قلب (الترهينيان) Tyrrhenians ، ومن البلازجيين^(٣) الآخرين الذين استوطنوا

(١) الحيرلا السابقون للشعب الذى يسمى الآن الدوريون ، وفى الفترة التى احتل البلازجيون فيها المنطقة التى تسمى الآن ثالسوتس Thessaliotis (المؤلف)
(٢) فى المنطقة التى تسمى الآن مقدونيا الشرقية (المحقق)
(٣) حلوا أولاً فى الإقليم قس مثل الأثينيين (المؤلف)

(بلاكيا) Placia ومقلاسيا Scylaei على جبال البنت Hellespont ، ومن المجتمعات المختلفة الأخرى من المنصر البلازجيوى التى غيرت أسماءها القومية . وإذا ما أمكن أن نستمد الاستدلال من الشواهد ، لقلنا بأن البلازجين الأصليين قد تكلموا لغة ليست يونانية ، وأن القومية الأثينية البلازجية لابد أن تكون قد تملت لغة جديدة وقت أن تحولت من البلازجية إلى الهلينية . وعلى أى وجه من الوجوه فإن سكان كريستون وبلاكيا ، الذين لم يتكلموا بأية حال اللغة ذاتها التى تكلم بها جيرانهم ، كان عليهم أن يتكلموا لغة بين الواحد والآخر ، ويتبين من هذا أنهم احتفظوا باللغة المينة التى جاءت معهم عندما هاجروا أصلاً إلى هذين السكان . ويقابل هذا ، أن المنصر الهليني قد استخدم لغة خاصة بشكل مستمر ، عندما جاء إلى الوجود^(١) . وبدأن انسلخوا من المنصر البلازجيوى ، وجدت اللغة نفسها ضعيفة ، إلا أنهم ترايدوا من هذه البدايات الصغيرة حتى أصبحوا يضمون الآن عدداً من القوميات ، وقواها الرئيسية ذات أصل بلازجيوى ، إلى جانب قوميات أخرى عديدة ، ذات أصل غير هلىنى . ورأى الأخير هو أن الأصل غير الهلىنى فى الروايات البلازجية ، بشأن الفشل الكامل إلى هذه القومية ينمو إلى أبعاد لا بأس لها .

مصر مهد الحضارة

(هيرودوت : الكتاب الثانى . فصول ٤٨ - ٥٨)

إن الطفوس الدينية ، فيما عدا عنصر الجوفة ، فى الاحتفال بـ « ديونيسوس » تشابه عملياً فى كافة تفصيلاتها مع الطفوس الهلىنية . . والأمر عندى هو أن « ميلامبوس » Melampus وهو رجل عبقرى ، لم يتدع إجراء التنبؤ لنفسه فصب ، وإنما طلب المعرفة من مصر ، مما نتج عنه عبادة « ديونيسوس » وكثير من البدع الأخرى فى هيلاس ، مع تمديدات طفيفة عن شكلها الأصلى . وإننى

(٤) هذه مائة لا أشك فيها أنها شخصياً (المؤلف) .

لا أستطيع أن أسلم بأن التشابه بين طقوس ديونيسوس في مصر وهيلاس مجرد صدفة ، لأنه في تلك الحالة كان يجب أن تكون الطقوس الهلينية متطابقة مع الطقوس الهلينية الأخرى ولا تكون ابتداءً حديثاً . وكذلك فإننى لا أستطيع أن أسلم بأن المصريين قد اقتبسوا هذا النظام ولا أى شكل آخر من الهلنيين . والذي أتصوره أن مصدر المعلومات الرئيسى عند « ميلامبوس » الخاص بديونيسوس كان هو « كدموس الصورى » وأن أتباعه المستوطنين من فينيقيا هم الذين استوطنوا في البلد الذى يسمى الآن (بروتيا) والحقيقة هى أن أسماء سائر الآلهة تقريباً قد وفدت إلى هيلاس من مصر . ولقد أقمت الحقيقة العامة عن أصلها غير الهلبي بالبحث والتقصى ، وفى رأئى أن موطنها الأصلى من المحتمل أن يكون مصر إلى حد كبير . لقد ذكرت فعلاً أن أسماء سائر الأرباب الهلينية الأخرى محلية في مصر ^(١) ، باستثناء « بوسيدون » Poseidon و « الديوسكورى » Dioseuri و « هيرا » Hera و « هستيا » Hestia و « ثيميس » Themis و « جراسيس » Graces و « زيرديس » Nereids وفيما يختص بالأرباب التى لا يزعم المصريون أن أسماءها تابعة لهم ، فإننى أتصور أنها أخذت عن البلازجيين ^(٢) ، وأياما كان الأمر ، فليس هناك شئ في مصر يطابق عبادة الإلهين ^(٣) .

وهذه الأنظمة ، شأنها شأن أنظمة أخرى سوف أشرع في وصفها ، قد جلبها الهلينيون من مصر أما إظهار الهلنيين (لهرمس) Hermes ، من جهة أخرى . فلم ينقله المصريون عنهم وإنما نقله البلازجيون ، والذى نقله عنهم في بداية الأمر الأثينيون ، وعن هؤلاء نقلها سائر الهلنيين ^(٤) . وسوف يتضح ما أقصد إليه لكل من يتعمق في أسرار عبادة كاييرى Cabeiri التى يحتفل بها في ساموثراس ،

(١) في هذا ، أنا أكرر ببساطة عبارات المصريين أنفسهم (المؤلف)

(٢) باستثناء بوسيدون الذى علم به الهلينيون من البربر ، فإن اسم بوسيدون محلى بينهم وحدهم . (المؤلف)

(٣) « أبطال » في اليونانية (المحقق)

(٤) في ذلك الوقت فإن الأثينيين الذين يخبرون هلينيين فلا ، كان لديهم مجتمع من البلازجيين الذين حلوا في بلادهم ، وهذا كان صدفة ، كيف كان البلازجيون يخبرون هلينيين (المؤلف)

والتي أخذها سكانها عن البلازيين^(١). وفيما يتعلق بتقليد البلازيين كان الأثينيون الهلينيون أول من أظهر عبادة « هيرميس » Hermes في الوضع الذي يئنته . وكل لدى البلازيين عقيدة حول هذا الموضوع ، تظهر في الأسرار المقدسة عند (ساموتريس) . وفي بداية الأمر (كما علمت من نحر شخصي في دودونا Dodona) توسل البلازيون في سائر خدماتهم الدينية ، إلى « الأرباب » مجردين دون لقب أو اسم (فالألقاب والأسماء كانت ماتزال مجهولة لديهم) إلى كل رب منها . لقد أطلقوا عليها (الأرباب) لأن هذا ما « وصل » إليهم في شكله الكلي واحتفظوا بالكون وكافة أجزائه هكذا . وعلى هذا ، وبعد فترة طويلة ، علموا من المصادر المصرية أسماء كافة الآلهة فيما عدا « ديونيسوس » ، ، وبعد فترة طويلة أخرى ، عرفوا اسم « ديونيسوس » . وبعد فترة جاء البلازيون يستقنون النبوة في دودونا^(٢) عما إذا كان ينبغي أن يقتبسوا هذه الأسماء من بضاعة خارجية . وأمرتهم النبوة بأن يفعلوا ذلك ، ومن ذلك الحين فصاعداً ابتهل البلازيون إلى الأرباب في الخدمات الدينية بأسمائها ، بينما نقل الهلينيون بدورهم هذه العادة من البلازيين .

ومن المبالغة أن نحدد ، كما نحدد تاريخاً حديثاً أو نحدد الأسماء أو أول أسس ، أن الهلنيين ظلوا يجهلون إعادة كل إله من الآلهة إلى أصله ، ويجهلون مظهرها الخارجي ، ويجهلون ما إذا كانت قد وجدت منذ الأزل أم لا . وأما أنا فلا أضع هسيود وهومر وتاريخها قبل جيلي أنا بأكثر من أربعة قرون ، وما أول ثقات قدما للهلنيين أنساب الآلهة ، ووضا للآلهة ألقابها ، وخصما لها تبجيلها وأعمالها ، وحددا ملامح مظهرها الخارجي^(٣) . وكاهنة (دودونا) هي مصدرى عن السلسلة الأولى للقضايا السابقة ، وفيما يختص بالقضايا الباقية التي تتعلق بهسيود وهومر ، فأنا مسئول عنها شخصياً .

(١) كانت ساموتريس قد احتلها في البداية البلازيون المجلس الذين حلوا في إقليم أثينا ، ومن هؤلاء البلازيين استمار أهل ساموتريس الأسرار المقدسة (المؤلف) .

(٢) كانت هذه النبوة أكثر قدما في هيلاس ، وهي الوحيدة التي كانت موجودة في هذه الفترة (المؤلف)

إن مسألة الارتباط بين (النبوة) في هيلاس وفي النبوة في شمال أفريقيا^(١) مادة قصة مصرية سوف أبداً يسطها . فيقرر كهنة (زيوس طيبة)^(٢) . بأن كاهنتين من طيبة نقلها الفنيقيون من البلاد ، وأظهر البحث أن إحداها قد بيعت في شمال أفريقيا وبيعت لأخرى في هيلاس . وهم يؤكدون أن هاتين المرأتين هما اللتان أوجدتا في الأصل النبوءات في أقاليم الأمم السابق ذكرها . ولقد سألت الكهنة كيف كانت الكاهنتان في مركز يمكنهما من أن ينطلقا بمثل هذه المعرفة الدقيقة . فكانت إجابتهما أنهم قد أجروا بحثاً دقيقاً ، ولكنهم لم ينجحوا في اكتشاف السر . وعلى هذا حصلوا على المعرفة التي يعيدون روايتها على الآن . وهذا ماسمته من كهنة طيبة ، في حين أن كاهنة دودونا قد روت لي الحكاية التالية : لقد طارت حمامتان سوداوان من طيبة المصرية إلى شمال أفريقيا وبعد ذلك إلى دودونا . وحطت الحمامة الأخيرة على شجرة زان وأعلنت بصوت إنساني ، أن إحدى معجزات زيوس يجب أن تقوم على تلك البقعة . واعتبر أهل دودونا أن الرسالة خارقة للطبيعة وتقذوها بعد ذلك . أما الحمامة التي طارت إلى شمال أفريقيا فيقال إنها أمرت البدر بأن يقيموا نبوءة لأمون وهي نبوءة أخرى لزيوس ، وهذه هي النصبة كما حكها لي كاهنة دودونا^(٣) ، والتي أيدها سكان محليون آخرون على صلة بالفريج . أما وجهة نظري الخاصة حول الموضوع فهي كما يلي . إذا كان الفنيقيون قد تناولوا حقيقة النساء المقدسات وباعوا واحداً في شمال أفريقيا وأخرى في هيلاس ، فإنها في رأيي ، المنطقة المعينة التي تسمى الآن هيلاس ومن قبل كانت بلازجيا التي بيعت فيها ، فلا بد وأنها كانت (ثيبروتيا)^(٤) Thesprotia . وخلال فترة الرق التالية هنالك لا بد أنها أسست ضريحاً لزيوس

(١) زيوس دودونا في أيروس وآمون في سيوة في الصحراء الليبية (المحقق)

(٢) آمون طيبة في مصر (المحقق) .

(٣) كانت أسماؤهما (برومينا) Promena الكبرى و (تيماريتا) Timareta الكبرى التالية

ونيكانرا الصغرى (المؤلف)

(٤) جنوب شرق أيروس (المحقق)

تحت شجرة بلوط ، ولابد أنها أقامته كما أقيم في البداية معبد زيوس في طيبة ، وينبغي أن تحفظ ذكره في مكان إقامتها الجديدة. وعشياً مع هذا ، فإنها تكون بعد أن تمكنت من اللغة اليونانية ، قد أنشأت نبوءة ، ولابد أن تكون قد ذكرت أن أختها لها قد بيعت في شمال أفريقيا بواسطة الفينيقيين أنفسهم الذين باعوها هي . وفي رأيي أن أهل دودونا قد أطلقوا على الكاهنتين عبارة (الحمامات) لأنها لم تكونا هيلينيات وبدتا للمواطنين على أنها صغيران كالصافير . وعندما أطلقوا هذه العبارة ، وبعد فترة من الوقت ، تحدثت الحمامة بصوت إنسانى ، أى أنه : عندما بدأت المرأة في الحديث بشكل مفهوم لهم ، وفي حين أنها عندما كانت تتحدث بلغة أجنبية ، كانت تبدو كأنها تتحدث إليهم بلغة الطيور . وإلا ، كيف يمكن لحمامة أن تتحدث بصوت إنسانى بالمعنى الحرفى للكلمة؟ وكذلك ، فعندما قالوا إن الحمامة كانت سوداء فهذا يعنى أن المرأة كانت مصرية . لأن أساليب التنبؤ التى اتبعت في طيبة المصرية ودودونا كانت ، على التوالى ، في الحقيقة متشابهة ، وأن علم التحنيط بطريقة الأحشاء كان من المحتمل أن يكون من أصل مصرى .

وكان المصريون أيضاً العناصر الأولى من الجنس البشرى التى أقامت الأعياد والمواكب ، والخدمات الدينية ، وقد نقلها الهلينيون جميعاً . واستنبط هذا من أن هذه الاحتفالات في مصر تبدو أنها اتبعت منذ تاريخ بعيد ، بينما كانت في يلاس بدعة جديدة .

هل الكولخيون مصريون

(هيرودوت : الكتاب الثانى . الفصول ١٠٢ - ١٠٥)

يبدو أن الكولخيين^(١) من أصل مصرى - تلك حقيقة لا حظها بنفسى قبل أن أحاط علماً بهما من الآخرين . وما إن شغل انتباهى . حتى قت باستقصاءات

(٣) شملت كولخس النصف الغربى من البلاد التى يطلق عليها حالياً جورجيا عبر القوقاز (المحقق) .

بين كلتا الأمتين ووجدت أن الكولخيين يتذكرون المصريين أكثر مما يتذكركم الآخرون . وقدم المصريون نظرية مؤداها أن الكولخيين هم بقايا جيش « سيزوستريس »^(١) Sesostris ولقد اذقت اقراضى على حقيقة أن الكولخيين لهم شعر أسود — وأثني كثيراً فى حقيقة أخرى هى أن الكولخيين ، والمصريين والسودانيين هم الأعضاء الوحيدون من الجنس البشرى الذين يمارسون عادة ختان الأطفال . ويعترف الفينيقيون والفلسطينيون والسوريون صراحة بأنهم أخذوا هذه المادة عن المصريين ، بينما يعترف السوريون الذين يعيشون حول أنهار ترمودون Thermodon و (بارثينوس)^(٢) Parthenius وجيرانهم ودولة (المقرون) Macrones يعترفون بأنهم أخذوا هذه المادة مؤخراً فقط عن الكولخيين . وهذه قائمة شاملة عن الأجناس التى تمارس الختان ، ويبدو أنهم جميعاً يقلدون المصريين أما فيما يختص بالمصريين أنفسهم والسودانيين ، فلا أستطيع أن أقرر أيهما أخذ المادة عن الآخر ، لأن الختان قديم جداً فى كلا البلدين . أما عن النظرية التى تقول بأن الآخرين قد أخذوا هذه المادة نتيجة احتكاكهم بالمصريين فأبني أجد لها سنداً قوياً فى الحقيقة التالية . إذ إن الفينيقيين الذين احتكوا بالهلبينيين توفقوا عن تقليد المصريين وأغفلوا ختان الجيل الذى جاء بعد ذلك . ودعنى أذكر عامداً ، مسألة أخرى يتشبه فيها الكولخيون بالمصريين . إذ إن الكولخيين والمصريين هم القريدون الذين لديهم منهج متماثل فى صنع الكتان^(٣) وإلى جانب هذا هناك مماثلات قوية بين الأمتين فى حياتهما الاجتماعية وفى لغاتهما :

طوائف

(هيرودوت : الكتاب الثانى . الفصول ١٦٤ — ١٦٨)

توجد فى مصر سبع طوائف وهى تسمى على التوالى ، الكهنة ، المحاربون

(١) شخصية أسطورية ، اختلطت باسماء عديدين من الفراعنة المصريين التاريخيين العظيم (المحقق)

(٢) نهران أناضوليان يطلق عليهما الآن (ترمسو) Terme وبارتين رسو Bartin وسبان فى البحر الأسود بين unie وسامون Samsun وبين أمارسرا Amastra وزونجداك Zonguldag فى مبلات .

(٣) الاسم التجارى لكتان الكولخيين هو (البرنيون) . بينما الكتان الذى يأتي من مصر يطلق عليه (المصرى) المؤلف .

رعاة البقر ، رعاة الخنازير ، التجار ، والأدلاء ، وكبار البحارة . وعدد هذه الطوائف سبع وأسمائها حسب حرفها . فالحاتلون يطلق عليهم Calosiries و Hermotybies ، وتأتى كل طائفة بدورها من الأقسام^(١) التالية فيتبع Hermotybies إلى أقسام . . . [أسماء منفلة] وتبلغ أقصى قوتهم ١٦٠.٠٠٠ رجل ولا ينخرط أى فرد من هؤلاء فى أية حرفة دينية . لقد كانوا جميعاً منصرفين إلى السلاح ، ويتبع Calasiries الأقسام الأخرى . . . (أسماء مهملة) . . . وتبلغ أقصى قوتهم ٢٠٠.٠٠٠ وكان محظوراً عليهم أيضاً ممارسة أى حرفة عادية ، ولا يزاولون سوى فن الحرب عن طريق التوارث . وإننى لأستطيع أن أقرر على وجه التحديد إذا ما كان هذا النظام قد أخذه الهلينيون من المصريين ، واضماً فى اعتباره أن الرجل التراقيين والفرس الليديين^(٢) وتقريباً سائر الشعوب اللاهيلية ، يعاملون الأشخاص الذين يمارسون الفنون والحرف ، ونسل هؤلاء الأشخاص ، على اعتبار أنهم فى مرتبة دون أعضاء المجتمع الآخرين ، فى حين أن الذين لا يزاولون الأعمال اليدوية يعاملون على أنهم من منشأ طيب . ولا سيما أولئك الذين ينصرفون إلى الأبحاء الحرة . وعلى أية حال ، فإن جميع الهلينيين تبناوا هذه العادة ولا سيما الإسبرطيون — والكورثيون ، على عكس الأمة التى تبدى ازدهار أقل للعمل اليدوى . وفى مصر ، حازت الطائفة العسكرية الامتيازات التالية التى لم تتمتع بها أى طبقة أخرى من السكان فيما عدا الكهنة : فهم أولاً يحتفظ كل منهم باثنى عشر فدانا^(٣) منتقاة من الأرض لكل منهم دون جزية ، ويكون دخل كل حصّة بالتناوب من فرد إلى آخر . ولا يبقى أبداً فى أيديهم بشكل ثابت ، وثانياً ، كان ألف من (الكالازيرس) وجملة مماثلة من

(١) ينقسم لإقليم مصر كله إلى قسمين (المؤلف)

(٢) سكان وادى أيدين Aidin الحديث غرب الأناضول (المحقق) .

(٣) الفدان المصرى مائة فراع مصرى مرج ، والفراع المصرى يساوى فى الطول م

الفراع السامى (المؤلف) .

(الدموقس) يخدمون سنوياً كحرس إمبراطورى . وإلى جانب الحصص ، فإن الأفراد الذين يشتغلون سنة فى هذه الخدمة يتسلمون ، كأجر إضافى ، جرامة يومية تبلغ خمسة أرغفة لكل فرد ، وقطعتين صغيرتين من اللحم وأربع مفارف من النبيذ .

انتقال الألف باء

(هيرودوت : الكتاب الخامس . الفصول ٥٨ — ٥٩)

كانت حروف الهجاء من بين الابتكارات المديدة المفيدة التى وصلت إلى هيلاس على أبهى الفينيقيين الذين جاءوا مع « كادموس » واستعمروا البلاد التى تسمى الآن (بويوتيا) ، وكانت حروف الهجاء هذه ، فى رأى ، غير معروفة من قبل فى العالم الهلنسى . لقد أدخلوا فى الأصل صناعة الكتابة التى كانت شائعة الاستعمال بين الفينيقيين ، ثم تغيرت مع الزمن حياتهم فتغيرت معها بذات الوقت رسوم حروفهم . وقد كان الأيونيون أكثر الإغريق الذين كانوا يقيمون يومئذ فى تلك البلاد حيث الفينيقيون ، ولذلك تعلم الأيونيون فن الكتابة من الفينيقيين ، واقتبسوا حروف كتابتهم مع تعديلات طفيفة ؛ ومازالوا بعد حين يسمونها بالفينيقية إنصافاً لمن نقلوها عنهم — على اعتبار أن الفينيقيين وحدهم هم الذين أدخلوها إلى هيلاس . واحتفظ الأيونيون أيضاً بالاسم القديم . اسم (القديد)^(١) على الأوراق لأنه وفى وقت ما ، اضطرهم ندره صحائف الكتابة إلى استخدام جلود الماعز أو جلود الماشية^(٢) كأدوات كتابية . ولقد رأيت بنفسى كتابة الحروف الكدموسية محفورة فى نقوش^(٣) على بعض القوالم الثلاثة فى معبد (أبولون أسيناس) بطيبة البوذية .

(١) « دقترى » فى اليونانية كلمة قلها العالم الشرقى المعاصر وظلت فى الفارسية الحديثة فى كلمة « دقتر » (دقتر الحسابات) وعادت إلى اليونانية الحديثة عن طريق التركية (المحقق) .
(٢) فى بلاد غير هيلينية كثيرة تستخدم الجلود المماثلة كواد كتابية حتى أيامنا هذه (المؤلف)
(٣) يشرح هيرودوت فى اقتباس هذا النقوش حتى يتحقق الأشخاص المذكورون فيها فإن الدليل الموجود فى الأسلوب واللغة يثبت أنه قد دخلت إليها تزويرات فى فترة حديثة نسبياً (المحقق) .

هل خان « بنو الكمايون » Alcmaeonidae هيلاس ؟

(هيرودوت : الكتاب السادس . الفصول ١٢١ - ١٢٤)

اعتقد أن افتراض أن « بنى الكمايون » عرضوا ترساً^(١) كإشارة إلى الفرس ، بقصد إخضاع الأثينيين تحت نير الشرقيين وهيباس Hippias ، هو افتراض لا يمكن قبوله . إذ إن كل شيء يبين أن « بنى الكمايون » كانوا على الأقل خصوماً أقوياء للاستبداد ، فمثلاً « كالياس »^(٢) Callias كان الرجل الوحيد في أثينا الذى لديه درجة كافية من الجرأة ، ف عندما طرد « بيزيستراتوس » Peisistratus من البلاد ، لأنه اشترى أملاكه من مزاد الخزينة ، فإنه لم يفوت فرصة للعمل ضد بيزيستراتوس بأشد ألوان العداء مرارة . وكان « بنو الكمايون » على الأقل خصوماً أشداء للاستبداد كما كان « كالياس » مما يجعلنى أرفض الاتهام الذى لا يستند إلى شيء بأنهم عرضوا ترساً فى هذه المناسبة . لقد نفى الطغاة « بنى الكمايون » طيلة فترة حكمهم بأسرها ، وانتهى حكم أنصار « بيزيستراتوس » خلال مكائدم - وهذا يعنى فى تقديرى الخاص ، أن « بنى الكمايون » كانوا محررى أثينا لحد كبير أكثر من « هارموديوس » Harmodius و « أريستوجيتون » Aristogéiton ، وبسبب قتل « هيبارخوس » فإن الأخير قد أغاظ العناصر التى ظلت على قيد الحياة من أسرة بيزيستراتوس ، دون الإسهام فى الإطاحة بسلطانهم ، بينما حرر « بنى الكمايون » الأثينيين بشكل متميز ، وإذا ما كانوا حقيقة هم الذين أوحوا إلى كلته (دلى) أن تقدم كل رد قدمته إلى الإمبراطيين وتحرضهم على تحرير أثينا ، حسب القصة التى شرحتها آتقاً ، وإذا ما قيل إنه كان لديهم بعض الضغينة ضد أعضاء مجلس العموم فى أثينا

(١) انظر هيرودوت الكتاب السادس فصل ١١٥ . وكان الترس يستخدم ليكس الرسائل التفرافية الشعبية ، عندما عادت الحملة الفارسية مرة أخرى بعد هزيمتها قماراتون افترض أن إشارة أبرقت إليها تصحبها بالإبحار حول أتيكا وترسو على الساحل المقابل أمام الجيش الأثينى وتمكنها أن تدير حول البلاد (المحقق)
(٢) ابن فانيوس وأب ميونيكوس (المؤلف) .

مما دفعهم إلى هذا السعى لخيانة البلاد ، فيمكن الرد ، بأنه في العالم الأثيني ، لم تكن هناك عائلة أخرى تمتت بشهرة أعظم أو بشرف مماثل . وعلى هذا فليس من المقول تماماً أن نفترض أن هذه الأسرة بالذات قد عرضت الترس لمثل هذا السبب . وبما لاشك فيه أن هناك ترساً قد عرض ، وليس هناك وراء في هذه الواقعة ، إلا أنني لأستطيع أن أقرب قيد أنملة أكثر مما فعلت هنا للإجابة على السؤال : من الذى أظهر الترس إذن ؟

هل خان الأرجيفيون هيلاس ؟

(هيرودوت : الكتاب السابع . الفصول ١٤٨ — ١٥٢)

يقدم الأرجيفيون الرواية التالية عن الدور الذى قاموا به بأنفسهم فى الحرب الفارسية الكبرى) . وتلقوا ، بآدى ذى بدء ، معلومات عن العاصفة التى تتجمع ضد هيلاس من العالم الشرفى ، وبهذه المعلومات التى توافرت لديهم ، علموا أن الهلينيين يعتمرون المفاوضة حول التعاون ضد الفرس . وطبقاً لهذا ، بعثوا برسول إلى (دلفى) يسأل الرب أى مسلك من شأنه أن يضمن لهم أفضل النتائج . إذ لم يكن قد مضى وقت طويل على موت ٦٠٠٠ من رجالهم فى المعركة على أيدي الإسبرطيين (بقيادة كليومينيس Cleomenes بن انكستندريادس Anaxandrides) وكان هذا (حسب روايتهم) هو السبب فى إرسال المبعوث . وردت عليهم الكاهنة بالآيات التالية :

بحق السماء الحبيبة ، بحق الجيران الذين قهروا يشاعة

ضموا الحراب فى غمدها وخنوا راحة

والتفتوا إلى عقولكم ، فالمقول سوف تنفذ البقية .

وكان إلقاء هذا الرد من جانب الكاهنة سابقاً على وصول البعثة الكونفدرالية إلى أرجوس ، حيث توبلوا هناك بالتحية فى المجلس وقدموا تملياتهم . وأجاب مجلس العموم على طلباتهم بأن أرجوس مستعدة لقبول مقترحاتهم على شرطين —

سلام لمدة ثلاثين عاماً مع إسبرطة ونصيب مساو في قيادة القوات الكونفدرالية كلها . وأضافوا أن العدل المطلق يحول لأرجوس نصيب الأسد في القيادة ، ولكنها تستكتفي بالمشاركة مع دولة أخرى . وكان هذا (حسب الرواية الأرجيفية) رد المجلس ، على الرغم من أن النبوءة قد اعترضت على التحالف مع الهلنيين . وأياً ما كان الأمر ، فإن خوفهم من النبوءة لم يكن يوازي نعتهم بسلام ثلاثين عاماً حتى يمكنهم ، كما قالوا ، أن يجمّلوا أولادهم يشبون إلى سن الرجولة في هذه الدة ، وفي حالة عدم وجود مثل هذا السلام ، أدركوا أنهم في حالة إصابتهم بكارثة أخرى في الحملة ضد الفرس ، فوق ركّام مصائبهم السابقة ، فإن الحاصل سوف يكون خضوع أرجوس تماماً لإسبرطة . ورد الأعضاء الإسبرطيون في البعثة المشتركة على إعلان مجلس أرجوس بأن أعلنوا أنهم سوف يحيلون مسألة الماهدة إلى رؤسائهم ، إلا أنهم فيما يتعلق بمسألة القيادة ، يجب أن يسترشدوا بتعاليمهم القاطعة ، والتي كانت تقضى بأن هناك ملكين في إسبرطة وملكاً واحداً في أرجوس ، ومن المستحيل إبعاد أحد الملكين من القيادة ، إلا أنه لم يكن هناك اعتراض على الموافقة لملك أرجوس بأن يصوت مع ملكي إسبرطة . وحسب رواية الأرجيفيين الخاصة ، فإن هذا البيان أخرجهم عن صبرهم إزاء اعتداء الإسبرطيين وجعلهم يفضلون أن يقيموا في قبضة الشرقيين على أن يسلوا بوحدة واحدة إلى الإسبرطيين . ونتيجة لهذا ، أنذروا البعثة بأن تكون خارج الحدود قبل غروب الشمس ، وذلك بمقتضى معاملتهم كأعداء . إلى هذا الحد يذهب الأرجيفيون أنفسهم ، إلا أن هناك قصة مختلفة تجري في هيلاس : - وهي أن « كركيس » قد أرسل مبعوثاً إلى أرجوس قبل أن يمد حملته ضد هيلاس . ويقال إن الرسول عند وصوله ألقى هذه المذكرة الشفاهية :

« أيها الأرجيفيون ، إن الملك كركيس له رسالة إليكم . إننا نؤمن بأن جدنا هو « برسيس » Perses ، بن « برسوس » ^(١) Perseus من

(١) ابن داناي Danse (المؤلف)

« أندروميديا » Andromeda بنت « كسيفيوس » Cepheus . ومادام الأمر كذلك ، فإننا لا بد وأن نكون قد انحدرنا من مجموعتكم ، ويكون من الغريب أيضاً من جانبنا أن نشن حرباً على أسلافنا ، ويكون غريباً من جانبكم أن تقفوا في وجهنا دفاعاً عن طرف ثالث . وأفضل طريق هو أن تلونوا بدياركم وتحافظوا على حيادكم ، وإذا ما فزت أنا ، فلن يكون هناك بلد سأعاملها بتقدير أكثر منكم .

ويقال إن الأرجيفيين تأثروا جداً بهذه الرسالة لدرجة أنهم لم يقوموا وقتها بأية مفاخرة أو طلب امتيازات من البعثين الهلينيين فحسب ، ولكنهم عندما حاول الهلينيون أن يطلبوا معونتهم أيضاً ، طلبوا بحزم المشاركة في القيادة ، وهم يدركون أن الإمبراطيين لن يوافقوا على مطلبهم ، وذلك حتى يتذرعوا بالبقاء على الحياد . ولتأكيد هذه الرواية ، أشار بعض الثقاق الهلينيين إلى رواية أخرى ، تتعلق بالأحداث في تاريخ متأخر . وهي أن بعثة أثينية تتكون من كاليبس بن « هيبونيكوس » Hipponicus وحاشيته ، تصادف أن وجدوا أنفسهم في سهمة في (صوصه) ^(١) Su-a عندما كانت بعثة أرجيفية مرسلة بذات في نفس الوقت ، وصلت تسأل « ارتا كسر كسيس » عما إذا كانت الاتفاقية التي عقدتها (أرجوس) مع « كسر كسيس » ما تزال قائمة ، أو إذا ما كانت حكومته تنظر إلى أرجوس على أنها دولة معادية —ورد الملك « ارتا كسر كسيس » عليها بأن الاتفاقية قائمة بشكل طيب . وأنه ليس هناك دولة يعتبرها أكثر صداقة من أرجوس .

وسواء كان « كسر كسيس » قد أرسل حقيقة مبعوثاً إلى (أرجوس) بالتعليمات السابق ذكرها ، أو أن بعثة أرجيفية زارت (صوصه) حقيقة لتؤكد من رأى ارتا كسر كسيس حول الاتفاقية . فليس في مقدوري أن أؤكد لها ، ولا أعرض أي رأى عن الموضوع أكثر مما قرره الأرجيفيون أنفسهم . فقط أعلم هذا جيداً ، لو أن جميع أعضاء الجنس البشري وضعوا أعباءهم الفردية بشكل جماعي

على أساس التبادل مع جيرانهم ، فإن خفض أعباء جيرانهم عن كسب يجعلهم يتقبنون ويسهمون بما أوجدوه هم أنفسهم . أما فيما يختص بهذا ، فإن الأرجيفيين ليسوا أكثر الناس خطيئة في التاريخ . وواجب الشخصى أن أروى ما قيل فعلا ، ولكن ليس على أن أسدقه -- وهو مبدأ أطبقه عامداً ، بشكل محدد ، على كل عمل . أما بخصوص هذا ، فهناك قصة أخرى حول الموضوع أن الأرجيفيين هم الذين حرضوا الفرس ضد هيلاس ، لأنهم أساءوا العمل في الحرب ضد الإسبرطيين ولم يشعروا بشئ . طيب إزاء إذلالهم الراهن .

كيف أنقذت أثينا هيلاس

(هيرودوت : الكتاب السابع . الفصل ١٣٩)

وعند هذا الحد ليس أمامى من طريق أسلكه سوى أن أسجل تقديراً سيقابل بالاستياء من جمهرة الرأى العام ، إلا أننى لا أستطيع فيه أن أحجم عن متابعة ما يبدو لى أنه الحق . ولنفترض أن الأثينيين قد وهنت عزيمتهم بما حل عليهم من خطر بعد ذلك كالهجرة من بلدهم ، أو نفترض -- فى حالة عدم وجود هجرة -- أنهم مكثوا وخضعوا لكسر كيس ، ففى هذه الحالة لم يكن فى وسع أحد أن يقاوم الملك فى البحر ، وطالما لم يقاوم أحد « كسر كيس » فى البحر ، فإن نتيجة الأحداث على البر يمكن أن تكون كالتالى . وبفض النظر عن طبقات المراكز الجاهزة التى جذبها البليبونيزيون عبر برزخ كورنثا ، فكان على حلفاء الإسبرطيين أن يهجروهم -- لا عن عمد وإنما بتأثير (قوة أعظم) كما حدث واستسلموا ، بشكل فردى ، إلى قوات الأسطول الشرقى -- وكان من المفروض أن يخضعوا للمزل . وفى ساعات عزلتهم قام الإسبرطيون بأعمال باهرة ومانوا ميتة مجيدة -- فيما عدا الحالات التى كان يصل إلى علمهم فيها أن الهلنيين الآخرين ينضمون إلى جانب الفرس حتى يصلوا هم أنفسهم إلى شروط مع « كسر كيس » -- إلا أنه فى ظروف أخرى كان الهلينيون يسقطون تحت نير الفرس . أما فيما يختص بالمواقع عبر

البرزخ فإننى فى حيرة من أن أكتشف ماذا كانت قيمتها الحربية بالنسبة إلى الملك الذى سيطر على البحر . وفى مثل هذه الظروف ، فإن الحق يحتم أن نقول إن الآثينيين كانوا منقذى هيلاس . وإن الميزان يميل إلى صالح كل جانب ينضم إليه الآثينيون ، فالآثينيون والآثينيون وخدمهم ، كانوا هم الذين نغيبوا أن تبقى هيلاس مجتمعة حراً ، وجمعوا شتات بقية العالم الهلينى (ومع ذلك حتى لا نستسلم للفرس) ، وم أيضا (بمد الآلهة) الذين ردوا غزو الملك . حتى لم يستطع نذير النبوءة الذى جاء من دلفى ، أن يجعلهم يهجرون هيلاس . لقد تمسكوا بأرضهم ولم يحجموا عن مواجهة أسلحة غزاة بلادهم .

الآثار الاجتماعية للحرب الفارسية الكبرى

(ديودورس : الكتاب الثانى عشر . الفصول ١ - ٢)

إن أى فرد يوجه انتباهه إلى المنصر غير المتوافق فى الحياة الإنسانية ، قد نلتبس له العذر إذا ما وقع فى تناقض . فليس هناك ، فى مجال التطبيق ، نعمة واحدة من النعم المفروضة فى الحياة تمنح للكائنات البشرية بشكل مطلق ، وكذلك ليس هناك شر من الشرور يقع بشكل مطلق دون أن يكون له مخرج من الخير . ويمكن أن ندرك ببيان هذا بتوجيه الانتباه إلى الأحداث الماضية ، ولا سيما تلك الأحداث ذات الأهمية البارزة . فلإن ضخامة القوى التى استخدمت فى حملة كسر كريس ملك الفرس ضد هيلاس تلقى ضوءاً على الخطر المريع على المجتمع الهلينى . إن السباق الذى فرض على الهلينيين أن يقاتلوا فيه لم يكن سوى العبودية أو الحرية ، فى حين أن المجتمعات الهلينية فى آسيا التى كانت قد وقعت بالفعل فى العبودية أثارت فى كل ذهن احتمال أن المجتمعات فى هيلاس سوف تواجه المصير ذاته ، وأياً ما كان الأمر ، فعندما وقعت الحرب ، على غير ما هو متظر ، فى نتيجتها المدهشة ، لم يجد سكان هيلاس أنفسهم غير بعيدين عن الأخطار التى تهدد مخب ، وإنما وجدوا أنفسهم يمتلكون إلى جانبها الشرف والمجد ، بينما كان كل

مجتمع هيلنى قد عيى . يمثل هذه البجوحة لدرجة أن العالم بأسره كان مندعها إزاء الكلال الذى انمكس إليه الموقف .

وخلال نصف القرن الذى أعقب هذه الحقبة ، خطت هيلاس خطوات واسعة نحو الرخاء . وخلال هذه الفترة فإن آثار البجوحة الجديدة ظهرت فى تقدم الفنون والفنانين بمظمة أكثر مما سجله التاريخ ، فمن المثال « فيدياس » Phidias الذى لمع فى ذلك الحين . وكان هناك بالمثل تقدم بارز فى المجال النهي ، حيث تفردت فيها الفلسفة والخطابة إلى شرف خاص على نطاق العالم الهليني ولا سيما فى أثينا . ففى الفلسفة كانت هناك مدرسة سقراط وأفلاطون وأرسطو ، وفى الخطابة كان هناك أعلام أمثال « بركليس » و « إيسقراط » Isocrates وتلاميذه ، وقد رجعت هذه على أيدي رجال أعمال ذوى شهرة عسكرية ، أمثال « ملتيايدس » Miltiades و « ثيميستوكليس » Themistocles و « أرسيتيدس » Aristides و « كيمون » Cimon و « ميرونيديس » Myronides وصف طويل من الأسماء الأخرى أكثر من أن يذكر . وفى مقدمة هؤلاء جميعاً ، أحرزت أثينا انتصار المجد والبسالة حتى إن اسمها حاز شهرة عالمية واسعة . لقد زادت من سطوتها إلى درجة أنها حطمت ، بمصادرها الخاصة ودون مؤازرة الأسبرطيين والبلينيوزيين ، مقاومة القوى الفارسية على البر والبحر وحطمت من هيبة الإمبراطورية الفارسية حتى إنها اضطرتها إلى أن تجلج بمقتضى معاهدة عن جميع المجتمعات الهلينية فى آسيا .

تأثير قوة البحر على التاريخ

(أنونيموس ^(١) Anonymous عرف فى ٤٦٠ - ٤١٠ ق . م) أنظمة أثينا

طبعة توييز تحقيق كالينكا E. Kalinka ١٩١٣ : الفصل ٢ . فقرات ٢ - ٨ و (١٦ - ١٧) .

(١) محفوظ بين الأعمال الصغرى لـ (كسينوفون) ، الذى أثبت بأدليل الداخلي أنه ليس

المؤلف الحقيقي (المحقق)

لقد وهب الحظ الأثنيين ميزة يمكن أن تقررها في العبارات التالية : كلن السكان ، رعايا إمبراطورية برية في وضع يمكنهم من توحيد موارد عدد من المجتمعات الصغيرة وأن يشتركوا في حرب التحرير ، بينما رعايا أى إمبراطورية بحرية ، وهم إلى حد بعيد سكان جزر ، لم يكونوا في وضع يمكنهم من تعزيز موارد المجتمعات المعزولة . لقد فصل البحر فيما بينهم ، وسيطرت عليهم الدولة السائدة ، وحتى لو نجح سكان الجزر في تركيز قوام في جزيرة واحدة دون أن يكونوا محجوزين ، فليس أمامهم سوى الهلاك ، وكانت المجتمعات البرية ، إلى أبعد حد ، تحت سيطرة الأثنيين ، ينظر إليها على أن القسم الأكبر منها يسره الخوف ، والأقلية تدفعها الحاجة . وما من مجتمع يمكن أن يحيا دون واردات وصادرات ، وهذه سوف يفكرها أى مجتمع لا يخضع لسادة البحر . وكذلك ، فإن سادة البحر كانوا في وضع (كما هي الحال مع الدول البرية فقط) يمكنهم من أن يدمروا إقليم دولة أقوى . ويمكنهم أن يعضوا قداماً حيث لا تمسك قوات معادية أو على الأقل قوى ضعيفة ، ويمكنهم من أن يواصلوا الإبحار بقرب التحصينات . ويمكن للدولة البحرية أن تستخدم هذه الاستراتيجية بارتباك أقل من الدولة التي تسعى إلى أن تركز الهدف نفسه على البر . وكذلك فإن سادة البحر في وضع يمكنهم من أن يعملوا بأسطولهم إلى مسافة بعيدة عن قواعدهم كما يرغبون ، بينما لا يمكن للقوى البرية أن تتحرك إلى مسيرة أيام كثيرة من إقليمهم الأصلي . وفي العمليات البرية ، تكون التحركات بطيئة ومن المستحيل حمل مؤن كافية لحملة طويلة الأمد . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الجيش الذي يعمل على البر عليه إما أن يتحرك عبر أقاليم موالية وإما أن يقاتل لمسافة ما ، في حين أن القوة البحرية يمكن أن ترسو حيث تجد التفوق إلى جانبها ، وهي ليست مضطرة إلى أن ترسو عند نقطة يكون فيها التفوق إلى الجانب الآخر ، ويمكنها أن تواصل إبحارها حتى تجد نفسها في أقاليم صديقة أو في سواحل دول أقل قوة .

وكذلك ، فإن النتائج السيئة التي تعود إلى الظروف الجوية تحمل بشكل ما حتى على أقوى الدول البرية ، بينما يمكن للدولة البحرية أن تتجنبها في يسر . ولا تصيب النتائج السيئة العالم كله ، وعلى هذا فإن سادة البحر قادرون دائماً على

أن يجذبوا إليهم المناطق التي لم تحل بها النتائج السيئة . وإذا ما غمرت بالانحدار إلى تفاصيل صغيرة ، فينبغي على أن أضيف أن السيطرة على البحار مكنت الأثينيين بالدرجة الأولى ، من أن يكتشفوا تهديداً للربح خلال علاقاتهم الخارجية الواسعة . وقد تجمعت رقة سقلية وإيطاليا وقبرص ومصر وليديا ^(١) والبحر الأسود ويليونيزيا أو أي بلد آخر ، تجمعت على سعيد واحد بفضل السيطرة على البحر . وكذلك فإن الفهم مع كل لغة منطوقة تحت الشمس قد مكنت الأثينيين من أن يختاروا هذا التعبير من اللغة وهذا الشكل أو ذلك ، ونتيجة لذلك استمتع الأثينيون بمحضارة كونية أسهم فيها سائر العالم الهليني وغير الهليني ، في مقابل الهلنيين الآخرين الذين كانوا يحفظون ، كقاعدة عامة ، لهجتهم المحلية وطرائق حياتهم وأزيائهم .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الأثينيين هم الأمة الوحيدة ، هلينية أو غير هلينية ، التي هي في وضع يمكنها من أن تجمع الثروة ، وإذا ما حدث وكانت بلاد غنية بأخشاب السفن ، فأى سوق لها ، إذا ما فشلت في أن تسود البحار ؟ وكذلك ، إذا ما حدث ، وكان بلاد غنى بالحديد والنحاس أو الكتان ، فأى سوق لها ، إذا ما فشلت في أن تجد مصلحتها في الاتجاه نفسه ؟ إلا أن هذه هي بالتحديد المواد الخام التي أبني منها سفنى — فإن الأخشاب تأتي من مورد واحد ، والحديد من مصدر ثان ، والنحاس من مصدر ثالث ، والكتان من مصدر رابع ، والقنب من مصدر خامس . وبالإضافة ، سوف يرفضون السماح بتصدير هذه السلع إلى الأسواق الأخرى ، أو أولئك الذين يفضلون معارضة رغباتنا سوف يزاحون عن البحر . وهكذا ، فأنا الذى لا أنتج إحدى هذه السلع في إقليمى الخاص ، أمتلكها عن طريق البحر بينما لا يوجد بلد آخر يمتلك واحداً أو اثنين منها في وقت واحد . والبلد نفسه لا ينتج الأخشاب والكتان ، فالترية جرداء ولا أخشاب فيها وحيث لا قنب . وكذلك فإن بلداً واحد لا ينتج الحديد والنحاس كما لا يوجد اثنان من هذه الخامات أو ثلاث مواد في بلد واحد ، وإنما توجد دائماً هنا ومادة هناك .

(١) الوادى الحديث لايدى Aidin في الأناضول الغربية (المحقق) .

وكذلك ، فبالإضافة إلى هذا ، فإن أى ساحل يرى له رموس أراض ناتئة في البحر أو جزر قريبة من الشاطئ أو عمرات ضيقة تقدم لسادة البحر نقطة لوتكاز يمكن أن يرسوا عندها ويلحقوا الضرر بالسكان البريين .

وأيما كان الأمر ، فهناك شيء واحد ، يفتقر إليه البر والبحر . فلنفترض أن الأتيليين قد سيطروا على البحر وباشروا أعمالهم من قاعدة جزرية ، فإنهم كانوا يتمكنون من أن يحدثوا أخطاراً كثيرة دون أن يخشوا أى انتقام (بسبب رؤية إقليمهم مدمراً أو معرضاً لغزو العدو) ، ما داموا يحتفظون بالسيطرة على البحر ، وفي الظروف الراهنة ، فإن المصالح التي أرسيت وأصبحت خاصة بأيتنا ، أيأ ما كان الأمر . تميل كثيراً إلى أن تذلل للعدو ، بينما البروليتاريا ، التي تدرك تماماً أنه ليست لديها ملكية خاصة معرضة للحريق أو الدمار ، تعيش في أمان وترفض الخضوع للعدو . وكان يمكن أن تظل في أمان من أى قلق ما دامت تسكن الجزر . وليس عليهم أن يخافوا خيانة الأقلية للمدينة أو فتح البوابات غيلة ، أو الهجوم المباغت من العدو (وهي أحداث كان من شأنها ألا تحدث في بلد غير جزرى) أو أى اضطراب داخلي مع البروليتاريا (التي لا يوجد مثلها في دولة الجزيرة) . وفي الوضع الراهن ، إذا ما حدث وشبت اضطرابات داخلية ، يمكن أن يتوقعوا تأييد العدو لها ، وسوف تسعى قواتهم إلى أن تدخل عن طريق البر ، مما يدفع السخط إلى حد المسيان . وفي دولة الجزر ، ليس عليهم أن يعضوا كل هذه الأمور في الحسبان . وأيأ ما كان الأمر ، فلم يحدث أصلاً أن اختاروا جزيرة موطناً لهم ، أو أخذوا لهذه الأمور الاحتياط الكافي . فقد أودعوا أملاكهم في الجزر ، بثقة كاملة في علو شأنها البحري ، وعارضوا في تدمير إقليمهم في أتيكا ، وهم على يقين ، كما حدث ، أنه في وسعهم فقط أن يظهروا اعتباراً إلى أتيكا مقابل تضحية مصالحهم ذات الأهمية البالغة .

الطاعون في أثينا (٤٣٠ ق.م)

(توكوديديس : الكتاب الثانى . الفصول ٤٧ - ٥٣)

فى وقت مبكر من الصيف التالى ، غزا البليونيون وحلفاؤهم أثينا بثلى قواتهم تحت قيادة «أرخيداموس» Archidamus « بن زيوكسيداموس » Zeuxidamus ، ملك الإسبرطيين ، كما فعلوا فى العام الذى قبله ، وراحوا يدمرون البلاد . ولم يكن قد مضى عليهم أيام كثيرة فى أثينا قبل أن يهاجم الطاعون الأثينيين . وكان من المفروض أن هذا المرض قد شب من قبل فى (ليمتوس) Lemnos وفى أما كن أخرى كثيرة ، ولكن لم يسمع من قبل أو فى أى مكان بهذا الوباء على هذه الدرجة والذى من التخريب . وفى البداية ، كان الأطباء عاجزين تماماً عن مقاومته ، وذلك لجهلهم بطبيعته ، وتزايدت حوادث الوفاة فيما بينهم ، لأنهم عرضوا أنفسهم أكثر مما يجب للعدوى . فلا الدواء ولا أى علم دنيوى آخر كان فى مقدوره مواجهة الآلام ، حتى ولاشفاعات المصلين ومشورة الأنبياء والالتجاء إلى الدين ، فقد ثبت أيضاً أنها لا حول لها ، فأصبح الأثينيون أخيراً غارقين فى الآلام حتى فقدوا إحساسهم .

وكان المفروض أن الوباء قد بدأ فى السودان المصرى ، ومن هناك رحل إلى مصر وشمال أفريقيا والجزء الأكبر من البقاع الفارسية . واكتسح فى طريقه الأثينيين القاطنين . وحدثت الحالات الأولى فى (بيرايوس) Peiraeus التى نشأت على أثرها رواية تقول بأن البليونيون سممو مخازن المياه (لم تكن الآبار الراهنة موجودة) . وبعد ذلك اتخذ الوباء طريقه من الميناء إلى المدينة . وزادت حالات الوفاة . وسوف أترك لكتاب آخرين ، محترفين أو هواة ، أن يسجلوا تأملاتهم فيما يتعلق بأصل المرض وحالاته (إذا ما كان يمكن افتراض الأسباب بقدرة كافية فى حساب اضطراب بالغ فى نظام الطبيعة) ، وسوف أقصر روايتى على وصف موضوعى ، ولاسيما الأعراض التى من شأنها أن تساعد أولئك الأخصائيين فى تشخيص الطاعون بشكل صحيح إذا ما قدر له أن ينتشر مرة أخرى . واستطيع

أن أقوم بهذا بشكل معتمد، لأننى أنا نفسى قد هاجمى الطاعون ورأيت كيف أنه
سدع ضحايا أخرى .

ومن الحقائق التى كان مسلماً بها أن السنة التى جاء فيها الطاعون كانت خالية
بشكل استثنائى من الأمراض الأخرى ، بما فيها حالات توعك الزاج السابقة .
فالأشخاص الذين فى صحة عادية هاجمهم المرض بشكل لا يمحى دون سابق إنذار .
وكانت الأعراض الأولى حى عنيفة فى الرأس واحتقاناً فى العيون ويتمبها مباشرة
داخل الفم تغير اللون الى الأحمر القانى فى الحلق واللسان ورائحة كريهة فى التنفس
بشكل غير عادى . ويلي ذلك من الأعراض عطش وذبحه فى الصوت، وتسرع العدوى
الى الصدر ، حيث تظهر على هيئة سعال عنيف . والحالات التى تصيب المدة تتلفها
تماماً وتفقر الحرارة كل ما يصنعه الداء الناشئ عنها، كل هذا مصحوب بضيق حاد. ولقد
هوجم معظم المرضى بنوع لا تأثير له يسبب رعشة عنيفة ، ويسبب فى بعض الأحيان
القيء. إلا أن هذا لم يحدث فى حالات أخرى . ومن الناحية الخارجية لم يكن
الجسم فى درجة حرارة مرتفعة عن الحرارة العادية ولم يصب فى سطحه الخارجى
بالبرقان ، إلا أنه كان محمراً ، أزرق اللون مغطى بطفح جلدى مع بثور وقرح صغيرة .
وأياً ما كان الأمر ، فإن درجة الحرارة الداخلية كانت مرتفعة بشكل مؤلم الى درجة
أن المريض لم يستطع تحمل لمس أخف الأشياء ، حتى الكتان ، على الجسد العارى،
ويود أن يغطس فى الماء الثلج . وألقى كثيرون من الذين أهدتهم الرعاية بأنفسهم
فى موارد المياه ، وهلكوا من عطش لا يرتوى - رغم أن الحال لم يتغير سواء
شربوا كثيراً أو قليلاً . ولم يكن هناك من البداية إلى النهاية فكاك من رعب
الأرق وعدم القدرة على الراحة . ولم يطل الوقت حتى بلغ الهجوم ذروته، إن الجسد
لم يفن إلا أنه أظهر قوة لم تكن منتظرة للمقاومة . وبعد ذلك ، فإن المريض سواء
استسلم كما يحدث عادة (للحمى الداخلية فى اليوم التاسع دون أن يفقد حيويته
البدنية تماماً ، أو اذا مات حطى هذه المرحلة ، فإنه يجد أن المرض قد هبط الى الأنحاء ،
التي تصبح فى حالة احتقان عنيف مصحوب بهجمات إسهال عنيفة. وفى هذه المرحلة
الثانية ، فإن أولئك الذين ظلوا على قيد الحياة يقعون فى بداية الأمر فريسة الانهالك و

وبعد إصابة الرأس ، يأخذ المرض طريقه الى الجند كله ، وعندما يعيش الجسد خلال الأجزاء الحيوية ، فإنه يترك آثاره على الأطراف . إنه يهاجم أصابع الأيدي ، وأصابع الأقدام والأجزاء الخاصة ، ويخرج الكثيرون من المرض وقد فقدوا هذه الأعضاء ويفقد البعض بصره . ويصاب آخرون خلال فترة النقاهة بفقدان مؤقت للذاكرة بحيث إنهم لم يستطيعوا أن يتعرفوا تماماً على أسدقاتهم ونسوا هويتهم الخاصة . وفي الحقيقة ، فإن ربع المرض يفوق الوصف . لقد كان كارثة فوق احتمال البشر ، ومن طبيعته الشاذة ، أن الطيور والحيوانات التي طلعت من جيفة الإنسان ، اما أن تنبت عن الجثث ، وإما أن تموت منها . وتوضح الحقيقة من اختفاء جثث الطيور في ذلك الوقت . إذ لم يرها أحد تأكل أولم تشاهد على الإطلاق ؛ إلا أنه كان من اليسور ملاحظة الظاهرة في حالة حيوان أليف كالكلب .

لقد وصفت الطبيعة العامة للمرض دون المضي في تفاصيل لاحصر لها حول صفاته وتنوعها في حالات انفرادية . وخلال اقتضائه كانت هناك مناعة من الملل العادية ، وإذا ما ظهرت إحدى هذه الملل فإن المناعة تحصرها . وتعود بعض حالات الوفيات الى الإهمال ، إلا أن المرضى الآخرين ماتوا على الرغم من التمريض الفائق . ولم يكتشف علاج يمكن أن يستخدم بالذات ، لأن العلاج الذي نجح في حالة ما أحدث وفاة في حالات أخرى . ولم تكن هناك بنية ضعيفة أو قوية محصنة ضد الهجوم . لقد اقتلع المرض كل ما سادفه وأفسد كل علاج . إن أكثر مصيبتين مرعبتين هما اليأس الذي يهبط على كل من يشعر بالمرض (وهو نوع من اليأس السريع الذي يقوض مقاومة الضحايا ويتركهم فريسة سهلة للمرض) والمصيبة الأخرى هي عدوى السليم من المصاب ، مما يجعل الناس يموتون كالأغنام وحدثت وفيات كثيرة بسبب العدوى . وحينما يرفض السليم أن يقترب من المريض خوفاً من العدوى ، فإن المريض يموت بلإعزاة ، ويحصل الموت سائر أهل المنزل لآخر واحد إذ لم يكن يوجد أحد يقوم بالتمريض . ومن جهة أخرى ، عندما يهبون لمساعدتهم كان هؤلاء يموتون أيضاً ، وقد عانى الناس في أى مستوى سلوكي الأمرين

بهذا الصدد ، مادامت مشاعرهم النبيلة دفعتهم الى أن يضحوا بأنفسهم وبعضوا في ترميض أصدقائهم بينما كان الرعب يخيم . فالأقارب الموتى غالباً ما يتمزقون من الأئين ويخلون مرا كرم . وكان أبرز التعاطفين مع المرضى والموتى هم من في دور النقاغة ، فهم يتحققون مما يمانيه المرضى وليس لهم ما ينجشونه على أنفسهم ، إذ أن الشخص نفسه لا يهاجمه المرض مرة أخرى هجوماً قاتلاً . لقد تلقوا التهتهة من كل إنسان ، وملاً ثم غرور اللحظة الراحنة بأمال كاذبة عن بقائهم في مناعة دأعة من الموت من أى مرض .

وزاد هول الألم بتركيز السكان الريفيين في المدينة ، ولا سيما في اللاجئيين أنفسهم . ولم تكن هناك بيوت لأوامم ، وتكدسوا في أكواخ خائفة في جو هذا السيف . ولم يكن هناك حد معين لوفاتهم . وتكدست جثث الموتى الواحدة فوق الأخرى ، بينما البؤساء الذين يعانون سكرة الموت تصوروا في الشوارع وتكاثروا حول جميع النافورات يتطلعون بياس إلى الماء . حتى أما كن البادة التي كان يستريح فيها الجنود امتلات بأجساد من مات في التخوم ، لأن الرعب كان يتدفق بشكل كبير حتى إن الشعب لم يعرف كيف يواجهه وفقد كل اعتبار للوصاية المقدسة أو الدنس . وانقلبت المراسيم الجنائزية للألوفة ، إذا أنهم دفنوا موتاهم بأفضل مافي وسهم ، وفقد الكثيرون كل إحساس باللياقة إزاء الضائقة التي وصلوا إليها بسبب عدد الوفيات في ذوبهم . ووجد بناء المهرقة أنفسهم محتجزين من الآخرين ، الذين يضمنون موتاهم عليها ويشملونها أو الحمالين الذين يلقون بالجثمان على كومة محترقة ويمجرون بسرعة .

وفي الحقيقة ، فإن الطاعون أعطى باعثاً لكل نزعة غير اجتماعية في أئينا . فاتفرجت الأحاييل والراوغات التي أحاطت من قبل بأنواع معينة من السلوك تحت وطأة تقلبات الحظ السريعة . وانطفأ الخير في بريق العين ووهب الفيلسوف ممتلكات على حين فجأة . أما الأخلاق التي لافكاك منها فكانت أن تصرف بسرعة وأن تصرف على اللهو ، مادامت الحياة والثروة من أمور الساعة . واختلت

رغبة الاحتفاظ بأساليب الشرف المروفة ، خلال عدم التأكد من أن الموت سوف يحل قبل تحقيق الهدف ، وانغمست الذة انوثة وكل ماسيتصل بها مكان الشرف والخير . أما مخافة الله وتقاليد الإنسان فقد كفت عن أن تزاوّل قدسيّتها . مادام الموت يحل بالمعادل وغير المعادل ، وبدا الأمر على أنه ليس هناك محل للاختيار بين التقوى والكفر ، ولم يتوقع المجرمون أن تمتد بهم الحياة حتى يقتص منهم ، وأحسوا بأن عقاباً قد حل بالفعل على رؤوسهم وأن الحياة يجب أن تسمح ببعض المتعة قبل أن تحمل بهم الضربة .

الجزء الثالث
فن التاريخ

القسم الأول

مسائل فنية

الإشكال الزمني حول هرقل

(هيرودوت : الكتاب الثاني . الفصول ٤٣ - ٤٥)

لقد سمعت ، فيما يتعلق بهرقل ، أنه من المقرر في مصر أنه كان واحداً من الآلهة الاثني عشر ، إلا أنني لم أنجح أبداً في العثور في مصر على أثر عن (الهرقل الآخر) الذي يآلهه الهليونيون . ومن المؤكد أن المصريين لم يأخذوا إطلاقاً الاسم من الهليونيين وإنما الهليونيون هم الذين أخذوا الاسم عن المصريين ، وقد تم هذا على أيدي الهليونيين الذين أطلقوا اسم « هرقل » على ابن « أمفيريون » Amphitryon . وأحد الأدلة الكثيرة على ما وجدته مقننا في هذه المسألة هو أن أبوى « هرقل » أمفيريون والكميتا Alcmena ، كانا ينحدرا من مصر ، وأن المصريين ينكرون كل معرفة بأسماء « بوسيدون » Poseidon « وديوسكوري » Dioscuri ، ولم يعرف الباشيون Pantheon المصري بهذه الآلهة الأخيرة ، في حين أنهم ، إذا كانوا قد أخذوا اسم أى إله من هيلاس ، كان لهذه الآلهة الثلاثة أن محدث انطبعا في ذكرياتهم . واعتقادی الشخصي ، أن الحكم الذي له وزن هو أن المصريين في تلك الفترة ، كانوا يمجون البحر وأن هذه الآلهة الثلاثة كانت من عناصر الملاحه في هيلاس — وهى ظروف من شأنها أن تجعل أسماء هذه الآلهة مألوفاً للمصريين أكثر من اسم هرقل ^(١) وإيما كان الأمر ، فقد كان لدى المصريين إله قديم خاص بهم يدعى « هرقل » يدخلونه في زمرة الاثني عشر إلها وقد وضع Eight هذه الآلهة الاثني عشر في الألف السابقة قبل حكم « أمازيس » ^(٢) Anasis .

(١) كان بوسيدون وديوسكوري الهما الهلينين للملاحه (المحقق)

(٢) ٥٦٩ - ٥٢٥ ق . م (المحقق) .

ورغبة في أن أحصل على معلومات دقيقة حول هذه المسائل من أولئك الذين هم أهل لتقديرها ، أبحرت إلى (سور) في فينيقيا ، حيث سمعت أنه كان هناك ضريح نذر لهرقل . ووجدته مزينا بشكل فاخر بعدد كبير من النذور ، وبه عمودان ، أحدهما من الذهب الخالص والآخر من الزمرد (ويظل العمود الأخير لامعاً مضيئاً في الظلام) ودخلت في حديث مع كهنة الآلهة وسألهم عن التاريخ الذي أقيم فيه الضريح ، وعلت عندئذ أنهم ، لا يقولون عن المصريين اختلافاً مع الهلنيين . إذ إنهم أخبروني أن تأسيس الضريح يعاصر تأسيس (سور) نفسها ، وهو تاريخ يعود إلى ٢٣٠٠ سنة مضت .

وفي سور ، شاهدت ضريحاً ثانياً لهرقل يطلق عليه (هرقل التاسوسي) Heracles of Thasos . وفي (تاسوس) نفسها (التي زرتها أيضاً) اكتشفت مبعداً لهرقل أقامه في الأصل الفينيقيون الذين استعمروا الجزيرة خلال رحلة قاموا بها بحثاً عن « يوروبا » ^(١) . — وهي حادثة سابقة بخمسة أجيال على مولد هرقل ابن « أمفترين » في هيلاس . وتبين نتائج أبحاثي بوضوح أن هرقل كان إلهاً قديماً ، وفي رأيي ، أن الإجراء الأكثر صحة هو ذلك الذي اتبعمه الهلينيون الذين أقاموا أضرحة مزدوجة لهرقل وحافظوا عليها ، وشرفوا بها من حمل الاسم على حدة باثنين من الطقوس المتميزة ، — أحدهما خالد وهو يدخل في زمرة سكان الأوليمب ، والآخر يدخل في زمرة القديسين ^(٢) . والهلينيون الذين يقترفون عبارات سيئة التقدير ، يسردون على الأخص أسطورة طفولية تتمثل بهرقل . تدور حول الوقت الذي زار فيه هرقل مصر ، وعندما أخذه المصريون ضحية وقادوه في موكب رزين ليقدّموه قرباناً إلى « زيوس » . لم يسد البطل أى مقاومة ولكنه عندما تأهبوا لوضعه على المذبح ، قاوم في سبيل حياته وأتى لآخر رجل وفي رأيي ، أن القصة تفصح عن الجهل الكامل من جانب الهلنيين بطبيعة

(١) كانت يوروبا، حسب أسطورة الهلنيين، أميرة فينيقية اختطفها الإله زيوس وهو في شكل ثور وحملها إلى كريت (المحقق)

(٢) « بطل » في اليونانية (المحقق) .

المصريين وأنظمتهم . فأن الذبائح الحيوانية ، عند المصريين ، بمثابة (نابو) فيما عدا الأغنام والثيران وتاج الثيران . ومن هنا . فليس من المقول أن يقدم المصريون ذبائح بشرية . وكذلك حسب افتراض الهلينيين فهناك هرقل واحد ، وهذا الفرد الوحيد كان كائناً بشرياً ، والفكرة القائلة بأنه ذبح عشرة آلاف لاتنفع مع مجرى الطبيعة . وبهذا أختتم ملاحظاتي حول الموضوع — الذى أثنى إزاءه بأنه لا الآلهة ولا القديسون يحملوننى رغبة فاسدة .

تقويم مصرى وتقويم هلىنى

(هيرودوت : الكتاب الثانى . الفصول ١٤٢ - ١٤٦)

وعند هذا الحد من روايتى ، كانت مصادرى هى المصريون وكهنتهم ، الذين حسبوا الفترة من أول ملك حتى كاهن « هيفا يستوس » *Heplæstus* ، وبشتمل حكمهم على سلسلة من ٣٤١ جيلاً ، مليئة بهذا العدد الدقيق من كبار الكهنة والملوك على التوالي . وتقدر الأجيال الثلاثة الآن بـ ١٠٠٠٠ عاماً^(١) ، بينما الواحد والأربعون جيلاً الباقية ، بالإضافة إلى الأجيال الثلاثة ، تكون ١٣٤٠ عاماً ، وفى عبارة أخرى فإن المصريون يؤكدون أنه بالنسبة لـ ١١٣٤٠ عاماً ، لم يكن هناك إله يتجسد فى شكل إنسان — وهى ظاهرة لاتنمى بطبيعتها ، فيما يتعلق بهذا الموضوع الى أى من ملوك مصر الباقين ، سواء كانوا سابقين على هذه الفترة أو لاحقين لها . وخلال الفترة موضع البحث ، يؤكدون أن إله الشمس قد تحول عن مكانه السابق فى أربع مناسبات — وهناك دورتان تحول فيها فكان ينبغي حيث يشرق الآن وشرق حيث يغرب الآن^(٢) . وأضافوا أن هذه الثورات الفلكية لم تحدث أى تنبير فى الظروف البيئية لمصر ، كسائل خواص التربة أو النهر ، وحالة الصحة العامة ومعدل الوفيات .

(١) ثلاثة أجيال مائة عام (المؤلف)

(٢) إشارة مضطربة إلى الدورة الفلكية من التقويم المصرى ، ومن المفروض أن يبدأ الشهر الأول يوم بزوغ كوكب الشمس (سونس) وهو نارخ يتكرر فعلاً مرة كل ١٤٦٠ سنة فلكية (المحقق) .

وقد حدث قبل زمانى أن زار « هيكاتيوس » Hecataeus الراسد^(١) طيبة Thebes وشرع فى سرد نسه الخاص ، حيث ربط فيه أسلافه بالآلهة فى الجيل السادس عشر ، وحيث فعل معه كهنة « زيوس » ما فعلوه مى من قبل ، على الرغم من أننى أحجمت عن أن أخذو حذوه . لقد أخذوه إلى البهو الداخلى الكبير للمعبد وعرضوا فى حضرته سلسلة من التماثيل الخشبية يصل عددها إلى الرقم الذى ذكرته . وكانت هذه هى عادة كل كاهن كبير أن يقيم له شيئاً يابن حياته فى هذا المبنى . وقد استعرض الكهنة هذه التماثيل مرة أخرى فى حضورى ، وزعموا وجود تسلسل غير منقطع من الأب إلى الابن ، وكان الإجراء الذى قاموا به هو أن يبدأوا من تثال الكاهن التوفى مؤخراً حتى يأتوا على نظائر السلسلة كلها . وأياً ما كان الأمر ، فم عندما كان « هيكاتيوس » يسرد نسه ويربط نفسه بإله الجيل السادس عشر ، لم يكونوا قانعين بإحصاء التماثيل وإنما سردوا أنسابهم م فى مقابل أنسابه ، حتى يظهروا تشككهم فيما يتعلق بتأكيده أن إنساناً ما من نسل الله . وكان منهجهم فى سرد أنسابهم المقابلة هو أن يملنوا أن كل تثال كان « بكرأ »^(٢) أو جده « بكر » حتى أوجدوا نظائر لـ ٣٤١ تماثلاً ، ورفضوا أن يربطوها بإله أو قديس . وكانوا ، بالطبع ، يزعمون بأن سائر سلسلة الأفراد التى تحتلها التماثيل كانت كائنات بشرية ، وهى جميعاً بعيدة عن الآلهة . وأياً ما كان الأمر فهم يسلن بأنهم قبل زمن هؤلاء الرجال ، فإن حكام مصر كانوا آلهة يسكنون بين البشر ، وكان يحكمهم أحدم دورياً . وطبقاً لروايتهم ، فإن آخر ملك — إله فى مصر كان « حورس » Horus بن « أوزيريس »^(٣) Osiris الذى يطلق عليه الهلينيون « أبولون » Apollo .

وكان من المفروض أن يكون أسنر الآلهة فى هيلاس م « هرقل » و

(١) راسد مبكر وراوى للأنساب من (ميليتوس) المدينة الهلينية (عرف فى القرن السادس ق م) — المحقق
(٢) Piromis فى المصرية تقابل الكلمة اليونانية (البىد) — المؤلف
(٣) Horus هو آخر ملك فى سلسلة الملوك الذين ارتقوا العرش فى مصر بعد الإطاحة بـ « تيفوس » والكلمة اليونانية « أوزيريس » هو « ديونيسوس » — المؤلف

«ديونيسيوس» و «بان» Pan بينا «بان» في مصر هو أعظم مجموعة الآلهة الأولى قديماً «ضمن» و «هرقل» من المجموعة الثانية «الاثني عشر» و «ديونيسيوس» من المجموعة الثالثة التي تنحدر من «الاثني عشر» وقد أصبح التاريخ الذي وضع فيه المصريون «هرقل» بالإشارة إلى حكم «أمازيس» ضحاً فحلاً . أما تاريخ «بان» فهو مبكر عن ديونيسيوس آخر الثلاثة ، على الرغم من أن الفترة التي تفصل ديونيسيوس من حكم أمازيس تقدر بـ ١٥٠٠ عاماً ويعلن المصريون أنهم يعرفون هذه الوقائع بالتأكيد خلال سلسلة غير منقطعة من الإحصائيات والسجلات التقويمية وفي مقابل هذا فإن «ديونيسيوس» هو الذي زعم أنه ابن «سيميل» Semele ابنة «كادموس» Cadmus الذي عاش منذ ١٠٠٠ عام قبل على وجه التقريب وعاش «هرقل» ابن «الكمينا» منذ ٩٠٠ عاماً ، «وبان» ابن بنيلوبي^(١) Penelope ٨٠٠ تقريباً ، أو لم يعيش قبل الحرب الطروادية بكثير . وعلى القارىء أن يأخذ من هذه التواريخ المتعارضة ما يجده أكثر امتناعاً أما تعقبي الشخصي على الموضوع فقد أوضحت فحلاً . وإذا ما كان الاثنان الآخران ، والذان أقصد بهما ديونيسيوس بن «سيميل» و «بان» «بنيلوبي» ، فقد أوجدوا أنارم وعاشوا حتى نهاية أيامهم في هيلاس ، مثل هرقل بن أمفيتريون ، ويمكن الجدل بأن الهلنيين الذين يحملون هذه الأسماء كانوا بالثلث أناسا اكتسبوا الأسماء من أسلافهم وسماوا الإلهين الضريين . وأيا ما كان الأمر ، فإن الهلنيين يؤكّدون أن «ديونيسيوس» بعد ولادته مباشرة ، التصق بفخذ زيوس وتقل «نيسا» Nyssa في جنوب مصر ، بينما كانوا غير قادرين أن يخبروك ماذا فعل «بان» مع نفسه عندما ولد . وعلى هذا فمن الواضح بالنسبة لي أن الهلنيين تعلموا أسماء هذين الإلهين في تاريخ متأخر عن هؤلاء الآخرين ، وأنهم ، في حساب أنسابهم ، يؤرخون مولد من الفترة التي سموا فيها عنهم لأول مرة .

(١) حسب الرواية الهلينية ، وكانت أم «بان» هي «بنيلوبي» والوالد نمرميس .

دليل كتابي

(بوليبوس: الكتاب الثالث . الفصل ٢٦ - ١ - ٥ و ٣٣ - ١٧ - ١٨)
والكتاب الثاني عشر الفصل ١١ - ٤).

لقد أوضحت الآن قسماً هذه المعاهدات ^(١)، ونصوص كل معاهدة محفوظة على ألواح ^(٢) البرنز، في معبد زيوس على الكايتول ^(٣) في حجرة الوثائق ^(٤). وعلى ضوء هذا، فلكل شخص الحق في أن تملكه الدهشة إزاء المؤرخ « فيليينوس » ^(٥) لا لجهله بالوقائع ^(٦)، وإنما إزاء الوقاحة التي لاتصدق عندما يجرؤ على تأكيد نقيض ذلك، ويزعم أن المعاهدات بين روما وقرطاجنة كانت قاعة وهي التي منحت الرومانيين من دخول أى جزء من صقلية ومنعت القرطاجينيين من دخول أى جزء في إيطاليا . وهو افتراض يستنتج منه أن الرومانيين انتهكوا وعودهم الموقرة عندما حلوا لأول مرة في صقلية ^(٧). على الرغم من أنه ليس هناك مثل هذه الوعود المكتوبة التي تبين أن هذا قد حدث في وقت ما، وهذا هو التأكيد الواضح الذي دونه « فيليينوس » Philinus في مجلده الثاني . ولقد أشرت إلى هذه المسألة في مقدمة مؤلفي، إلا أنني أرجأت تناولها إلى الفرصة الحالية . والتي أقوم بها الآن بشيء من التفصيل، على ضوء أن كثيراً من دراسي التاريخ قد انتقادوا إلى الخطأ في هذا الصدد بسبب اعتمادهم على عمل « فيليينوس » . . .

وينبغي ألا يدهش قرائي إزاء دقة هذه العودة ^(٨) حتى على الرغم من أنني

-
- (١) المعاهدات المبرمة بين روما وقرطاجنة (المحقق)
 - (٢) بعض أجزاء المستندات المحلية والرومانية (القانونية والدينية) حفرت على ألواح البرنز وبقيت من التاريخ القديم، رغم أن النصوص المذكورة هنا ليست من ييب المدد (المحقق).
 - (٣) جويتر كايتولانيس (المحقق)
 - (٤) كلية لضباط يختارون سنوياً و روما وكانت وظائفهم اقتصادية بمحة (المحقق)
 - (٥) مؤرخ هلني للحرب البونية الأولى (٢٦٥ - ٢٤٢ ق م) وكان من الواضح أنه معاصرها (المحقق)
 - (٦) ليس هناك ما يثبت على الدهشة في هذا، على اعتبار أنه حتى في أيامنا فإن هذه النصوص لم تكن معروفة لأكثر الدرسين اهتماماً بالشؤون العامة، بما فيهم أولئك الذين وهبهم عصرهم أكبر قدر من الذاكرة (المؤلف)
 - (٧) في عام ٢٦٤ ق م أول حملة في الحرب البونية الأولى (المحقق).
 - (٨) عودة القوة التي غزا بها هانيبال في إيطاليا

قد وصفت إجراءات « هانيبال » في أسبانيا بتفصيل أكبر أكثر من السند الأول الذى يعرض الشئون الجارية التى مرت من بين يديه ، وينبغى ألا يدينونى كذلك دون أن يستمعوا إلى إذا ما سلكت برية كملك المؤرخين الأفا كين عندما يرغبون فى خلق انطباع بالحقيقة . وأن القاعة فى ضريح (لا كينيوم) ^(١) Lacinium عن اكتشائى ، حيث وضعت فى سجل من ألواح برزوية بواسطة هانيبال ، فى أثناء حملاته فى إيطاليا . واثق باطمئنان فى هذه الوثيقة ، وعلى الأقل فى السائل التى رددتها ، والتي عرّضت على اتخاذها هادياً إلى .

وإذا ما كان صديقنا « تيمايوس » ^(٢) قادر على أن يضع يديه على أية محفوظات عامة أو نصب تذكارى تأييداً لرايه ، فهل لنا أن نفترض أنه فشل فى أن يذكرها؟ إن « تيمايوس » هو المؤرخ الذى يقارن قاعة الدليل السنوى فى (أسبرطة) مع قاعة الملوك (حتى عصور قديمة) ؛ وهو الذى يرتب حكم أثينا السنين والكاهنات فى (أرجوس) فى أعمدة مقارنة مع الظافرين فى الألعاب الأولمبية ؛ وهو الذى يعرض أخطاء الحكومات فى سجلاتها الرسمية عن هذه المعلومات ، التى يثبت فيها أن ثلاثة شهور غير دقيقة . مرة أخرى ، إنه « تيمايوس » الذى اكتشف السجلات على الجانب الخطأ من البانى العامة وقوائم القناصل الأجانب على أبواب المداخل الجانبية فى الأضرحة

مكان الجغرافيا فى التاريخ

(بوليبيوس : الكتاب الثالث . الفصول ٥٧ — ٥٩)

والآن وقد أدرت روايتى فيما يتعلق بـ وبقيادة القوات المادية والحرب ذاتها ^(٣) حتى أعتاب إيطاليا ، فإننى أرغب ، قبل أن أبدأ فى العمليات الحربية ، أن أناقش بإيجاز مسائل معينة غير مناسبة فى علمي . إذ إنه من المحتمل أن يتوق بعض القراء

(١) ضريح شهير للربة (هيرا) فى إقليم كروتون وهى عاصمة هيلنية فى آخر اجطاليا (المحقق).

(٢) « تيمايوس » من تور وينيوم : ٣٤٦ — ٢٥٠ ن . م) مؤرخ هلى شهير ضاعت مؤلفاته . ومعلوماته الرئيسية عنه مأخوذة من بوليبيوس . الهجيات الطويلة والصفة عليه (المحقق) .

(٣) الحرب الهانيبالية أو (الحرب الثانية) بين روما وقرطاجنة (المحقق) .

إلى معرفة ما هي تلك المسائل، بعد التوسع في جغرافية شمالى غرب أفريقيا وأسبانيا، ولم أسهب بالذات في مضائق جبل طارق، والمحيط الأطلنطى وظواهرها الثرية، والعجزر البريطانية وصناعة التصدير، أو مناجم الفضة ومناجم الذهب في أسبانيا ذاتها — وهى موضوعات أفسح لها المؤرخون السابقون صفحات عديدة من المناقشة. والسبب عندى في طرح هذا الفرع من التاريخ جانباً لم يكن لأنه غير مناسب، وإنما لأنه غير مرغوب فيه، ففي المحل الأول، لأنه يقطع بشكل مستمر سياق الرواية ويحرف انتباه القارئ الجاد عن موضوعي العمل، وفي المحل الثاني، هو قرار موضوعي بالأتناول هذه المادة بطريقة مستقلة أو عرضية. وإنما لأخصص لهذا الفرع مكاناً خاصاً ووقتاً خاصاً به وبعند أقدم رواية لها بكل ما أملك من دقة. ولهذا يبنى ألا يدهش قرائى، إذا ما وجدوا في الفصول التالية، أننى عندما أصل إلى مناطق أخرى من الاهتمام الخاص بالجغرافيا، قد طرحت جانباً هذا الفرع من البحث — فقد وضحت مبرراتى لهذا الآن. وإذا ما أمر أى قارئ على تلقى هذه المعلومات شيئاً فشيئاً، ومنطقة منطقة، فمن المحتمل ألا يكون مدركاً أنه بهذا يسلك مسلك النهم على المائدة. إذ إن النهم يتذوق كل طبق ولا يستمتع أصلاً بأى من المأكولات في لحظة أكله ولا يحصل على أية فائدة دأمة منها في طريقة المضغ والنفاء، وإنما يحصل تماماً على عكس ذلك، وكذلك فإن القارئ النهم يضر بنفسه، سواء كان هدفه التسلية المؤقتة أو التثقيف الدائم.

إن الحاجة الفعلية للتفكير الوثيق والإصلاح (في اتجاه دقة أكبر)، والتي يندرج تحتها هذا الفرع من التاريخ أكثر من أى فرع آخر، قد وضحت من اعتبارات عديدة، وسوف أذكر أكثرها إقتاعاً. إن سائر كتاب التاريخ تقريباً أو الأغلبية الساحقة على أى تقدير، سموا إلى وصف وضعية البلدان التي تقع على حدود العالم المأهول المعروف لدينا وخواصها، ووقت الأغلبية في عملها هذا في أخطاء لا حصر لها. وعلى هذا ليس هناك عنذ لطرح هذا الموضوع جانباً، ولكن بذات الوقت، مهما قيل في الرد على أسلافنا يجب أن يقال باعتناء كامل

ولا يقال بطريقة عارضة مشوشة . ويجب أيضاً ، ألا يقال بروح اللوم أو بنفمة التقرع . فمن الأسلم أن تمتدح جهودهم مع تصحيح أخطائهم ، مدركين أن أولئك المؤرخين لو كانوا قادين على أن يفيدوا من الفرص الراهنة ، لتوفروا على تصحيح وإعادة ترتيب كثير من أعمالهم التي نشرت . ففي الماضي ، كان من المستحيل أن نشير إلى عدد أكثر من المليونيين المرموقين الذين سموا إلى الإفادة من الأراضي المتاحة — وكان المائق هو عدم القدرة على تطبيق المشروع . وكانت مخاطر السفر بحراً وقتئذ لا يمكن حصرها بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، رغم أنها لم تكن سوى جزء من أخطار البر ولو نجح المسافر كذلك ، عن رغبة أو إكراه في الوصول إلى تخوم الأرض ، فإنه كان ما يزال معرضاً لعدم إكمال هدفه . وكانت أية ملاحظة أولية أخرى تلاق صعوبات لأن بعض المناطق أصبحت أقل حضارة والبعض الآخر خالياً من السكان ، بينما الاختلاف في اللغات البشرية جعل من الصعب إدراك أية معلومات نتيجة البحث فيما يتعلق بالأهداف التي تقع تحت البصر . وأياً ما كان الأمر فحتى عند إدراك هذه المعلومات ، فإن العمل الأكثر صعوبة منها جميعاً من وجهة نظر المراقب ، كان أن يزاوئ كيح جاح النفس لمقاومة إغراء المواطنين والتجارة الثرية ، حتى يعطى واجب الأمانة الأول إلى الحق وأن يقرر لنا الحقيقة كاملة ولا شيء غير الحق . وبالتالي ، فإن البحث التاريخي الدقيق في المواضيع السابق ذكرها لم تكن صعبة جداً بدرجة مستحيلة في الماضي ، وأبعد من أن تسحق اللوم لأخطائهم ونقائصهم ، فإن كتاب اليوم قد يطالبون بحجج برضائنا وإعجابنا بتلك هذه الوقائع كالمى يؤكدونها وللدرجة التي طوروا بها معرفة الموضوع الذى يوجد تحت ظروف معاكسة . وأياً ما كان الأمر ، ففي الأزمنة الحديثة ، نجد أن إمبراطورية الإسكندرية في آسيا وسيادة روما في كل مكان قد فتحت تقريباً كل العالم للبر أو البحر ، بينما رجال الأعمال وجدوا أطماعهم تتحول من المهن الحرة والسياسية وقدمت لهم الظروف الجديدة تشهيلات هامة وعديدة للاستثمار والبحث في الموضوعات السابقة ، ولهذا فإنه يحتم علينا أن نكتسب معرفة أكثر ودقة أفضل في حقول لم يخطط لها من قبل وسوف أحاول أن أسهم من

جانبى فى هذه المهمة عندما أصل إلى حد ملائم فى مؤلفى لهذا الفرع من الاستقصاء
وسوف أأمل أن أدرب طلاباً جادين على الموضوع بطريقة مفهومة . وفى الحقيقة ،
فإن هدفى الرئيسى هو تريض نفسى للأخطار التى أحصيتها فى رحلاتى فى أفريقيا
وأسبانيا ، وأيضاً فى بلاد الغال Gaul وفى المحيط الذى يغسل شطآن هذه البلدان
الغائية ، وكان من شأنها أن تمسح جهل أسلافنا فى هذا الفرع من المعرفة وأن
نجعل هذا الجزء من العالم مألوفاً للجمهور الهليني بكيفية الأجزاء الأخرى .

منهج الفصول المتعاقبة

(بوليبيوس : الكتاب ٢٨ الفصول ٥ - ٦)

إننى لست بناقض عن أن بعض القراء سوف يستقدون عملى على أساس أننى قدمت
رواية للأحداث غير كاملة ومشوشة - فثلاً ، عند المضى فى سرد حصار قرطاجنه
أغفلتها فجأة فى الوسط ، وقطعت سلسلة أفكارى ومضيت أتابع تدايير هيلاس ،
ومقدونيا وسوريا أو مناطق أخرى . وسوف يقال لى إن الدارسين الجادين
يطلبون الاستمرار ويرغبون فى متابعة موضوع ما حتى ختامه - وهو المنهج الذى
من شأنه أن يحصل على أقصى قدر من المكافأة ويقدم أكبر قدر من التعليم إلى القارئ
الليقظ . أما من جهتى ، فإننى لأخالف هذا الرأى لحسب بل إننى أعزز الرأى المضاد ، تدعيما
لما أنا على استمداد لأن أطلق عليه دليل الطبيعة ذاتها . فإن الطبيعة لا ترغب ،
فى حدود أى معنى على حدة أن تبقى بشكل مستمر على موضوع بذاته . إن الطبيعة
هى الحامى المنحصر للتغير ، وهى ، إذا ما مالت إلى موضوعات متشابهة ، فإنها
تفضل أن تعمل هذا فى فترات ومن زوايا مختلفة ، وسوف تتضح قضيتى من
زاوية السمع ، التى لا تميل إلى البقاء بشكل مستمر فى مراحل متتالية ، سواء سمعت
أو سرت ، ولكن التغيرات هى التى تنبها ، وبطريقة عامة ، أو أى شئ . شاذ
أو يقسم بالحنان عنيفة وسريعة ، وبأشئ ، فإن معنى النوق سوف يكون غير جدير
بالاحتفاظ به ، دون تغير ، حتى بالنسبة لأدسم الأطباء . إنها تشيع سريعاً حتى
إنها لتبتهج بالتغير وترحب دائماً بالطعام السهل أكثر من الطعام الدسم

لمجرد التجديد . وسوف تلاحظ الظاهرة نفسها في حالة رؤيتها ، فإن النظر غير كفو من الناحية العملية في التركيز بشكل مستمر على هدف واحد ، ولكن يثيرها القنوع والتغير في مجال الرؤية . وأياً ما كان الأمر ، فإن أكثر أمثلة القانون وضوحاً متوافر في ذهن ، فإن المشتغلين بالسائل الذهنية المصنية يجدون تسلياً مماثلة في نقل البؤرة العقلية والانتباه من موضوع إلى آخر . والحق أنني أعتقد بأن أكثر المؤرخين المرموقين القدامى يقتبسون عن وعى وسائل هذه التسلية ، البعض عن طريق التحريف في شكل الأسطورة أو الملحة ، والبعض الآخر عن طريق تشتيت روايتهم التاريخية بشكل كبير فتلاً لا يقصرون نقلهم على أجزاء هيلاس المختلفة ولكنهم يحتضنون العالم الخارجي . إنني أفكر في مثل هذه الحالات بصفى مؤرخاً ، يقطع روايته في منتصف سرد تاريخ تساليا وتداير « الإسكندر الفرايوي » Phraea ، ليصف مشروعات الإسبرطين في البليونيوز ، وحتى مشروعات أهل طيبة ، أو ، الأحداث في مقدونيا أو الليريا Lilyria أيضاً ، وهو الذي يشرع في التباطؤ في حملة إيفقراط Iphierates إلى مصر أو انتهاك حرمة « كليارخوس » Clearchus في البحر الأسود . والنتيجة هي أن سائر الكتاب التاريخيين سوف نجد أنهم استخدموا هذا المنهج في تناول ، إلا أنهم فعلوه بلا منهج نظامي ، حيث أكون أنا نظامياً . وعلى سبيل المثال ، فإن الذين سبقوني بمد أن سجلوا كيف أن الملك الليدي « باردليس » Bardylis أو ملك تراقيا « كيرسوبليتيس » Cersobleptes حصلوا على عروشهم ، لا يقطمون هذه الرواية دون أن يقدموا في القصة فصلاً ثانياً فحسب ، بل إنهم أيضاً ينسون أن يخطر ببالهم المتابعة بعد فترة معينة ، بدلا من النتيجة التي يرجونها إلى موضوعهم الأصلي ويتناولون الآخر بوصفه مجرد إدماج . وكان على منهجي الخاص أن يميز سائر مناطق العالم الهامة نسبياً والإجراءات الواحدة من الأخرى التي كانت مسرحاً لكل منها على حدة ، وأن يتمك وعرض لها ، بنظام ثابت من التتابع ، وأن يرى في حدود كل سنة متتالية ، الأحداث المتعاصرة التي وقعت فيها . وبهذه الطريقة أجمل من المستحيل بالنسبة للدراسين الجادين أن

يخطئوا المسائل التي التزم نحوها بمتابعة الأحداث التي رويت من قبل أو أن
أقطع روايتي للأحداث في أية حالة معينة ، بحيث لا أتروك جزءاً من الأجسام
السابق ذكرها مبتوراً أو ناقصاً . من وجهة نظر القارئ الجاد .

(أنا) في الرواية

(بوليبيوس : الكتاب ٣٦ . الفصل ١٢)

يفني ألا يدهس قرائي إذا ما أثرت في بعض الأحيان إلى نفسي باسمي
وفي بعض الأحيان بتصويرات عامة مثل (عندما قلت هذا) أو (عندما اتفق
في هذا) . والحقيقة أنني غارق جداً في الإحساس الشخصي ، في الإجراءات التي
يفني أن أرويها من هذه النقطة فصاعداً ، يجعل من الضروري بالنسبة إلى أن
أغير من الإشارة إلى نفسي . وعلى أن أتجنب أي حرج بتكرار اسمي بشكل رتيب
وعلى كذلك أن أكون يقطاً إزاء الانزلاق في السوقية باستخدام كلمة (أنا)
(في روايتي) في كل مناسبة . وعلى هذا سوف أفيد من كل هذه القضايا ، مختاراً
التنير الأكثر مناسبة لكل مقام ، بأفضل ما يقدري قرائي من أكبر رذيلة
شاقة وهي الإعلان عن النفس — وهي خدعة أسلوبية ينشأ عنها استعزاز غريزي
على الرغم من أنه لا يمكن تجنبه في الغالب عندما لا يكون هناك منهج بديل
عنه في تقديم مادة الموضوع . إن الحظ السعيد قد ساعدني على أن أحل هذه
المشكلة حسب الحقيقة التي تقضي بأن — في حدود أقصى معلوماتي — ليس هناك فرد
آخر قبل زماني ، كان اسمه « بوليبيوس » .

الخطب : مكانها الملائم وغير الملائم

(بوليبيوس : الكتاب ٣٦ . الفصل الأول ، والكتاب ١٢ . الفصل ٢٥ - ب)

من المحتمل أن يتطلع بعض قرائي لمعرفة كيف أنني لم أسع إلى الشهرة بإعادة
الخطب التي ألقيتها الأطراف المختلفة ، مادام لدى موضوع يمثل هذه الضخامة وبمجال

بمثل هذا الاتساع . ولكن لماذا لم أرسم خطي أغلبية المؤرخين ، الذين صنفوا الأحاديث الهامة حسب المناسبة التي أقيمت فيها كل منها ؟ إن الحقيقة التي تنفي بأننى شخصياً لم أنبذ هذا الفرع من الكتابة التاريخية قد وضحت بشكل كاف فى مقاطع كثيرة من عملى وذكرت فيها مراراً أحاديث ومؤلفات الناس الجماهيريين ، إلا أنه قد أصبح من الواضح الآن أننى لم أنشئت بأن أتابع هذه التجربة بمناسبة وبلا مناسبة ، على اعتبار أنه لن يكون من اليسير أن نجد موضوعاً أكثر أهمية من الموضوع الراهن^(١) أو مادة وافرة أقدمها لقرائى . وقد أضيف بأن شيئاً لن يكون أكثر بساطة بالنسبة لى من أن أقدم جهداً أديب من هذا النوع ، مادمت غير مقتنع بأن القاعدة نفسها تنطبق على المؤرخ كما تنطبق على السياسى . إذ أنه ليس من واجب السياسى أن يعلق أو يوسع تفاصيل أى موضوع يطرح للمناقشة ، وإتباعه أن يوائم بين عباراته فى مناسبة بينها ، وكذلك ليس من مهمة المؤرخ أن يتدرب على حساب قرائه أو أن يستمرض قدراته الأدبية بأقصى ماوى وسمه من جهد ، ولكن عليه أن يبذل قصارى جهده و إفادتهم وأن يشرح العبارات التي قيلت فعلاً ، ملزماً بأكثر المقاطع حيوية وفعالية .

ومما يجرى كضرب الأمثال ، أن أى فطرة من أكبر جرة تكفى بأن تفسح عن طبيعة اللون كله الذى تحتوى عليه ، وهذا ينطبق على الموضوع الذى بين أيدينا فعندما تدون رواية أو روايتان منوطتان فى عمل تاريخى ، وتكون هذه الروايات قد وضعت عن عمد ، فمن الواضح أنه لا يمكن أن يكون هناك انكسار أو ثقة بأية تأكيدات عن مثل هذا الكاتب ، وأقترح على أمل إقناع حتى أبطال « تيايوس » النيوردين شيئاً بخصوص سياسته والتطبيق فيما يتعلق بالأحاديث والمرافعات ، والذكرات الدبلوماسية الشفاهية ، وباختصار كل أنواع الخطب ، التي يمكن اعتبارها تقريباً مختصرات للخطب وكناهم مشترك للكتابة التاريخية . ولا يكاد القراء يخطئون فى أن « تيايوس » قد زيف ، وضيع عن عمد ، الأحاديث

(١) نشوب الحرب الثالثة والأخيرة بين روما وقرطاجة (١٥٠ / ١٤٩ ق.م) الحقن .

التي تنطوى عليها مؤلفاته ، بدلاً من أن يستعيد العبارات كما قيلت فعلاً ، فإنه يقرر ما ينبغي أن يقال ويأخذ بعدئذ في تفصيل ما تفيده الأحاديث والنتائج الأخرى لسلسلة الأحداث المعينة ، بدقة كما لو كان طالباً أمام تمرين يحاول أن يجعل منه فرصة لاستعراض قدراته ، وذلك بدلاً من أن يقرر العبارات التي قيلت فعلاً .

إن وظيفة التاريخ في الحل الأول أن يحقق العبارات الدقيقة التي قيلت بالفعل مهما كانت هذه العبارات ، وفي الحل الثاني أن يتحرى السبب الذي توج الحدث الذي تم أو العبارات التي قيلت بنجاح أو فشل . إن صياغة الوقائع عارية هي في حد ذاتها متعة دون أن تكون فيها قيمة تثقيفية ، بينما يحيل الشرح الإضافي للسبب من دراسة التاريخ عملاً مشمراً . إن التحليلات التي يمكن أن تستخلص من مواقف تماثل مواقفنا تقدم مواد واقتراحات للتنبؤ بالمستقبل ، فيما يتعلق بتلك المواقف التي تكون بمثابة النذير ، بينما تشجعنا في فترات أخرى بأن نبدي جسارة في الأحداث المقبلة بموجب موازنة تاريخية . وأياً ما كان الأمر ، فإن المؤرخ الذي يلغى كلا من العبارات التي قيلت وسببها ويحل مكانها عروفاً كاذبة وهرماً ، فإنه بعمله هذا يدمر الصفة التي يتميز بها التاريخ ، وهذا هو على وجه التحديد الضرر المستول عنه « تبايوس » ومن المعروف تماماً أن كل مجلد من أعماله مليء بهذه المادة الكاذبة .

الحديث والرواية في التاريخ

(ديودورس : الكتاب ٢٠ : الفصول ١ - ٢٢)

إن الكتاب الذين يدخلون الخطب المدة ذات النفس الطويل في مؤلفاتهم التاريخية ، حق عليهم اللوم والتصنيف وكذلك أولئك الذين يقدمون خطابات مستديرة . فإنهم لا يقطعون تسلسل روايتهم بحسب لمدى ملاءمة هذه الخطب الباطنية ولكنهم يفسدون دور التطلع الذهني في عقول أكثر الباحثين النيورين على المعرفة التاريخية . وبالإضافة إلى هذا كله ، فيجوز لأي شخص يرغب في

عرض قدراته الأدبية أن يؤلف مجموعة أحاديث ومذكرات دبلوماسية شفاهية ومدائح وهجاء ، إلى آخر هذا من الأعمال المستقلة . ويؤدى فريضة الشكل الأدبي ، وهو بإخراج موضوعاته بشكل مستقل في فرعى الكتابة ، فإنه قد يأمل بشكل معقول أن يبرز في كلا المجالين . وأيا ما كان الأمر ، فإن بعض الكتاب ركزوا فعلا على المقاطع الخطابية يمثل هذا الطول مما جعل التاريخ كله مجرد حاشية للأحداث — غافلين عن أن هذا التذوق لا تضيره الكتابة السيئة بحسب ، وإنما أيضاً الكتابة التي قد تعتبر ملائمة وباعثة على المبطلة في سياق آخر ، إذا ما خرجت عن مكانها الصحيح . ونتيجة لذلك فإن قراء مثل هذه المؤلفات سواء تخطوا الخطب ، أيا كانت درجة تمرسهم ، أو إذا ما تحطمت روحهم تماماً بسبب إسهاب الكاتب وعدم ملامتها ، فإنهم يتخلون عن محاولة قراءتها مرة واحدة . ولا يمكن لومهم على هذا ، مادام التاريخ بوصفه فرعاً من الأدب بسيط ومتجانس ويحمل تماثلاً عاماً لأجزائه ، وقد تكون الأجزاء محرومة من نعمة الحيوية ، بينما إذا ما حافظت على تعاونها المستمر ، فإنها تبقى في أحسن حالاتها ، وتجعل من مهمة القارئ شيئاً مرغوباً فيه وسهلاً بسبب تناسق بنائها الكامل .

وفي الوقت نفسه لن أتمادى فأدين المقاطع الخطابية بدون أسانيد وأنيذها تماماً من مؤلفي التاريخي . ملمساً ، كما يفعل التاريخ ، زينة القنوع ، فإن التاريخ لا يستطيع أن يستغنى عن مثل هذه المقاطع هنا وهناك (وهي لسة أكون أنا محجماً عن المضى بها في مكانها الصحيح) وطبقاً لما افندما يتطلب الموقف مذكرة شفاهية دبلوماسية أو خطبة برلمانية . وما أشبه ذلك ، فإن المؤرخ الذي ليس لديه الشجاعة لينزل إلى حلبة الخطابة معرض أيضاً للنقد . وفي الحقيقة ، هناك عدد لا بأس به من المناسبات التي نجدتها تقدم مورداً للخطابة الضرورية . وقد نتقبل الأحاديث الزاخرة والماهرة على أنها واقعة تاريخية ، وفي هذه الحالة يكون من الخطأ أن ننقلها ونخطئ مقاطع تمر عن ذكريات قد لا تخلو من معلومات من وجهة النظر التاريخية . وكذلك ، فإن مادة الموضوع قد تكون لها أهمية ومكانة مرموقة . كهذه بحيث قد لا تسمح العبارات التي قيلت بأن تبدو مناسبة للأفعال

الى وقت . كذلك ، فإن (الختام) قد يكون في بعض الأحيان باعثاً على الدهشة حتى إننا قد نجد أنفسنا مصطرين إلى أن نستخدم الأحاديث في اتساق مع الموضوع حتى تقدم مخرجاً من هذا المأزق .

ما الذي يكون موضوعاً تاريخياً حقاً؟

(ديودورس . الكتاب السادس عشر . الفصل الأول)

ينبغي أن يهدف الكتاب ، في سائر الأعمال التاريخية ، إلى أن يضمنوا مجلداتهم الخاصة أعمالاً ، سواء الخاصة بالدول أو الحكام ، وأن تحتوى عليها من البداية إلى النهاية ، وعند الفحص وجد أن هذا النهج ، هو الذي يقدم التاريخ إلى القارئ في أكثر الأشكال صفاء وسهولة على تذكره . فإن الأعمال التي لاتم دون اتصال بين البداية والنهاية ، تفقد التشويق الذي عند القارئ الجاد ، بينما التدابير التي تحتوى على اتصال العمل حتى ختامه فإنها تخلق رواية تشكل كلاً متكاملًا في ذاتها . وأياما كان الأمر ، فعندما تتعاون طبيعة الأحداث مع جهد القارئ ، ليس ثمة عذر لعدم سميته لتحقيق مثاله (وطبقا لهذا ، سوف أبذل قصارى جهدي ، من جانبي ، مادمت قد وصلت إلى أعمال «فيليب» بن «أمينتاس» حتى يشتمل على حياة ذلك الحاكم في المجلد الراهن . فضلال الأربعة والمشرين عاماً من حكمه كملك لمقدونيا ، والتي بدأ فيها بأقل السوارد ، بنى «فيليب» مملكته في أعظم دول أوروبا . أما وقد وجد مقدونيا تحت نير «الليبريين» فقد بسط سيادتها على أمم ودول عظيمة كثيرة ، وأقام ، بقوة شخصيته ، سطوتها على سائر العالم الهليني ، حيث خضعت له دول هذا العالم بمحض إرادتها . وأخضع المجرمين الذي نهبوا معبد (دلفي) ، وقد كافأته النبوة بطولته بقبوله في مجلس^(١) Amphictyon حيث تنازل عن أصوات الفوكيين المهزومين ككافأة على غيرته الدينية . وبعد إخضاع «الليبريين» والبايونيين Paeonians والتراقين ، والنوماد وسائر الأمم المحيطة ، ووضع خطة للإطاحة بالإمبراطورية الفارسية ، وأرسى القوات في آسيا وكان يعمل على تحرير السلط الهلينية عندما دامه القدر -

على الرغم من أنه ترك بناء حريباً يمثل هذا الحجم والكيفية إلى درجة أن ابنه الإسكندر تمكن من أن يطيح بالإمبراطورية الفارسية دون طلب معونة الحلفاء . وهذه الأعمال لم تكن فعل الحظ ولكن بفعل قوة شخصيته ، لأن هذا الملك برز على جميع الآخرين بسبب فطنته ، وشجاعته الشخصية وومضته الذهنية .

القسم الثاني — نعشر

نقد بوليبيوس لزينون لردوسي Zeno of Rhodes

(عرف في النصف الأول من القرن الثاني ق.م)

(بوليبيوس : الكتاب السادس عشر ، الفصول ١٤ و ١٧ و ١٨ و ٢٠)

إن الفترة التي وقعت فيها هذه الأحداث ^(٥) في (مسينيا) ، وكذلك العمليات البحرية السابق ذكرها ، تصادف أن تناولها إخصائيون تاريخيون عديدون ، ومن بينهم من أرى أن أقول كلمة قصيرة عنهم . طالما لا أستطيع أن أناولهم جميعاً . فإني سوف أقصر على أولئك ، في رأي سوف يوفون المناقشة والفحص ، وسوف أناول « زينون » و « أنتستينيس » Antisthenes الرودسي . ولدى أسباب عديدة لاختيار هذين الكاتبين . فكلاهما معاصر ، وكلاهما زاول قسطاً من السياسة ، ويمكن القول عموماً إن كليهما قد أخرج أعماله بدافع الطموح واعتبارات أخرى مشرفة للسانه تماماً ولم يكتبها بدافع عن مصالح ذاتية . إن تناولهما للأحداث ذاتها كما فعلت يعني من أن اتناولهما يدافع رؤية دارسين جادين يعتمدون عليهما في تفضيل عمل الخاص بمسائل موسمية لعدم الاتفاق فيما بيننا ، حسب شهرة بلادم والافتراض السابق بأن عمليات الأسطول يجب أن تكون موضع عناية خاصة من كتاب رودس .

إن أول خطأ كان يتعين على أن أكتشفه عند « زينون » و « أنتستينيس »

(١) تنظيم دول أدار الأحرار في داني وثرموبولاي ، والتي يمثل حصة أكبر من العالم الهليني أكثر من أي هيئة منظمة رسمية (المعلق)
(٢) ٢٠٢ — ٢٠٦ ق . م (المعلق) .

هو أن كليهما يمرض معركة (لاد Lade) على أنها أكثر حدة وليست أقل عنفاً وأنها كانت أكثر حماسة من معركة (خيوس)^(١). Chios ، ويقول كلاهما فيا يتعلق بتفاصيل العمل ونتائج العامة ، في عبارات عامة إن النصر ظل إلى جانب الرودسيين . وسأذهب إلى أبعد من هذا فأسلم بأن المؤرخين يحق لهم أن يرجحوا الكفة لصالح بلادهم ، ولكن لا يحق لهم أن يجعلوا أنفسهم ، يؤكدون ما يناقض الحقائق من أجل بلادهم . إن خطأ الجهل الذي يتعرض له الكتاب بحكم عدم العصمة الإنسانية هو أمر خطير للغاية ، ولكن إذا ما كنا - نحن المؤرخين - نزيغ الوقائع عن عمد لصالح أسدقاء البلاد ، فسوف يكون هؤلاء ، بالتأكيد ، في مستوى أقل من أولئك الذين يندرون أنفسهم لسوء التصرف باعتباره مهنة مربحة . وشخصيات كهذه تقدم أعمالها عن طريق انحيازها عن مصالحها المادية باتخاذها مستوى لؤلقاتهم ، وكذا فإن الساسة ، بالمثل ، غالباً ما ينصرفون إلى النتائج نفسها بالوقوع تحت تأثير تعاطفهم أو نفورهم . وهذا عامل يجب على القارئ أن يثابر على مراقبته ، وعلى الكاتب أيضاً أن يثابر على إرشاده . إن مسألتى قد أوجدتها الوقائع ذاتها .

(تأتي بعد ذلك سلسلة من الإيضاحات)

وتبدو كافة الإيضاحات التي قدمتها آنفاً ، في ضوء السهو الذي يقبل بالإيضاح والاعتذار - أن معظمها أخطاء عن جهل ، بينما الرواية المقدمة عن الاشتباك البحري خطأ ناجم عن التحيز الوطني . فإلى المسائل إذن ، التي يتعرض فيها زينون للنقد الجاد بشكل عادل ؟ هي على وجه اليقين ، أنه لم يكرس جل عنايته للبحث أو التأليف وإنما كرسه للأسلوب ، ولا يفصح زينون في هذا الصدد ؛ كعدد غيره من المؤرخين المشهورين ، كثيراً عن غروره الذاتي . وأنا أرى أنه

(١) وقم كل من الاشتباك في ٣٠٢ - ٢٠١ ن . م بعيداً عن خيوس بين فيليب الخامس ملك مقدونيا وقوات الأسطوال المتعدة من رودس وبرجاموم وذلك في (لاد) بين أساطيل مقدونيا ورودس منفردة (المحقق)

ينبغي أن تفكر ونولى مادة ^(١) الموضوع انتباهاً لا بأس به ، إلا أن هؤلاء القضاة اليقطين ليس لهم أن يعطوا أولوية للاستلوب . وسوف نجد هناك ، بعيداً عن جادة الصواب ، ما يمكن أن يكون عوامل أخرى في الكتابات التاريخية ذات النظام الأعلى ، نجد نجاحاً قدير في الغرور الذاتي في ذهن السياسي . ويمكنني أن أشرح المعنى الذي أقصد إليه بشكل أكثر إيضاحاً بالتال التالي

(يأتي بعد ذلك الإيضاح)

وفي رأيي أن هذه الفترات وغيرها من الفترات المائلة تلقى بالمؤرخ في خزي شائن ، بينما مثالنا (وكلن مثالا نبيلاً) ينبغي أن يسود كافة العوامل في الكتابة التاريخية ، والبديل الثاني الأفضل من هذا هو تركيز الانتباه على تلك التي هي أكثر أهمية وأكثر لزوماً حقيقة . لقد رغبت في أن أقدم الملاحظات بتأثر المناظر التي يقدمها (التاريخ) هذه الأيام والفنون والمهن الأخرى . وفي كل حالة ، فقد حط من شأن الحق والنفعة ، بينما أطرى على الدجل والادعاء ونظر إليها بإعجاب على اعتبار أنها سحر . مهيب ومدهش ، رغم أنها في الحقيقة أيسر من أن تنجز وأقل دقة في مستواها ليس في التاريخ فحسب ولكن في فروع الأدب الأخرى أيضاً .

أما فيما يتعلق بجعل زينون بطبوغرافيا (لاكونيا) Laconia ، فإن خطأ كان عظيماً لدرجة أنني لا أتردد في أن أكتب إلى المؤلف نفسه . ولم يكن المبدأ الذي أعمل على أساسه ، في اتخاذ هذه الخطوة ، أن أعتبر أخطاء زميلي كتحقيق عرض لي ، وهي عادة شريفة لدى بعض الكتاب ، إلا أنني سأبذل قصارى جهدي في أن أحسن وأصح أعمال المعاصرين لي كما لو كانت أعمالاً أنا ، وذلك في سبيل التقدم العام للمعرفة . وعندما تلقى « زينون » رسالتي ، انتم جداً عندما تأكد أنه من المستحيل أن يجري تغييرات في عمله وذلك لأن العمل كان قد نشر فعلاً ، غير أنه على الرغم من أنه وجد نفسه عاجزاً من الناحية المادية ،

(١) من الواضح أن هذا ليس مجرد عنصر بل إنه عنصر بالغ الأهمية ، في كافة الكتابات التاريخية الناجحة (المؤلف) .

فكان رقيقاً حتى إنه تقبل على بروح ودية للغاية . وسوف أنتهز هذه الفرصة فأقدم التماساً شخصياً إلى قرأتى من أجيالى والأجيال المقبلة ، فإذا ما أظهرت عامداً مقدمات زائفة أو تجاهلاً متممداً للحق فى أى مسألة من عملى ، فيتمعن عليهم أن ينتقدونى دون رحمة ، ولكن عندما أكون مذنباً عن جهل (دون سوء نية) ، فإننى التمس العذرة ولا سيما فى حالتى الخاصة ، مع وضع مدى تألىنى والنطاق الشامل لمادة موضوعى فى الاعتبار .

تقد ديونيسوس الهالىكارناسى لهيرودوت

وثوكوديدس وثيوبومبس

(ديونيسوس الهالىكارناسى) : الرسائل الأدبية الثلاث تحقيق ريس روبرتس W. Rhys Roberts كبردج ١٩٠١ ، مطبوعات الجامعة : رسائل إلى ثيوبومبس (الفصل ٢ و ٦)

ولمك تسأل أيضاً عن رأى إزاء هيرودوت وكسينوفون وتفترض مقدماً ما أنا كاتب عن الموضوع . وهاك ما قد فعلته فى مذكرات إلى ديمتريوس بخصوص المحاكاة) وتتناول أولى هذه المقالات مشكلة المحاكاة ، وتتناول الثانية أحسن نماذج التقليد فى الفروع الأربعة .. الشعر .. الفلسفة والتراجم . الأحاديث العامة ؛ وفى حين تتناول الثالثة التهج وهو لما تتم بعد . وسوف أسرد لك ماقلته فى الرسالة الثانية التى تتعلق بهيرودوت وثوكوديدس وكسينوفون وفيلستوس Philistus وثيوبومبس ، وهؤلاء اخترتهم على اعتبار أنهم خير النماذج :

» وهاك أفسارى فيما يتعلق بهيرودوت وثوكوديدس ، إذا ما كان يتمعن على أن اضمم فى عرضى للموضوع . إن الواجب الأول والضرورى للمؤرخ حقيقة ، بغض النظر عما يكون عليه أصله ، هو أن يختار موضوعاً جيداً يحلب التمتع لقرائه . وعندى أن هيرودوت كان أكثر توفيقاً فى هذا المجال من ثوكوديدس . فإن هيرودوت قد أوجد تاريخاً عاماً للعالم الهلنى والشرقى ، (بهدف إقناذ ماضى الجنس البشرى

من النسيان وضمان أن هذه الأعمال الرائعة وغيرها) - تقتبس مقدمة من الكتاب، وهو من الغلاف للغلاف توسيع لهذه المقدمة. أما نو كوديدس فقد كتب تاريخ حرب واحدة، لم تكن مجيدة أو ناضجة وكان من الخير لو أنها لم تكم (أعلى الأمل) يطويها النسيان وأخفيت عن الخلق. وقد كشفت مقدمته عن رداءة موضوعه، ويلاحظ فيها أنه دمر في هذه الحرب عدد من البلدان الهلينية، بعضها على أيدي غير الهلنيين والبعض الآخر على أيدي حلفاء الهلنيين، وكان تشتت السكان ودمار الحياة بدرجة لم يكن لها مثيل، مثل الهزات الأرضية، والمحاصيل الهزيلة، والأوبئة وكوارث أخرى. وبهذا فإن القارئ الذي لا رغبة له في سماع كل هذه المصائب التي حلت بهلاس، يصده موضوع المؤلف بمجرد الانتهاء من مقدمته. إن قصة الأعمال الرائعة للعالمين الهليني والشرق تسمو على هذه الكوارث القاسية التي جرت على الهلنيين وحدهم، وهذا يعني أن هيرودوت قد أبدى تروياً واختياره للموضوع أكثر مما فعل نو كوديدس. وليس من العدل أيضاً أن يقال إن نو كوديدس لم يكن لديه موضوع آخر إلا أن يكتب ما كتب إذا ما كان عليه أن يتجنب سلوك الطريق نفسه الذي سلكه سالفوه، على الرغم من أنه سيكون قد عرف دونية موضوعه: وعلى العكس، لقد حط من شأن الماضي في مقدمته وزعم أن جيله قد عاش خلال أعظم تجربة في التاريخ، مما يبين أن اختياره للموضوع كان مقصوداً. وهذا يخالف هيرودوت عاماً، الذي لم تعترضه حقيقة أن الكتاب الأول أمثال «هيلانا كوس He. anicus و خارون Charon قد نشروا أعمالاً حول هذا الموضوع ذاته، إلا أنه وثق، وهذا جائز، بقدرته الخاصة لإيجاد شيء أفضل^(١).

«والواجب الثاني للمؤرخ هو أن يرسى البداية والنهاية. ومن الواضح أيضاً، أن تقدير هيرودوت أفضل من نو كوديدس، إذ إن هيرودوت قد بدأ بسبب أول اعتداء من جانب الشرقيين على الهلنيين، وتوقف عندما وصل برواياته عند العقاب الذي وقع على الشرقيين جزاء لهم. أما نو كوديدس فقد بدأ بالنقطة

(١) يرى كثير من الدارسين غير هذا الرأي. ويقولون إن نو كوديدس هو أول مؤرخ علمي. بمعنى أنه يضع نفسه خارج الأحداث ويتخذ موقفاً محايداً ويكتب التاريخ غير متأثر باعتبارات ضيقة (المرجم)

التي أخذ عندها العالم الهليني نهاراً، وكانت بداية خاطئة من جانب مؤرخ هليقي وأثيني (ولا سيما إذا ما أخذنا في الاعتبار أنه لم يكن أحد الذين لحقهم تحقير أو نبذ، وإنما كان رجلاً جاهلياً شهيراً ارتفع بفضل آلام بني وطنه إلى مركز قيادة أعلى). وهو حقود أيضاً للدرجة أنه يحمل بلده مسئولية وهمة عن الحرب، وفي حين كان يبنى عليه أن يتعقبها إلى أصولها الأخرى، وكان يبنى عليه أن يبدأ بأعمال بلده الرائعة مباشرة بعد الحرب الفارسية والتي ذكرها بعد ذلك في مكان خاطيء وبطريقة لا أكثرث فيها ولا إيمان. وبعد أن أبدى عدالة وطنية كان يبنى أن يمرض الإسرطيين على المسرح. ويشرح خوفهم التزايد وتقمصهم عى أثينا، وبين كيف أنهم أوجدوا أعذاراً من نوع آخر للتورط في الحرب. ولم يكن في حاجة إلى أن يذكر (كوركيرا) وتصرف أهل ميجارا بعيداً عن هذه المقدمات. وما زالت خاتمة عمله متكاثرة الخطأ. وبعد أن يبين أنه شهد الحرب كلها ووعد بمرض كامل لها، توقف عند المعركة البحرية بين الأثينيين والبليبونيزيين في (كونوسبا) ^(١) Cynossema التي حدثت في العام الثاني والعشرين من المدوان. وكان في وسعه أن يفعل أفضل من هذا إذا ما عرض القصة كاملة وأن يختم عمله بالعودة العظيمة للمغنيين إلى (فيلي) Phyle، التي كانت بمثابة بداية لمودة حرية أثينا، وبهذا ينتهي عند إشارة من شأنها أن تسر قراءه تماماً.

أما واجب المؤرخ الثالث فهو أن يضع في اعتباره ما يبنى أن يشتمل عليه بحثه وما يبنى أن يتناضى عنه، وفي هذا الصدد، فإنني أشعر، مرة أخرى بأن ثوكوديدس أقل شأنًا من هيرودوت. إذ إن هيرودوت أدرك أن الرواية ذات طول لا يأس به ويجب أن تتنوع بالوقفات إذا كان له أن يحرز تأثيراً مقبولا على عقل القارئ، وأدرك أنه يجب ألا يظل على وتيرة واحدة (مهما كانت مهارة الكاتب في الصنعة) دون أن يوجد إحساساً مؤلماً بالثابة. وقد استهدف التنوع في كتابته

(١) يحتمل أن يكون الموت قد اختطفه ويحمل عمله علامات واضحة على عدم إتمامه (المحقق)

كبطله ومثله « هومر » والقارىء الذى يلم بأعماله يجد نفسه مسحوراً حتى آخر مقطع ومتعلّقاً دائماً إلى الزيد . أما ثوكوديدس فقد تناول حرباً واحدة. بذاتها ، وجمع شتات نفسه ، ومضى معها فى نفس واحد . الحركة تلو الحركة ، والسلاح يقرع السلاح ، وصفحة أثر صفحة ، حتى يصفى انتباه القارىء البائس ويدبّل نتيجة للتفرع . وفى وسع « بندار » Pindar أن يخبره بأن (السمل يمكن أن يتخم الزهور الحبيبة الحلوة) ، وعليه فى قترات أن يحقق الفضيلة المنفذة للتغيير والتنوع بالنسبة للمؤرخ . وهناك مكان أو مكانان تطفل فيهما عليهن ، مثل انحرافه حول نشوء الإمبراطورية الأودريسية Odryaian والدول فى سفلية .

« وثمة واجب آخر على المؤرخ وهو أن يجمع ويرتب مادته . ودعنا نرى كيف أن مؤرخينا يقومان بهذه العملية كلا على حدة . فتوكوديدس يلتزم بالترتيب الزمنى ، بينما يتبع هيرودوت التقسيمات الكبيرة لموضوعه . وهذا يجعل ثوكوديدس غامضاً ومن الصعب متابعته ، لأن هناك بالطبع فى أى سيف وأى شتاء أحداث كثيرة فى أما كن متفرقة ، وعليه أن يتوقف فجأة فى سلسلة أحداث كي يتناول سلسلة أخرى . وكذلك فن الطيبى أن ينقطع الخيط وينبذل مجهوداً كبيراً حتى نجد إجابة صحيحة لما يمرضه . ويبدأ هيرودوت بمملكة ليديا ، ويصل بالرواية حتى حكم « كرويسوس » ويمضى قدما حتى « كيروس » قاهر « كرويسوس » ، وبعدئذ يتناول حكاية مصر ، وأراضى الاستبس وشمال غرب أفريقيا . وهناك فى بعض الأحيان عرض لنتائج منطقية ، ويؤلف بين المادة ليصنع منها أشياء . وبأى الاستطراء فيجعل القصة أكثر متعة . ويزيد بعد ذلك تاريخ المليونيين والشرقيين فى فترة تزيد على مائتي وعشرين عاماً ، وفى ميدان يشتمل على سائر القارات الثلاث ، وينتهى بهرب « كركنيس » ، دون أن يقطع التسلسل . والذى يحضرنا هنا هو أن السكايب الذى تناول موضوعاً واحداً نجح فى تحطيم الوحدة إلى أجزاء كثيرة بينما السكايب الذى آثر مجموعة متنوعة من الموضوعات قد خلقى وحيدة متجانسة من كتلة أمور صغيرة .

« وسوف ألس سمة واحدة في تناول مادة الموضوع ، التي تجذب ، في أى عمل تاريخي اهتمامنا على الأقل بمقدار المسائل موضع الاعتبار فعلا . فها هو موقف الكتّاب إزاء الموضوع ؟ إن موقف هيرودوت صائب دائماً . إذ إنه يتجه للخير ويعتق الشر . أما موقف « ثوكوديدس » فرر لا يلين ، ولا ينفر لبلاده أنها ألقت به في النقي . ولا رحمة عنده في تناول أى شيء على خطأ بالتفصيل ، ولكن عندما يكون الأمر على صواب ، فإنه إما أن يتجاهله تماماً وإما أن يحسه مساً خفيفاً أو يذكره بضعفينة .

« أما ثيوبومبس الخيوسى ^(١) التلميذ الأشهر لابسوقراط Isocrates فهو مؤلف عدد من الخطب (مدائح سياسية) من (رسائل خيوس) وبعض الماهدات الهامة وهو كؤرخ محترف له بعض الفضائل . فإن موضوعاته — نهاية الحرب البليبونيزية وحياة فيليب — عمل جيد ؛ فالترتيب في كلا الحالتين واضح ومن السهل متابعتها ؛ إلا أن أقوى فضائله هي وعيه الأدبي والصناعة . ويكشف الدليل الداخلي ، بغض النظر عن عباراته الواضحة ، عن الجهد في عمله التحصيلي ، والقيمة الموجودة في مجموعة مادته ، وعدد الأحداث التي كان شاهداً عياناً لها ، وعدد الجنود المشهورين المعاصرين ، والساسة والفكرين الذين احتك بهم . ومن الجلي أنه كان دائم التفكير في عمله . وبعض الناس يجعل من التاريخ هواية ؛ وقد وهب ثيوبومبس حياته للتاريخ . وإن النطاق الواسع لاهتمامه سوف يقدم فكرة ما عن عنائه المضني . فإنه يسجل أصول الأجناس وتأسيس الدول ، ويرسم الحياة الخاصة وشخصيات الملوك ، ويضم إلى عمله كل ظاهرة بارزة ومفصلة على البر أو البحر . ويكون من الخطأ أن نفترض أن هذا مجرد الجاذبية . بل على العكس إنها مفيدة للدرجة ما . وسوف أقنع نفسي بالحقيقة المقبولة على نطاق شامل وهي أن التربية الأدبية الأكثر سمواً تتطلب معرفة بعمق الاجتماع ^(٢) ، والقانون ،

(١) ٣٨٠ — ٣١٠ ق. م. (المحقق)

(٢) غير هيلين مثل هيلين (المؤلف)

والعلوم السياسية والتراجم . وفي سائر هذه الموضوعات يعتبر « ثيوبومبس » حجة ولا تنفصل هذه المعلومات بشكل منفصل عن سياقها التاريخي . وهذه هي بعض الصفات التي تدعو للإعجاب عند مؤلفنا . وبالإضافة إلى ذلك فإن عمله يوجد برمته في التعاليم الدينية الطريفة والفلسفة الأخلاقية ، ولم يتناول عمله التميز والذي يمد في القمة بدقة أو مهارة أى كاتب من قبله أو بعده . إننى أشير إلى كفايته لا مجرد رؤية المظاهر الواضحة لأية حادثة وتقريرها ، وإنما لكشف الأسباب الخفية والدوافع والملابسات السيكلوجية ، التي ينجح الناس العاديون من الصعب تفسيرها ، ولأجل الكشف عن كافة أسرار الفضيحة المزعومة والذيلة الخفية . ومن المحتمل أن يكون الفحص الأسطوري للأفئدة التي تحررت من الجسد وعلى كرسى الاعتراف في العالم الآخر يصلح ك موضوع لبحث كالذى استخدمه المؤرخ ثيوبومبس وهذا ما أعطاه شهرة الحقد في وزن الشخصيات البارزة بالدقة وبتفاصيل غير ملائمة . والحق ، أنه بمثابة الجراح الذى يضع الكى والتشريط بأعمق ما تكون عليه الأنسجة المعتلة فيزيل الزوائد ، دون أن يمس الأعضاء السليمة الطبيعية .

وهذه تشكل أساس شخصية ثيوبومبس كما تبينه من تناوله لمادة موضوعه وكما تتميز من أسلوبه .. إذ إنه ليس طاهراً ، وعلى الأخص في مسألة الانحرافات ؛ فهي في بعض الأحيان لا لزوم لها ، وغير مناسبة وطفولية للغاية . وفكر في شبح سيلينوس Silenus في مقدونيا أو القتال بين ثيمان البحر والسفينة البحرية وهي ليست أمثلة غير عادلة لرواياته . . »

هل هيرودوت مغرض ؟

(الأخلاق عند بلوتارخ : نص توينر ، مجموعة الأعمال ، المجلد الخاص بتحقيق ج . ن برناداكس Bernadakis : الفصول ١ ، ١١ ، ١٥ ، ٢٨ ، ٢٩)^(١) .

كثير من قراء هيرودوت تأخذهم بساطة أسلوبه ، وسهولته وسلاسته ، ويؤخذون أكثر بشخصيته . وإذا ما كن أفلاطون على صواب في قوله إن آخر صورة نقية من الخلود هي المظهر الزائف للزاهة ، فإنه من الصحيح أيضاً أن العمل بالغ السكر افتراض لطبيعة جيدة كهذه وبساطة حتى يسخر بالملاحظة . إن حقد هيرودوت موجه غالباً (رغم أنه لا يفلت منه أحد) ضد البيوتيين والكورينثيين ، وعلى هذا فإني أשמرك أني مطالب بأن أدافع عن الحق وعن أسلاقي في وقت واحد مع عرض هذا الجزء في عمله على الخصوص . فإذا ما كن على الناقد أن يتناول كافة مزيفاته وخيالاته ، ملأً بذلك عدة مجلدات . وأياً ما كن الأمر ، فإننا ننقل عن « سوفوكليس » Sophocles « الاقتناع له ملامح خادعة) ولا سيما عندما يستقر في كتابات مليئة كهكذا بالسحر ومتمرس لا في إخفاء ذلك الشذوذ فحسب ، وإنما شخصية المؤلف كلها . وعندما ثار الهلينيون على فيليب الخامس وانضموا إلى « تيتس فلامينيوس » Titus Flamininus ، لاحظ الملك أن الطوق الذي وضعوا فيه أعناقهم لين إلا أنه سميك . والآن فإن خبث هيرودوت ناعم الملمس أكثر من خبث ثيوبومبس ، إلا أنه أيضاً أكثر نفاذاً وأكثر التواءاً ، تماماً كتيارات الرياح تهب بطريقة خبيثة خلال شرح فهي أكثر إيذاءً من رياح السماء .

خذ مثلاً تناوله لمسألة « أبو » « أبنه » إيناخوس في البداية الأولى لقصته والراي الشائع في هيلاس أن هذه البطلة الشهيرة قد لقيت شرفاً قدسيّاً من الشرقيين وخلفت اسمها على كثير من البحار والمضائق الرئيسية في العالم ، وأنها السلف

(١) هذا المقال وعنوانه « الحبث عند هيرودوت » جاء مع أعمال بلوتارخ إلا أن بعض النقاد يعتقدون أنه مشكوك في صحته (للتحقق) .

لأكثر البيوتات المالكه تميزاً . ولكن ماذا قال عنها مؤرخنا الفوار ؟ لقد قال لها ألفت بنفسها من على رموس بعض التجار البحارة من الفينيقيين ، لأنها كانت قد أغريت على الزنى من القبطان (رغم أن الأمر ليس ضد إرادتها) وخشيت أن يفضح حملها . هذه الرواية الطريفة تنسب تمسقا إلى الفينيقيين ، ويسرد أقوال المؤرخين القرس كدليل على أن الفينيقيين قد احتفظوا بـ « أيو » ونساء أخريات ، وشرع في تنفيذ رأى القائل بأن الحرب الطروادية - وهي أعظم عمل وأكثر أعمال هيلاس فخامة - قد نشبت نتيجة النباء من أجل امرأة لا تساوى شيئا ، يقول « من الواضح أن النساء ما كن ليختطفن إذا لم تكن رانبات في ذلك وفي هذه الحالة ، علينا أن نهم الآلهة بالنباء لإلغائهم انتهاك بنات « ليوكروس » Leuctrus على الإسبرطيين أو على معاقبة « أجاكس » Ajax لانتها لا حرمة « كاساندر » Cassandra . وحسب أقوال هيرودوت ، على أية حال ، فن الواضح أن النساء ما كانت تنتهك حرمتهم إذا لم تكن رانبات في ذلك . إلا أن هيرودوت نفسه يقرر أن « كليومينيس » Cleomenes قد أخذها الإسبرطيون حية وقد حدث الصير نفسه للقائد الآخى فيلوبويعن Philopoemen ، بينما ريجيولوس الروماني « Regulus » القنصل قد أخذه القرطاجينيون أسيرا . إننا نود أن نسمع عن مقاتلين أكثر شجاعة أو جنود أفضل من هؤلاء . إلا أنه ليس هناك شيء غير عادي في تجاربهم ، واضمين في اعتبارنا أن الفهود والنمور قد أخذت حية من جانب الكائنات البشرية . ونفس الشيء ، فإن هيرودوت يفضح النساء اللاتي انتهكت حرمتهم ويبيض أوجه الرجال الذين اغتصبوهن .

وعندما يصل إلى (الحكماء السبعة) وهو يسميهم « الموقطين » فإنه يتبع عائلة طاليس حتى يصل بها إلى الفينيقيين أو بعبارة أخرى إلى أصل غير هليئي ، وانتحل شخصية « سولون » حتى يتسنى له أن يسب الآلهة كما فعل فيما يلي « مولاي » ، إنني أعلم حقيقة أن الحقد والتخريب من طبيعة الآلهة بشكل ثابت ، وبمدئذ نسألني عما يتعلق بالحياة الإنسانية ! « هذا هو رأيي الخاص عن الأرباب ، وعندما يتناول سولون يمزج الخبث بالكفر ...

والآن دعنا نبحث رايته الخاصة بـنتيجة المعركة (معركة ماراثون) فيكتب
« إن الشرقيين دفعوا إلى سفنهم الباقية ، والتقطوا المبيد من (إريتريا) Eretria
في الجزيرة التي تركوهم فيها ، وبدأوا يبحرون حول (سونيم) Sunium ، بهدف
أن يصلوا المدينة (أثينا) قبل الأثينيين أنفسهم . ويدعى أنه في أثينا دبر (بنو
الـكايون) هذه المكيدة التي يقال إنهم عرضوا رساً^(١) كإشارة لهم بعد أن كانوا
قد تركوا سفنهم . وعلى هذا فقد شرع الفرس في الإبحار حول «سونيم» وقد يتقاضى
الفارسي عن إشارة إلى (الـارترين) على أنهم عبيد ، رغم أنهم قد أبدوا روحاً
سامية من أي هيلينيين آخرين وعانوا مصيراً لا يتفق وطبعمهم . ناهيك عن
وشايته بيت (الكايون) مع سائر العائلات الكبيرة والأفراد المرموقين النتمين
إليهم . ولكن ممالا ينتظر له أنه خرب عظمة الانتصار وجمل العمل المالي
الشهير لماراثون ينتهي بلا شيء . وما دام الأمر هكذا ، فمن الجلي ألا يكون هناك
معركة أو عمل له أية نتيجة ، وليس هناك سوى (فرسنة) صغيره في الجزء الذي
رشي من العدو (كما يبق قليلو الشأن) ، وإذا ما كان قد حدث بعد المعركة ، بدلاً
من قطع دابرهم ، ما يحملهم يهربون ويتركون أنفسهم كيفما يحملهم النسيم بعيداً
عن أثينا ، أن يلقوا إشارة خيانة نتيجة عرض الترس ، فقد طووا أشرعتهم
نحو أثينا على الأمل أن يستولوا على المدينة ، وحاصروا سونيم ، بسهولة ، ثم عرجوا
على (هاريم) ، بينما كان أكثر الأثينيين شهرة وتميزاً يخونون أثينا خوفاً من
وقوعهم في العبودية . وبعد ذلك ، عمل على تبرئة « بنو الكايون » وذلك فقط
كي ينسب الخيانة إلى آخرين فيكتب شاهد عياننا^(٢) وما من ريب في أن رساً
قد عرض ، لست أعترض على الواقعة . وأية غرابة ، في أن الأثينيين قد أحرزوا نصراً
ساحقاً ! ولكن حتى إذا حدث هذا ، فلم يلحظه العدو ، الذي كان يطرد في سفنهم
بتأثير القتلى العديدين ، فكانوا يهربون بأسرع ما يمكن في طاقة كل جندي .

(١) يستخدم بمثابة التفراغ الشمس (الحق) .

(٢) من المحتمل ألا يكون هيرودوت قد ولد بعد عندما وقعت معركة ماراثون . إن

المؤلف يكتب بألوفيتهمكي بالضم (الحق) .

وكذلك عند محاولة الدفاع « عن بني الكايون » ضد الاتهامات التي وجهها ضدهم في بداية الأمر ، يكتب « وعندي ، أن الافتراض بأن بني الكايون قد عرضوا رسماً إشارة للفرس كي يخضعوا أثينا لغير « هيباس » فهو افتراض لا يمكن قبوله . » إلا أن هذا يذكرنا فقط بالآيات التالية :

قف حيث أنت ياسيد (أبو جليبو)

وعندما أقبض عليك ، فسوف أخلى سبيلك على الفور

فلماذا تنطلع للقبض عليه إذن ، ما دمت ستطلق سراحه مرة أخرى لوأنت أيضاً ياسيدي ، تبدأ بالإنهام ، وبعدئذ تترافع . إنك تلتصق الوشايات ضد رجال شهيرين وبعد ذلك تسمح هذه الوشايات . ينفي علينا أن نستدل بأنك لا تثق بدليلك ، لأنك لم تسمع من أحد ولكنك أنت بنفسك الذي قلت بأن « بني الكايون » هم الذين عرضوا رسماً للعدو بعدما فر هارباً

وبعد ذلك هناك الأرجيفيون ، ويعرف كل إنسان أنهم لم يرفضوا مساعدة الهلينيين الآخرين ، إلا أنهم فقط أمروا على أن يكونوا تحت القيادة الدائمة للإسبرطيين أعدائهم اللدودين . هذه هي الوقائع ، فهو يوعز بأخيث اتهام . ويكتب ، أنه عندما طلب الهلينيون من الأرجيفيين أن ينضموا إليهم ، عرف الآخرون أن الإسبرطيين لن يقبلوا اشتراكهم معهم في القيادة ، وعلى هذا وضعوا هذا الشرط ، على أمل أن يجدوا مبرراً لبقائهم على الحياد . ويضيف أن أرتا كسر كيسي عندما علم بعد ذلك بهذه الواقعة من جانب رسيول الأرجيفيين ، التي قام برحلة إلى (صوسة) Susa ، أعلن أنه ليست هناك دولة ينظر إليها بصداقة أكثر من أرجوس ، وبعد ذلك ، وبشكل متميز ، يلجأ مؤلفنا إلى التلميحات . معلنا أنه ليس لديه معلومات دقيقة حول هذه المسألة ولكنه يعرف جيداً أنه لا يوجد أحد بلا أنيس وأن الأرجيفيين ليسوا أسوأ حظاً في التاريخ . وملتق قائلاً : « إن واجبي الشخصي هذا أن أعرض ما قيل ، ولست ملزماً على أية حال بتصديقه — وهذا مبدأ أستخدمه ، دون ما قصد ، في كافة أجزاء عمل فيا يتعلق بهذا ، وهناك رواية أخرى

فما يتعلق بما قيل عن دعوة الأرجيفيين للفرس ضد هيلاس ، لأنهم أساءوا في الحرب ضد الإمبراطيين وشعروا بأن أى شيء أفضل من وضعهم السيء الراهن . » ونذكر القارىء برواية هيرودوت التى يسجل فيها قرار « اثيوبان » فيم يتعلق بروائع وأصباغ التحنيط : « إن مراهم الفرس وملابسهم هى خادعة أيضاً — إنهم يكررون ويفرون حول الشيء ولا يخضمون قدماً » ويلقى الراسمون أضواءهم على بروز ظلالهم . ويركز هيرودوت تشويهاته بإنكارها ، ويرفع من تأثير إيمازاته عن طريق الألفاظ . ولا يمكن بالطبع إنكار أن الأرجيفيين لم يشتركوا مع الهلينييين وأنهم تركوا مجال الشجاعة إلى الإمبراطيين حسب اعتراضهم على ترك القيادة لهم وإلى هذا الحد ، حلوا من شأن القدرة النبيلة لهرقل ، لأنه كان من الأفضل أن يحاربوا في سبيل حرية هيلاس تحت قيادة « السفينيين Sphnians » أو « الكنتيين Cythnians » خيراً من أن يخسروا نصيبهم في النضال العظيم المجيد بسبب النزاع على القيادة مع الإمبراطيين ، فلماذا لم يبقوا إلى جانبه صراحة عندما وصل ؟ وربما بقوا في الخطوط الخلفية ، بسبب عدم الانضمام إلى قوات الملك ، ودمروا (لا كونيًا) وقاموا بمحاولة جديدة على (تيريا) T rea ، أو حاصروا الإمبراطيين بشكل أو بآخر من أشكال التسلل . وعن طريق منمهم من إرسال قوات كبيرة للحملة كهذه التى أرسلت إلى (بلاتايا) Plataea كانوا قد وجهوا ضربة كبرى إلى القضية الهلينية .

إلا أنه ، على أقل تقدير ، قد أعلى من شأن الأثينيين في هذا الجزء من عمله وأطلق عليهم منقذى هيلاس ، وهذا صحيح وسليم إذا لم تكن إطرأاته مشتتة بين القدح والتم وما هى ذى كلماته : « لم يكن من الممكن أن يهجر الهلينيون الآخرون الإمبراطيين ما لم يكونوا قد اكتشفوا أن الآخرين ذهبوا ينضمون إلى الجانب الفالاسى في غمرة يصلون فيها بأنفسهم إلى شروط مع كركيس » . وفى هذه المقطوعة ليس الهدف الحقيقى مدح الأثينيين . بل على العكس ، فهو يثنى عليهم فقط حتى يسيء إلى الآخرين . والقارىء يستطيع بصوبة أن يصبر على

سيل الإهانات المرة التي يلقي بها على الطيبين والفوكيين ، عندما يذنب في حق أولئك الذين غامروا بحياتهم من أجل هيلاس ، فيتهمهم بخيانة لم تحدث في الواقع رغم أنها ربما حدثت في الزمن في ظل ظروف افتراضية وهو حتى يلقي وشاية عارضة على الإسبرطيين يجعلها مسألة عامة سواء كانوا قد ماتوا في ميدان الشرف أو وقعوا شروط التسليم ، فإن قصتهم التي يقدمونها هم في (ترموبولاي) كانت بلا شك نافذة .

وعندما كان عليه أن يصف أربعة معارك ضد الشرقيين ، ماذا فعل ؟ لقد جعل الهلنيين يهربون من (أرتميزيوم) Artemiseum ، في ترموبولاي ، عندما كان ملكهم وقائدهم يضحي بخيانه من أجلهم ، جعلهم يقيمون في بيوتهم لا يفكرون في شيء سوى الاحتفال الأولمبي والمهرجانات الكارنية ، وعندما جاء إلى (سالاميس) أفرد مساحة أكبر للملكة « أرتميزيا » أكثر مما أفرد للمعركة بأسرها ؛ وأخيراً ، في (بلاتيا) أعلن أن الهلنيين بقوا في المعركة غير عابئين بها حتى انتهت . وتخميناً ، فإن أولئك الذين ذهبوا إلى العمل وافقوا على القتال في صمت كي لا يجذبوا انتباه الآخرين ، كالشهد الذي ورد في الملحمة الهزلية (معركة الضفادع والقيران) التي كتبها « بيجرز » Ifigeneia أرتميزيا كفسكاهة . وكذلك أظهر أن الإسبرطيين لم يكونوا أكثر شجاعة من الشرقيين وأنهم هزموا فقط بسبب تشتت القتاد . ويذكر أن « كركيس » نفسه عندما كان موجوداً في (ترموبولاي) ، كان من الفروض عليهم أن يدفعون بالكرايبج إلى الأمام قبل أن يتقدموا ضد الهلنيين ؛ والآن ، من الواضح ، في بلاتيا ، أنهم أصبحوا شخصيات مهذبة ؛ ولم يكونوا أقل في الأخلاق أو القوة البدنية . أما نقطة ضعفهم فكانت عتادهم ، التي لم يكن فيها ما يقي البدن ، وكان عليهم أن يقاتلوا معرضين ضد قوات منقطعة . وإذا تصرفوا بشكل فعال في أي مجد يتصل بالهلنيين على أساس من هذه المارك ، فإذا ما كان الإسبرطيون يقاتلون رجالاً غير مسلحين ، وإذا ما كان الباقون غير عابئين بأن المعركة كانت تحتل مكانها في الحوار ، أما إذا كانت مقابر الميت المجيد لا تحمى

أسفلها جثانا ، وإذا ما كانت النقوش التي غطت شواهد الحرب كاذبة ، وإذا لم يعرف أحد الحقيقة سوى هيرودوت ، بينما اهتم كل كائن بشري آخر بهيلاس واعتقد أن متجزاتها في الحرب الفارسية كانت فوق طاقة البشر ، وقد سجلت في أسطورة . من المحتمل أن مؤلفنا ، بأسلوبه البهيج الخلاب ، وسحره ورشاقته وطرافته ، كان يروي لنا حكايات «عواجز الفرح» بكل مهارة الشاعر ، وليس فقط بمذوبة الشاعر وتهذيبه ؟ ولا شك أن كل إنسان يجده جذاباً وخلاباً ، ولكنه يتكلم بالشر وتترارى الوشاية بين نموة عباراته الرشيقة كالزناير بين الورد . لتكن بقطاً ، وإلا فإنه يسمم عقولكم بأفكار زائفة ساخرة عن أعظم البلدان ، وأنبال الرجال في هيلاس .

نقد لوسيان الساموساطي لمعاصريه

Luican of Samosata (١٢٥ - ٢٠٠ م)

(لوسيان : مجموعة الأعمال : نص توينر ، تحقيق ك. چا كوبيتز C. Jacobitz المجلد الثاني : كيف تكتب التاريخ ، الفصول ١٤ - ١٦ ، ٤١ ، ٤٣) .

سوف أعرض لكم بعض مؤرخي هذه الحرب^(١) مما يمكن أن أتذكره من أقوالهم ، بعضها كان لي حظ سماعه في أيونيا من زمن ليس ببعيد وأخرى في أكايا Achaia في مناسبة مبكرة . وسوف أحازف بشهوتي الأدبية على الحق الذي أمضى في قوله . حقا ، سوف أكون مهيا لأقدم دليلا دامغا ، وإذا ما كان من اللائق أن تحول مقال إلى افتراض . وسار أحدهم قديماً مع «ربات الشعر» بنشرة لدعوة أولئك السيدات ليشارككن في عمله . وسوف تلحظ كم كانت هذه المقدمة جديرة بالإعجاب في نعمتها وكم لاءمت بشكل طريف العمل التاريخي وكم هي مناسبة لهذا الفرع من الأدب . وأخط من ذلك بقليل قارن بين قائدنا وأخيل وبين الـ (شاه) Shgh وترسيثيس Thersites ، دون أن يتأكد من أن أخيل كان

(١) الحرب البارثو - رومانية ١٦٦ - ١٦٥ م (المحقق)

الأفضل لمزجة «هكتور» Hector لاهزية «ترسيقيس» وفي هذه الحالة فإن رجل حرب قوى كان قد (هرب من قبل) وأنه (أفضل منه) قد جاء بعد ذلك) وبعدئذ قدم مديحاً لنفسه ليؤكد أن قلبه كان جديراً بموضوعه المجيد. وبعد ذلك كان هناك إطراء آزر، وهذه المرة من مواطن له من بلدة (ميليتوس)، مع ملحوظة يشرح فيها أى تحسين كان قد أدخله على «هومر»، والذي تقاضى عن بلده في سكون. وأخيراً، في ختام مقدمته، وعد على الفور، في كلمات كثيرة، أن يفخم من أعمالنا، وأن «يقوم بواجبه» في الإنقاذ من قدر العدو. وهذا بحق ما بدأ به روايته. والتي انغمس فيها في مناقشة أصول الحرب: «لقد شن الحرب، ذلك المجرم الشاه «ولوجيسيوس» Wologesus الأبكم والذي لا يفتر له. لكم كانت مطالمة... وهكذا.

ويكفي هذا التقدير عن هذا المؤلف، وثم مؤلف آخر منهم كان معجباً جداً بشوكروديدس، وسار بأمانة على دربه حتى افتتح موضوعه بالمبارات دأها، واستبدل اسمه الخاص به. وعندما أنقلها، أظن أنكم ستدققون الطعم الطريف من الروح الآتيكية Attic وسوف توافقون على أنها أكثر الافتتاحيات التي سمعتموها توفيقاً: كتب «كريربوس كالبورنيانوس من بومي فيل» Crepereius Calpurnianus of Pomp. ville تاريخ الحرب بين «البرثيين» Parthians والرومان. لقد بدأ الكتابة فور نشوب الحرب. وبعد مقدمة كهذه، فن نافذة القول أن تذكر كيف أنه نقل غرس الخطيب الكوركي إلى «أرمينيا» Armenia عندما أراد أن يلقي خطاباً هناك، أو كيف أنه عندما شن طاعوناً على (نيسيبيس) Nisibis لانتخاذه الجانب الخاطئ، فقد أخرجها بحجة من نوكوديدس^(١). لقد تركته حتى يتم دفن الآثينيين البؤساء

(١) كانت الأشياء الوحيدة التي أغفلها هي (البلازجيه) والحدران الطويلة، وفيها حلت ضحايا الطاعون إلى أنينا، ولكنه يترك كل شيء آخر، بما فيها السوداء، عندما انتشر الطاعون في مصر وعلى الجزء الأكبر من الأراضي الفارسية على الرغم من أنه في هذه المناسبة كان مضطراً ألا يرحل مبداً. (المؤلف ١).

في نيسيس ورحلت بمعرفة دقيقة عن كل كلمة سوف يمرضها بعد أن مضيت .
وحقيقة إنها لمخالطة شائمة هذه الأيام لمؤلف أن يتصور أنه يكتب ثوكوديدس إذا
ما كرر كلماته مع تغيرات طفيفة . نعم ، وهناك نقطة أخرى عند المؤلف نفسه
نسيت أن أرويها لكم . لقد استخدم العبارات الرومانية لعدد من الأسلحة
والأجهزة ، وحتى بالنسبة (للمتذق) و (الكوبرى) وغيرها . تصور كيف بدت
على نخط ثوكوديدس بسمو ، ان ترى هذه الكلمات الإيطالية المطمورة في
عبارات أنيكية ، ينزع عنها القطاء كالجواهر ويبرز مثل هذه الفائدة الكبرى
وينسحقها بهذه الروعة مع الصورة الخلفية .

ومؤرخ آخر ألف مجرد مذكرة بالأحداث بأكثر الأساليب تفاهة
وركاكة ، كالتى يمكن أن نجدتها في يوميات الجندي أو الصانع أو التاجر الذى يلتحق
بالجيش . إن هذا المؤرخ الهاوى كان إلى حد ما غير متعجرف . ويمكنك أن تمسك
بتلاييه إلى فترة كنعان الخشب أو كقطر الماء ، بدلا من شخص ذى موهبة أدبية
وتاريخية أفضل منه . إننى اختلفت فقط مع عنوانه الذى كان إطنابا أكثر من
أى شيء في عالم الرسائل كان له حظ في الوجود . « أسفار بارثيان » الكتاب الأول
والكتاب الثاني ، وغيره ، على أيدي دكتور كاليمورف Callimorphus ، الرماح السادس
وارتكب بالصدفة مقدمة مؤلفة في موضوع أن التأليف التاريخي جاء بين ثنايا الطب ،
لأن « إيسكلابيوس » كان ابن « أبولون » والأخير كان المرشد لربات الشمر
والهامى العام للتراث . وقد شرع أيضاً ، ولا أستطيع أن أتصور لماذا ، في الكتابة
باللهجة الأيونية وتمداها على الفور إلى لهجة عامة أو لهجة يونانية متنوعة ، بعبارة
أيونية قليلة تنارث هنا وهناك مثل البرقوق في الكمكة . وإلا لكان الحديث عادياً ،
وذلك إذا ما كان أى شيء دارج جداً .

إن المؤرخ الثالث عندى هو الجسور وغير القابل للفساد وذو العقل السامى
والمؤازر الصريح للحق . أن يوق مطالب الحكمة القائلة بأن التبن يجب أن يسمى
تبناً والمول معولاً . إن عدم محابة تقديره سوف لا يتأثر بالود أو النفور ، الإحساس
الطيب العاطفة ، الخجل أو العار . إنه سوف يفضل قسارى جهده إزاء كافة

شخصياته بأقصى ما يمكن أن يفعل دون عناية أحد على حساب الآخر .
إنه سوف يضع نفسه موضع الغريب وتزيل أرض الكتب ، يطبق القانون على
نفسه ولا يعترف بحق الانحياز إلى الرعية . إنه لن يتوقف ليضع في اعتباره
ما سوف يظننه هذا أو ذاك وإنما يقرر الوقائع .

إنني أعجب بقاعدة ثوكوديديس ومعياره عن الكتابة الجيدة والريفة . (لقد
كان يفكر بالشهرة التي صاحبت هيرودوت ، والتي كانت كبيرة لدرجة أن مجلداته
سميت بأسماء عرائس الشعر) ويزعم ثوكوديديس أنه أسهم دائماً في المعرفة أكثر
من القيام (بعمل بطولي) سريع الزوال ، ونال الثقة لقائمة إغراء الثائق أو أن يترك
للخلف سجلاً بالوقائع كالتي حدثت فعلاً . وهو يقدم أيضاً فكرة النفقة وما هو
معروف بالهدف القلبي للتاريخ ، والذي ، كما يوضح هو ، يمكن الجنس البشري
من أن يناضل بنجاح مع المشاكل الجارية في ضوء سجلات الماضي ، وفي حالة
الأحداث التي تكرر نفسها .

وهذه هي الروح التي أريد أن أجدها في مؤرخي ، أما فيما يختص بالإلقاء
والتعبير ، فإنني لا أريده أن يكتسب ، عندما يبدأ في الكتابة ، النهاية المتضمنة في
أسلوب الخبير بلذسته المبالغ فيها ، والأناقة والسلاسة . وأريد شيئاً ما أقل عدوانية
— الفكر المتابع والمركز ، والأناقة الصافية والعملية ، والعرض الممتاز .

الجزء الرابع

خناميات

كسينوفون

(تاريخ الشئون الهلينية: الكتاب السابع - الفصل الخامس ٢٦ - ٢٧)

كانت نتيجة الحركة^(١) على النقيض تماماً مما توقعه أى إنسان . إذ إن سائر هيلاس تقريباً قد احتشدت إلى هذا الجانب أو ذاك ، وكان من السلم به ، أنها إذا ما دخلت موجة العمل ، فإن المنتصرين سوف يكونون سادة بينما سوف يكون القهورون تحت رحمتهم ، إلا أن الله قد صرفها بحيث أن الجانبين قد شيداً أنصبة تذكارية في ذكرى النصر بينما لم يحاول أى من الفريقين أن يمنع الفريق الآخر من فعل هذا ، وقد رد كل من الجانبين قتل العدو في ظل راية الهدنة في ذكرى النصر بينما تلقى كل فريق قتلاه في ظل راية الهدنة في قبول الهزيمة ، وزعم كل فريق بأن النصر معقود له على الرغم من أن أيّاً منهما لم يستطع أن يبدى أقل كسب في الأراضي ، أو الحلفاء ، أو الإمبراطورية بخلاف ما يمتلكونه قبل الحركة . وعلى العكس ، كان هناك عدم استقرار كثير واضطراب في هيلاس بعد الحركة أكثر مما كان قبلها - ولكننى لا أرى أن أواسل روايتى أكثر من هذا وسوف أترك بقية ذلك إلى أى مؤرخ آخر يهتم بتسجيلها .

بوليبوس

(الكتاب ٣٨ ، الفصول ١ - ٤ والكتاب ٣٩ الفصل ٨)

لقد عانت هيلاس في زمانها فترات انهيار متكررة ، في الامتداد العام كما هو الحال في الامتداد المحلي ، إلا أنه لم يكن هناك أحد من أعضائها السابقين يمكن أن يتميز بشكل عادل بالاسم ، (كلثة) بكل مترادفات تلك الكلمة ، كأحداث جيلنا^(٢) .

(١) معركة مانتينا وقت ٣٢٦ ق . م بين طيبة واسبرطة مع حلفائها ، وقد فيها المؤلف

ابنه (المحقق)

(٢) نهوض مقدونيا الأخير في ١٤٩ - ١٤٨ ق . م والحرب بين الاتحاد الأخرى

وروماني ١٤٦ ق . م (المحقق) .

وليس من البساطة أن ترى الهلنيين بسبب آلامهم في هذه المناسبة . وفي ضوء
الوقائع كما تدرك تمهيداً ، يجب أن ينظر إليهم على أنهم مسئولون عن الكارثة
بسبب أعمالهم المتعمدة ، حتى مأساة قرطاجة الفاتكة لم تكن كبيرة لدرجة أن تقارن
بمأساة هيلاس هذه ، والتي تفوقها فعلاً في الأبعاد في بعض النواحي . لقد خلف
القرطاجيون على الأقل للأجيال المقبلة مواد لتطويع ذاكرتهم إلى أقصى درجة ،
بينما لم يقدم الهلينيون أى قواعد معقولة كيفما كان لاعتبر أعداء لأخطائهم . وفضلاً
عن ذلك ، فإن القرطاجيين كانوا سمداً لكونهم قد فنوا وقت الكارثة وتحملوا
من كل وجه مقبل عن مصائبهم ، بينما أصبح الهلينيون مشاهدين لكونهم حتى
يخلفوا مصائبهم إلى أبناء أبنائهم . ومن المتباد أن يرى للذين قاسوا الشدة
في بط . أكثر من أولئك الذين فارقوا الحياة ساعة المحنة ، وعلى هذا التماس ،
فإن مصائب هيلاس يرى لها أكثر من مصير قرطاجة — مالم تتجاهل ، في
تقبل الحكم ، اللياقة والشرف وتظهر بشكل استثنائي إلى اعتبارات مادية .
وسوف يتحقق أى قارىء من صدق قضيتي الراحنة ، بتذكر المصائب التاريخية
لهيلاس من أجل أن يقارنها بهذه الكارثة الأخيرة .

وكان غزو « كسر كيس » لأوروبا هو إحدى المناسبات التاريخية التي ألقى
الحظ بظائرها على رأس هيلاس . وكانت هيلاس بأسرها وقتئذ في ورطة إلا أنه
من الملحوظ أن غليلا من أبنائها قد تدهور . وهي ملحوظة صحيحة على الأخص
عن الأثينيين ، الذين يحتاطون بما فيه الكفاية للجلاء عن بلادهم في الظروف الحسنة
ومهم نساؤهم وأطفالهم . وبالطبع ، فإن الأثينيين ، لم يهربوا سالمين من الأزمة ، لأن
الشرقيين قد احتلوا عاصمتهم ودمروها . روح انتقامية ، إلا أن الضحايا في الوقت
نفسه ، هم أبعد ما يكونون حتى يجلبوا لأنفسهم العار أو الفضيحة ، أحرزوا مجداً أيضاً
واشتهروا بأنهم ضحوا بأممهم بكل ما لديهم في سبيل أن يقاسوا زملاءهم الهلنيين عظمتهم .
ونتيجة لذلك ، فإنهم كوفوا على قرارهم النبيل ، ليس من قبيل الاسترداد السريع
لبلادهم وأقاليمهم الوطنية ، بل بتطور مكنهم بعد فترة ليست طويلة أن ينازعو
الإسبرطيين السيادة على سائر هيلاس . وفي تاريخ متأخر ، عندما حطم الإسبرطيون

قوتهم الحربية مرة أخرى ، فقد اضطروا إلى الهبوط إلى بحر كهناء بحيث لهم أجبروا على تخريب تحصينات مدينتهم ، إلا أن القنة هنا لم تسقط على أيها فحسب ، بل على إسبرطة أيضاً ، إلى الحد الذي استغلت فيه بعنف القوة التي وهبها الحظ إياها . وقد هزم أهل طيبة بدورهم الإسبرطيين ، وفقد الآخرون سيطرتهم على هيلاس ، وبعد أن تنازلوا عن إمبراطوريتهم في الخارج ، ترتب على ذلك أن أمحصروا داخل حدود لا كونيا . ومع هذا ، فبالإضافة إلى ذلك كله ، فأى عار في ذلك ، وفي مجال المنافسة على أعلى الجوائز الشرفية ، كان عليهم ببساطة أن يرغبوا على أن يشقوا طريقاً للتراجع داخل حدود مجالهم القديم . وهكذا فإن الأحداث التي ذكرتها يمكن أن يطلق عليها شرعاً (بلأيا) ولكن ليس من الممكن أن توصف بأنها (كوارث) . وقد اضطر « الماتينيون » (كي يستمروا) إلى أن ينادروا موطنهم ، عندما اقتحمها الإسبرطيون ، وأن يستقروا في قرى مبشرة ، إلا أن كل خزي هذه الحادثة وقع على إسبرطة لأعلى (ماتينيا) . وفي تاريخ متأخر نوعاً ، رأى أهل طيبة موطنهم قد تهدم ، عندما كان الإسكندر الذي كان يفكر في غزو آسيا ، يحسب أن الرعب الذي انتشر بفعل عقاب طيبة من شأنه أن يجعل هيلاس في امتحان ، بينما كان قد انشغل من قبل بأطماعه الخاصة . إلا أنه عندما يرى أي أحد طيبة باعتبارها ضحية ظلم قاس ، لا يسي أحد إلى تبرير هذا العمل من جانب الإسكندر . وبالتالي ، لم يمض وقت طويل حتى حمل أهل طيبة على تأييدكمهم من إعادة احتلال وطنهم بأمان . والحقيقة التي تقضى بأن تطاف الجانب الثالث مادة لأهمية لهذه الضحية سوء الحظ ، من زاوية الظاهرة العامة حتى إن الحظ نفسه دار في تطاف مع اتجاهات الرأي العام ، حتى ندم المتصورون تماماً وأسلحوا بأيديهم الكوارث التي أزلوها بشكل لا يمكن الدفاع عنه . وكذلك فقد قد على خالكيس وكورينثيا وبلاد أخرى عديدة ، بسبب فيمتها الاستراتيجية لفترة من الخضوع تحت تاج مقدونيا ، والتي كانت الحمايات للتدنية قد احتلتها في هذه الفترة ، إلا أن المجتمعات التي وقعت في الرق كان مزاولها أن كل شخص كان يتطلع إلى أن يفعل ما في وسعه لتحريرها ، بينما الذين دمروا

حريتها كان ينظر إليهم بكرهية عامة وعداء كامل . . . وباختصار عندما تقاسى الهلينيون من الانهيار أو وقروا في الحزن في الفترات السابقة، كانت مجتمعاتهم هي الوحيدة التي تأثرت عموماً ، وكانت مناسبات المثرة إما مزاحمة للسلطة السياسية وإما أعمالاً أخرى من أعمال الخيانة من جانب الملوك والحكام . ولهذا الأسباب، فإن الأمثلة قليلة بالتأكيده، التي يلحق فيها الحزن بالضحايا أو التي تصبح فيها كلمة (كارثة) مرتبطة بشكل دائم بمصائبهم . و (المصائب) اسم صحيح للكوارث التي لا مبرر لها في الحياة العامة كما هو الحال في الحياة الخاصة ؛ بينما اسم (كارثة) يجب أن يحفظ بشكل استثنائي لأعمال الخيانة التي تجلب العار على مؤلفيها .

وأياماً ما كان الأمر، في الفترة موضع البحث ، فإن (الكوارث) التي وقعت في الوقت ذاته على البليونيوزيين والبيوتيين والفوكيين . . .^(١) واللوكرين وعديد من الجماعات الهلينية على الساحل الأديرياتيكي ، كما هو الحال عند القندونيين^(٢)، لدرجة أن الفكرة في هذه المناسبة كانت كبيرة من ناحية الكم والكيف عن أي كارثة سبقتها . وفي الحقيقة ، ففي هذه المناسبة قاست هيلاس ما لا تطلق عليه (مصيبة) على الإطلاق، إلا أن (المصيبة) المحزنة جداً من المقول أن تكون من نوع غير مشرف^(٣) . لقد أظهرت مزيماً من عدم الإخلاص والجبن وارتكبت أعمالاً^(٤) مروعة تلوث اسمها^(٥) . وعلى هذا ، فقد أضاعت كل شيء كان قد شرف قدرها، وأبناها ساعة المصير هذه — وظهورهم إلى الحائط إن لم تكن مجرد سلبية جبانة — قد سلموا باختيارهم الصولجان والفئوس في بلدانهم . لقد سيطر عليهم الرعب بسبب شناعة خطاياهم الفردية — إذا ما كان من العدل أن

(١) اسم ضائع في المخطوط (المحقق)

(٢) في هذه الفقرة ، حيث النس اليوناني مشوه بشكل سيء ، تجتهد التجديد التي

لقد قام به فرديش مولش (المحقق)

(٣) التجديد التي اقترحه تيودور هيس (المحقق) .

نطلق عليهم) فردية). وأنا شخصياً، يبنى أن أقول إن الأغلبية قد زاعت عن الحق إلى الضلال، وإن الخطيئة توجد عند السياسين الذين يفتديهم جهل بهذا العمق.

وبهذا الصدد، سوف لأقدم أى عذر إزاء الخروج على عرف الرواية التاريخية وتقديم ماقد يبدو أنه أكثر جدلاً وحسناً شخصياً على عملى. ومن المحتمل أن أنرض النقد فى بعض أجزاء الكتابة بشكل حاد، عندما يكون واجبي أولاً وقبل كل شيء هو أن أسدل ستاراً على خطايا الهلنيين. وأنا شخصياً أختلف فى هذا. وأعتقد أن الناس ذوى التفكير السليم، لا ينظرون إلى الجبان الذى يتنصل كصديق أصيل، من واجب الحديث الصريح؛ وعلى السياق ذاته، لا ينظرون إلى الجبان الآخر، الذى حاد عن الصواب خوفاً من إيذاء مؤقت كان مرتبطاً ببعض أناس معينين، كمواطن حق، وعندما نصل إلى مؤرخ السائل العامة، فإن المهنة يبنى أن تسد أبوابها ووجه الكاتب الذى يقيم وزناً لأى شيء أكثر من الحق. ويصل السجل التاريخي إلى جمهور أكثر اتساعاً ولفترة أطول من الوقت أكثر من أى ملاحظات عابرة؛ وهذا من شأنه أن يحدد القيمة التى يعطيها المؤلف للحق والذى يبنى على قرائته أن يضمونها فى مستوى عظيم. وفى فترة الأزمة فإن واجب كل هلىنى أن يساعد هيلاس بكافة ماله من وسائل — ليدافع عنها، ويسدل ستاراً على الخطايا، ويدافع مع المبتهلين الذين يرتنون لها — وهذا ماقت به بكل إخلاص وقت الشدة. وأياً كان الأمر، فإن واجب الهلىنى أيضاً، عندما يكون فى موقف يحتم عليه أن يخلف للأجيال المقبلة سجلاً تاريخياً عن الماضى، أن يتركه كاملاً دون مازيف. إن غرض التاريخ ليس إمتاع القارىء على المطالعة، وإنما إعادة روح القارىء، وإيقاظه من التثنية مرة واحدة من المرات العديدة...

وما إن آمنت مهمتى^(١)، حتى غادرت روما إلى بلدى. وأكاد أشعر

(١) الحق بوليبيوس مستقاراً خيراً لهيئة البعوثين التى كانت قد أرسلت لتصفية الانحدار الأخرى بعد الحرب الرومانية — الأخيرة عام ١٤٦ ق.م بعد الحصول على كل تهديده ممكنة من جانب البشة حتى يتم أعمالهم بد رحيلهم، ثم يجهزهم للرومانفهم ليقدم تقريره عنها.

إنني حققت على الأقل بعض هذه الأهداف السياسية التي جاهدت في سبيلها طوال حياتي ، وقد عادت على صداقتي لروما بالجزء السخي . والآن سوف أصلى إلى سائر الأرباب وأتوسل أن أقضى بقية أيامي بنفس النشاط وفي ظل الظروف نفسها . لقد لاحظت أعمال الخطو وأعرف طبيعة عقيرتها نحو الحاقدين على الجنس البشري ، وأعرف أيضاً أن سيطرتها مطلقة تماماً على هذه الواحات في الحياة البشرية والتي تبدو فيها أوهام الضحية أكثر دقة وأكثر أمناً .

المحتويات

صفحة

تعريف	٥
مقدمة الطبعة الاولى	٧
مقدمة الطبعة الانجليزية الاولى	١٧
مقدمة الطبعة الانجليزية الثانية	٣٩

الجزء الاول

مقدمات	٤١
هيرودوت الهاليكارناسى	٤٣
ثوكوديدس الاثينى	٤٦
بوليبىوس الميجالويولى	٦٢
ديودورس الاجريوى	٦٨
ديونيسيوس الهاليكارناسى	٧٤
إنجيل القديس لوقا	٨٢
فلافيوس يوسيفوس الاورشليمى	٨٢
أريان النيقوميدي	٩٥
أبيان السكندرى	٩٦
ديوكاسميوس ثوقيانوس النقاوى	١٠٣
هيروديان السورى	١٠٤
يونانيوس السرديسى	١٠٦
ماركوس الشماس	١١٠
پروكوبيوس القيصرى	١١٣
أجاثياس الميرهينى	١١٧
ميناندر الديدبان	١٢٤
ثيوفيل كتوس سيموكتا المصرى	١٢٥

الجزء الثاني

١٣١	فلسفة التاريخ
١٣٣	القسم الأول — التقلب
١٣٣	أوراق ورجال
١٣٣	الفناء
١٣٤	الكارثة الاثينية في صقلية
١٤٥	عبء مقدونيا
١٤٦	عبء روما
١٤٧	مصدق الكتاب المقدس
١٥٠	الموت ينهي المشكلة
١٥٤	ختال الزمن
	القسم الثاني —
١٥٦	الكبرياء والقصاص والحسد عند الآلهة
١٥٦	الرواية المعتمدة
١٥٧	حكمة سولون
١٥٩	درس بوليقرات
١٦٣	الرواية المنقحة
١٦٥	يوم الدينونة
١٦٥	المهرل السرج
١٦٦	الاتجاه العقلي
١٦٧	القسم الثالث — التطور
١٦٧	الاضمحلال
١٧٠	عمل
١٧٢	عجلة الوجود
١٧٦	دورات الحضارة
١٧٨	تتابع التاريخ
١٨١	شمول التاريخ
١٨٢	وحدة التاريخ

١٨٤	القسم الرابع — القانون والتعليل
١٨٤	الحتمية
١٨٥	نذير
١٨٦	القانون القديم
١٨٧	القانون الطبيعي
١٨٨	البيئة والطبع
١٨٩	البيئة والسياسة
١٩٠	البيئة والعنصر
١٩٢	تعريف أتيكا
١٩٣	التعليل جوهر التاريخ
١٩٣	أسباب بعيدة وأسباب قريبة
١٩٥	سلوى الفلسفة
١٩٦	القسم الخامس — حجة وملاحظة
١٩٦	أصول العنصر الهليني
١٩٧	مصر مهد الحضارة
٢٠١	هل الكولجنيون مصريون ؟
٢٠٢	طوائف
٢٠٤	انتقال الأبجدية
٢٠٥	هل خان « بنو الكمايون » هيلاس ؟
٢٠٦	هل خان الأرجيشيون هيلاس ؟
٢٠٩	كيف أنقذت أثينا هيلاس
٢١٠	الآثار الاجتماعية للحرب الفارسية الكبرى
٢١١	تأثير قوة البحر على التاريخ
٢١٥	الطاعون في أثينا

الجزء الثالث

٢٢١	القسم الأول — مسائل فنية
٢٢١	الإشكال الزمني حول هرقل

٢٢٥	تقويم مصرى وتقويم هلىنى
٢٢٨	دلىل كتابى
٢٢٩	مكان الجغرافىا فى التاريخ
٢٣٢	منهج الفصول المتعاقبة
٢٣٤	(انا) فى الرواية
٢٣٤	الخطب : مكانها الملائم وغير الملائم
٢٣٦	الحديث والرواية فى التاريخ
٢٣٨	ما الذى يصنع موضوعاً تاريخياً حقاً
٢٣٩	القسم الثانى — نقد
٢٣٩	نقد بوليبىوس لزينون الرودى
٢٤٢	نقد ديونىسىوس الهالىكارناسى لهيرودوت وثوكوديدس وثىروبومبس
٢٤٨	هل هيرودوت مفرض ؟
٢٥٤	نقد لوكيان الساموساطى لمعاصريه

الجزء الرابع

٢٥٩	ختاميات .. نهليات
٢٦١	كسينوفون
٢٦١	بوليبىوس

مطابع الجبة المصرية انعامه للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٥٦٧ / ١٩٩٠

I.S.B.N 977-01-2512-1

يعد المؤرخ الفيلسوف ، أرنولد توينبي ، من المؤرخين
المفكرين الذين يؤمنون بدور الإنسان في الحضارة . وهو في هذا
يقف في مواجهة مؤرخ آخر هو - أروالد شبنجلر - الذي قال في
عمله الشهير (انهيار الغرب) ان الحضارة الغربية قد ماتت
وانتهى أمرها ولم يأخذ ، توينبي ، بهذه الفكرة وقال بعدم
وجود حتمية في العمليات التاريخية ، وقال بان الامر كله متروك
لدور الإنسان لان الحضارة - عنده - ليست كلنا عضوا بولد
وينمو ويموت . وتنشأ الحضارة طبقا لقدرة الإنسان في الرد
على التحدي فالحضارة الصينية نشأت عندما نجح الصينيون
في الرد على فيضانات الانهار هناك . وكذلك الحضارة المصرية
القديمة نشأت بنجاح المصريين القدماء في ضبط فيضانات النيل
ومواجهة زحف الصحراء على الشريط المائي الضيق . الإنسان
إذن له دور في معالجة الحضارة الغربية من الانهيار والإفادة من
التقدم العلمي والتكنولوجي والعسكري في تأخير هذا الانهيار .
وهذا الكتاب يؤرخ لنظرة توينبي إلى الحضارات المختلفة .